

روايتان قصيرتان

آسيا

وجداول الربيع

تأليف
ا. تورجينيف

ترجمة
محمد مفيد الشوباشي

قصتان قصيرتان

آسيا و جداول الربيع

تأليف

ا. تورجنيف

ترجمة

محمد مفيد الشوباشي

دار الطباعة الحديثة

٥ شارع غيط النوبي - ت ٤٩٣١٨

القصة الأولى

آسيا

- ١ -

أخذ ن . ن . يقول : كنت وقتذاك فى الخامسة والعشرين من سنى ، وهكذا ترون أن المسألة برمتها أصبحت تاريخا قديما . وعلى أثر تخلصى من الوصاية اعتزمت السفر إلى الخارج . ولم يكن ذلك لإتمام دراستى ، على حد القول الشائع فى تلك الأيام ، ولكن لأنى أردت أن ألقى نظرة على العالم الفسيح . كنت متمتعا بالصحة والشباب والروح العالية ، وبوفرة من المال ، ولكنى لم اضطلع بأية مسئولية . كنت أعيش للساعة التى أنا فيها ، ومجمل القول أنى كنت أتبع هواى . لم تكن تلك الأيام إلا ربيع عمرى ، ولم يخطر ببالى ، كما خطر لى فيما بعد ، إن الإنسان ليس نباتا ، وأن ربيعه قصير الأمد . إن الشباب يأكل « كعك الزنجبيل » ويتخذ منه طعاما يوميا ، ولكنه لن يلبث أن يضطرب بعد حين لكسرة خبز يحصل عليها . ومع ذلك فهذا القول خارج عن الموضوع .

سافرت من بلد إلى بلد بلا خطة أو هدف . وتخلفت فى المكان الذى كان يطيب لى ، ثم واصلت السفر كلما شاقتنى رؤية وجوه جديدة . فما كنت أتلهف على شىء مثل الوجوه الجديدة ، ولم يكن يستثير اهتمامى غير الناس . فأنا أكره الأنصاب الأثرية ، ومجموعات التحف الباهرة . بل إن رؤية « الدليل » كانت تثير فى نفسى النفور والامتعاض . وقد كاد الملل يقتلنى وأنا فى متحف مدينة « درسدن » وفى الواقع إن الطبيعة

تؤثر في نفسي . ولكني لا أهتم بما يدعونه الجمال الطبيعي ، أو المناظر المثيرة ، مثل قمم الجبال ووديانها ، وشلالات الأنهار . فأنا لا أحب أن تتحكم الطبيعة في خاطري ، ولا أحتمل أن تقحم نفسها في شئوني . ولكن الوجوه ، الوجوه البشرية الحية ، وأحاديث الناس ، وحركات الناس وإشاراتهم وضحكاتهم ... هذه الأشياء الحية هي التي لا أجد غنى عنها . كان هذا شأني ، فأنا لم أشعر بالسعادة الحقيقية ، وبراحة النفس ، إلا وأنا محوط بالناس . ولم يسرني إلا أن أذهب حيث ذهب الناس ، وأن أصيح حين يصيحون . وكان يشوقني في نفس الوقت أن أرقبهم وهم يصيحون . كانت تسليتي الكبرى أن أرقب الناس .: بل إني لم أكتف بملاحظتهم ولكني كنت أمتحنهم مستشعراً نوعا من الفضول النهم المرح . ولكن هأنذا أضل مرة أخرى ، وأنحرف عن موضوع قصتي .

حسنا . كنت منذ عشرين عاما أعيش في بلدة (ز) وهي بلدة ألمانية صغيرة تقع على يسار نهر الراين . ولم أكن التمس بها غير الوحدة بعد أن وقع قلبي الولهان في حبائل أرمل في ريعان الشباب التقيت بها في أحد المتنزهات العامة . كانت رائعة الجمال لعوبا طروبا تداعب الرجال كافة على اختلاف ألوانهم ، ولم تستثن حتى شخصي الضعيف . شجعتني في أول الأمر ، ولكن ذلك لم يكن منها إلا لتطمئن قلبي بغلظة ، وتهجرني لتقبل على ضابط بافاري محتقن الخدين ولا بد من ان أسلم بأن جرح قلبي لم يكن شديد العمق ، ولكني وجدت نفسي مع ذلك مكرها على الاستسلام

للكآبة ، والركون بعض الوقت إلى الوحدة ، والشباب قريب العزاء . هوهكذا اتخذت بلدة (ز) وقتذاك مقرا .

استحوذت هذه البلدة على لى بموقعها القابع بين جبلين سامقين ، وبأسوارها وأبراجها المتداعية ، وبأشجار الزيزفون الأثرية ، وبالقنطرة المقامة على النهر المتلألئ ، أحد روافد الرين ثم بما هو أهم من ذلك جميعه وهو نبيذها الجيد . كانت أفتن شقروات ألمانيا يخطرن في شوارع المدينة الضيقة صعودا وهبوطا عقب غروب الشمس (كان ذلك في شهر يونيو) ، وكن يحيين الأجانب بعبارة « جوتن أبيند » يرددها صوتهن الجميل . وكان بعضهن يواصل النزهة حتى بعد طلوع القمر وراء سطوح المنازل القديمة ، وإلقاء ضوئه على الأحجار الصغيرة المزركشة المبعثرة في الطريق ، المتألقة وهي تستقبل أشعته وتعكسها . . . هذه اللحظات هي التي كان يشوقني أن أجوس الشوارع خلالها . وكم خيل إلى أن القمر كان ينظر من سمائه الصافية إلى المدينة ، وأنها لم تغفل عن نظراته ، وإنما شعرت بها ، وتهدجت لها ، وغرقت في لألاء أشعته . تلك الأشعة الهادئة الرقيقة التي كانت تقلق النفس رغم رقتها وهدوئها . وكان مؤشر الريح فوق البرج القوطي العالي يبدو في لون ذهبي باهت ، وأخذت صفحة النهر الداكنة المومضة تعكس مثل ذلك اللون الذهبي الباهت . وبدت وراء النوافذ تحت السطوح الحجرية المائلة شموع نحيلة . (فالألمان شعب مقتصد) تخفق (في أعلاها) ضواؤها متواضعة . وبرزت من وراء الأسوار ، بطريقة خفية ، أفرع

الكرم المجعدة المتشابكة . وكأنما مرقت أشياء غامضة فى ظل البئر القديمة القائمة وسط الميدان المثلث الشكل . ثم قطع الصمت المخيم على حين فجأة صفير الحارس الوسنان، وعوى الكلاب عواء خافتا سالما . وداعب النسيم العليل وجوه الناس أرق مداعبة . وتضوع عبير شجر الليمون، واستافت منه الأنوف أنفاسا عميقة .

تقع بلدة (ز) على بعد ميل أو ميلين من شاطئ نهر الرين . وكثيرا ما كنت أتوجه إلى ذلك الشاطىء لأتأمل النهر الكبير ، وكنت أقضى الساعات جالسا على معقد صخرى ، فى ظل شجرة ضخمة منعزلة ، مشغول البال بالأرمل المتلونة . كنت أتخيلها تمثالا للعذراء حزينا يتطلع إلى من مخبأه ، له وجه شبيه بوجه الأطفال ، وقلب يبدو من أكمامه أحمر قانيا وقد نشبت فيه النصال .

وعلى الشاطىء الآخر قبعت بلدة (ل) ، وهى أكبر قليلا من البلدة التى اتخذتها لى مقرا . وفى إحدى الليالى جلست فوق مقعدى المختار ، وأخذت أحدق فى النهر تارة ، وفى السماء ثم فى جواسق الكرم تارة أخرى . وشاهدت صبية شقرا يتعلقون بسفينة طليت بالقار إلى حافتها العليا ، ويجذبونها إلى الشاطىء . وانسابت السفن بطيئة متراخية الشراع فوق صفحة الماء . ومرت الأمواج تقرقر الواحـــدة إثر الأخرى ؛ ثم صافحت أذنى على حين فجأة أنغام موسيقية . وأرهفت السمع فأدركت أنها موسيقى رقصة «الفالس» تتهادى من بلدة (ل) . كانت نغمة «الباس»

تضج ضجيجا ، ولحن الكمان ينساب عذبا غامضا ، وصفير الناى يتراقص طربا .

سألت شيخا يرتدى صدارا من المخمل . وجوربا أزرق ، وحذاء عتيق الطراز وكان يقترب منى فى هذا الوقت بالذات .

— ما هذا ؟

فأجاب وهو ينقل غليونه من ركن فمه الشمال إلى ركنه اليمين .

هذا ؟ . . إنهم الطلبة الذين جاءوا من بلدة (ب) ليحيوا حفلة « الكومارز » .

وقلت لنفسى إنى أحب أن أشاهد حفلة « الكومارز » هذه . ثم إنى لم أر كذلك بلدة (ل) وركبت قاربا ليقلنى إلى الشاطىء المقابل .

— ٢

قد يكون هناك من لا يعلم شيئا عن حفلة « الكومارز » . إنه نوع من الأعياد الجدية التى يحتفل بها طلبة المقاطعة الواحدة ، أو الجامعة الواحدة وترتدى أكثرية المحتفلين زى الطلبة الألمان وهو عبارة عن قميص عسكرى قصير ، وحذاء عال ، وقبعة صغيرة موشاة بأشرطة ملونة . وغالبا ما يبدأ حفل الطلبة بتناول طعام الغداء تحت رعاية رئيسهم ، وهو أكبرهم سنا ، ويستمر إلى ما بعد منتصف الليل ، ويواصل الطلبة خلاله الأكل والغناء والتدخين ، وسب رجال الأعمال الجشعين . ويستأجر الطلبة أحيانا جوقة موسيقية لهذه المناسبة .

وكان حفل بلدة (ل) يطابق حفلات « الكومرز » التي وضعناها . وقد أقيم في حديقة تطل على الشارع ، وتواجه فندق «الشمس» المتواضع . وازدانت الحديقة وكذلك الفندق بالأعلام الخفاقة . وجلس الطلبة حول الموائد المصطفة تحت أشجار الزيزفون الحليقة الأغصان . وقبع كلب ضخم (بولدوج) تحت إحدى الموائد . وانتحى الموسيقيون ناحية من المكان يظللها شجر اللبلاب ، وأخذوا بعد تسللهم إليها يروون ظمأهم بجرعات من الجعة الرطبة . وتجمع عدد غير قليل من الناس في الشارع ، وتزاحموا على الأمكنة التي تتيح لهم مشاهدة الحفل بسهولة . لقد صمم قطان البلدة الطيبون على أن يغتنموا الفرصة ، ويتملوا بتتبع حفل ضيوفهم ، وانضممت أنا إلى أولئك النظارة الراجلين . ووجدت متعة في النظر إلى وجوه الطلبة السمحة ، وإلى تعانقهم ، وصياحهم ، وتظاهرهم البريء ، ونظراتهم الحادة ، وتضاحكهم دون ما سبب — وهذا هو أمتع أنواع الضحك — لقد كان هذا العباب الصاخب المرح ، عباب الحياة الفتية الناضرة ! وهذه الحيوية الدافقة الدافعة إلى الأمام — إلى أي مكان بشرط أن يكون إلى الأمام — وهذا الإسراف الطيب الساذج . كان هذا كله يؤثر في نفسي أشد تأثير . . . ويلهمني ، وقد أحسست رغبة في الانضمام إليهم . . .

وسمعت صوت رجل يقف خلفي يقول باللغة الروسية :

— ألم تكتف بما رأيت يا آسيا ؟ .

وأجاب صوت فتاة باللغة نفسها :

— دعنا نمكث مدة أطول .

وأدرت رأسي في سرعة . ووقع نظري على فتى حسن الوجه ، يرتدي سترة محلولة الأزرار ، ويضع على رأسه قبعة دقيقة . وقد أمسك بذراع فتاة ليست فارعة الطول ، اختبأ الجزء الأعلى من وجهها في ظل قبعة كبيرة مصنوعة من عيدان القش .

وأفلت من بين شفتي هذا السؤال :

— أأنتم روس ؟ !

وابتسم الفتى وأجاب .

— نعم .

وعاودت الكلام :

— لم أكن أتوقع . . . في هذا الجب النائي ! ! . .

وقاطعني بقوله :

— ونحن كذلك . ولكن هذا من حسن الحظ . دعني أعرفك بنفسي . اسمي جاجين . . . وهذه . . .

وتلعثم برهة ثم استطرد القول .

— وهذه أختي . . . وهل أستطيع سؤالك عن اسمك ؟

وذكرت له اسمي . ودار بيننا الحديث . وعلمت منه أنه يتنقل مثلي من بلد إلى بلد في طلب المتعة . وأنه حل ببلدة (ل) منذ أسبوع ، وأقام

بها حتى التقينا . وفى الحق إنى لم أكن أتوق إلى مصاحبة مواطنى الروس وأنا فى بلاد الغربة . كنت أستطيع تمييزهم عن بعد بمشيتهم الخاصة ، وبطراز هندامهم ، وعلى الأخص بتعبير وجوههم التى تنضح غالبا بالبشاشة والتعالى والاعتداد بالنفس ، ولكنها سرعان ما كانت تتبدل فتنم عن القلق والحذر . وإذا الواحد منهم يدور بعينيه مضطربا يقظا ، وكأنما نظراته تسألك : « آه يا عزيزى ! أرجو ألا أكون قد ارتكبت حماقة ... إنهم لا يضحكون منى ، أليس كذلك ؟ ... » ولا تمر برهة حتى يستعيد وقاره المهيب الذى لا تشوبه إلا دهشة جوفاء تعروه بين حين وحين .

نعم ، كنت أتحاشى مواطنى الروس ، ولكنى سرعان ما تعلقت بجاجين . فهناك وجوه يود كل إنسان أن يطيل النظر إليها . وجوه تدفىء القلب وتريحه . وكان وجه جاجين واحدا منها ، كان رقيقا مبهجا تزينه عينان هادئتان ، وشعر ناعم متموج ... وإذا حدثك صاحب هذا الوجه تشعر أنه يبتسم حتى وأنت لا تنظر إليه ، فإن نبرات صــــوته تدلك على ذلك .

وقد راعنى من الفتاة التى قال إنها أخته ، جمال خارق للعادة ، كان وجهها المستدير ذو الجلد الزيتونى الناعم ، والأنف الجميل الصغير ، والخدود الشبيهة بخدود الأطفال ، والعينان السوداوان اللامعتان ... كان ينم عن شخصية وإصالة . وكان قدها لطيف البنيان ، إلا أن أنوثته لم تكن قد اكتملت بعد ثم إن الفتاة لم تكن تشبه أخاها بحال .

واقترح على جاجين :

— أتود العودة معنا إلى منزلنا ؟ أظن أننا قد أطلنا النظر إلى الألمان حتى شبعنا . ولو كانت هذه حفلة أقامها طلبتنا لما صبروا إلى الآن على تحطيم الكراسى والأوانى . إن هؤلاء الألمان هادئون إلى حد قبيح . وما رأيك أنت يا آسيا فى العودة إلى المنزل ؟

وأومأت الفتاة إيماءة الموافقة .

وواصل جاجين الكلام :

— نحن نعيش خارج المدينة فى منزل منعزل تحوطه كرمة مرتفعة . إن المكان جميل ، ولسوف يعجبك : وقد وعدتنا مالكة الأرض أن تعد لنا لبنا رايبا للعشاء . ثم إن الظلام يوشك أن يخيم . ولا بد لك أن تنتظر طلوع القمر حتى تستطيع عبور النهر على ضوئه .

سرنا فى طريقنا ، واجتزنا أبواب المدينة . (كانت محوطة بسلسلة من قلاع قديمة تعلوها أسوار بقيت على عهدها العابر) ثم خرجنا إلى الخلاء وسرنا إلى جانب حائط المدينة زهاء مائة خطوة وقفنا بعدها أمام باب خشبى صغير . وتقدم جاجين وفتح الباب ، وسلك بنا الطريق المرتفع إلى الكرمة ، وامتدت على الجانبين شجيرات الكرم المزروعة فى أحواض عالية . وكانت الشمس قد غربت فى تلك اللحظة ، وانسكب من بقايا ضوئها سائل ذهبى غمر الشجر الأخضر ، وكؤوس الزهر الفارعة ، وسمرة الأرض الجافة ، وأحجار الرصيف المشققة ، وجدران المنزل البيضاء

ودعائمه السود المائلة ، ونوافذه المضيئة . وسبح فيه ذلك المنزل القائم على ربوة عالية .

وصاح جاجين عندما اقتربنا من المنزل :

— هذا هو مسكننا . وها هى ذى مالكته تقبل علينا حاملة وعاء الحليب . أنعمت مساء يا سيدتى ... سيتوفر لنا المأكل بعد لحظة ...

ثم أضاف :

— ولكن انظر خلفك أولا — كيف تجد هذا المنظر الطبيعى :

وكان المنظر فى الواقع فاتن الجمال . فنهر الراين يبدو تحتنا عن بعد ، وينساب شريطه الفضى بين الشاطئين الأخضرين . بيد أنه كان يتوهج فى لون الذهب عند اقترابه من مكان الغروب . وأبدت المدينة المعششة فى حضن الساطىء جميع منازلها وشوارعها. وتجلت التلال والحقول المتوغلة فى الفضاء . كان المنظر من تحتنا بديعا ، ولكنه من فوق البرج كان أفتن جمالا . فنقاء السماء ، وعمق تدويرها ، والجو المتألق الشفاف ... كان لكل هذا أشد وقع فى نفسى . وكأنما شعر الهواء النقى الطلق أيضا ، وهو يمرح كما يشاء ، أنه ينعم بحرية أتم فى هذه القمة السامقة .

وصحت مأخوذا :

— لقد عرفت كيف تختار مكانا بديعا لسكناك .

وأجاب جاجين :

— إنها آسيا التى اختارته .

ثم أردف :

— تعالى يا آسيا وأصدرى أمرك أن ينقل إلينا طعام العشاء هنا ، فنحن نريد تناوله فى هدأة الخلاء . وسنتمكن من سماع الموسيقى الصاعدة إلينا على نحو أوضح ...

والتفت إلى مستانفا حديثه :

— ألم تلاحظ أن موسيقى الفالس التى تبدو لك قبيحة مبتذلة النغمات حين تسمعها عن قرب ، تتبدل فى أذنك ، وتحرك أوتار نفسك الرومانسية حين تسمعها عن بعد ؟

وتوجهت آسيا إلى المنزل . (إن اسمها الحقيقى هو آنا ، ولكن جاجين يدعوها آسيا . واستأذنكم فى أن أدعوها أنا كذلك) ثم لم تلبث أن عادت فى صحبة ربة الدار ، متعاونة معها على حمل وعاء حوى إبريقا من اللبن ، وبعض الخبز والفاكهة ، وعددا من الصحون والملاعق وخلعت آسيا قبعتها . وتهدل شعرها الأسود كثيفا على كتفيها ، بعد أن كان يبدو قصيرا وهو معقوف وممشط كشعر الرجال . وكانت تخجل منى أول الأمر ، ولكن أخاها قال لها مؤنبا :

— كفى تجهما ، فهو لن يعضك .

وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة . ولم يمضى وقت طويل حتى طفقت تحدثنى بمحض رضاها . وفى الحق إنى لم أر من قبل إنسانا دائم الحركة مثلها . فهى لم تظل قط دقيقة واحدة فى مكان واحد . إنها لا تكاد تجلس إلى

جانبنا حتى تغادرنا متجهة إلى المنزل ، ثم لا تلبث أن تقبل علينا مسرعة ، ولا تنى تردد نغمة مرقصة ، أو تطلق ضحكة غريبة دون ما سبب ظاهر. ولعل خواطر كانت تخطر ببالها وتسبب لها هذا الضحك . أما عيناها الواسعتان فكانتا ترسلان نظراتهما الصريحة القوية دون تهيب أو مواربة ولكن أهدابهما كانت تلتقي بين حين وحين ، فإذا انفرجت بدت نظرتهما رقيقة عميقة إلى حد بعيد .

وظللنا نثرثر ساعتين . وكان النهار قد لفظ أنفاسه الأخيرة منذ مدة، وأخذ المساء يزحف متوهجا فى أول أمره ، ثم تبدد وهجه شيئا فشيئا ، وتحول إلى حمرة قانية ، ثم تبدل إلى حمرة باهتة لم يلبث الظلام أن ابتلعها . ولكن حديثنا كان يجرى مع ذلك هادئا صافيا كالجو المحيط بنا . وطلب لنا جاجين زجاجة من نبيذ الرين احتسيناها وتحدثنا عن جودتها حسبما حلا لنا . وكانت أنغام الموسيقى لا تزال تصعد إلينا ، ولكننا خلناها أرق مما كانت عليه وأعذب . وانبثقت الأنوار من نوافذ المدينة ، ورقصت على صفحة النهر ، ومال رأس آسيا على كتفها ، وتساقط شعرها على عينيها ، وتنهدت وركنت إلى الصمت . ثم قالت إنها ستأوى إلى فراشها . وغادرتنا ودخلت الدار ولكنى عدت فأطلت النظر إليها وهى واقفة وراء نافذة غرفتها غير المضاءة . وبعد لأى طلع القمر ، وداعبت أشعته صفحة الراين . وتغيرت معالم المنظر البادى لنا فإذا الذى كان خافيا يبدو للعيان ، وإذا الذى كان ظاهرا يتوارى خلف الظلال . حتى النبيذ الذى فى أكوابنا البلورية

الشفافة أومض لألاؤه إيماضا خفى المعانى . وتساقط النسيم كالطير الذى يطوى أجنحته ، وسكنت هباته سكون الموت . وتصاعد من الأرض دفء المساء المتضوع .

وصحت قائلا :

— آن أوان العودة إلى الدار . فإن لم أنصرف توا تعذر على أن أجد مركبا ينقلنى إلى الشاطىء الآخر .

وردد جاجين قولى كرجع الصدى :

— آن أوان العودة إلى الدار .

وسلكنا الممر الهابط من الربوة . وتساقط الحصى على حين فجأة من أعلا الطريق — كانت آسيا تركض فى إثرنا .

قال لها أخوها :

— ظننتك قد استغرقت فى النوم .

ولكنها جاوزتنا راكضة دون أن تجيب . وكانت بقايا المشاعل المنتثرة فى حديقة الحفل تضىء أوراق الشجر ، وتخلع على المكان بهجة وسحرا . وقد وجدنا آسيا على شاطىء النهر تحادث نوتيا . وقفزت إلى قارب النوتى وأنا استودع صديق وصديقى . ووعدنى جاجين أن يرد لى الزيارة فى اليوم التالى . وشددت على يده محييا . ثم مددت يدى إلى آسيا . ولكنها نظرت إلى جذلانة واكتفت بإحناء رأسها محيية . ومرق القارب وهو يشق صدر النهر المتدفق . وضرب النوتى القوى البنية مجذافيه فى

الماء الداكن وهو يجالد التيار .

وصاحت آسيا من الشاطىء :

— لقد اصطدم قاربك بعمود ضوء القمر . . . لقد حطمه .

وتحول نظرى إلى العباب الزاخر ، وإذا أمواجه العنيفة تطبق على القارب من مختلف جوانبه . وتردد نداء آسيا فى الفضاء .

— مع السلامة .

وصاح جاجين :

— إلى الغد .

ولامس القارب الشاطىء ، وقفزت إلى الأرض ، وارتد بصرى إلى الوراء ، ولكنى وجدت الشاطىء خاليا . وامتد عمود ضوء القمر عبر النهر كأنه قنطرة من ذهب . وترامت أنغام رقصة « الفالس » العتيقة إلى أذنى وكأنها تودعنى . لقد كان جاجين على حق ، فإن أوتار نفسى جميعها كانت تتجاوب مع تلك الأنغام الموحية .

سرت فى طريقى إلى الدار بين الحقول المظلمة ، وتمهلت فى استنشاق النسيم المحمل بعبير الزهور ، ووصلت إلى غرفة نومى منهك القوى مما عانيته من إلحاح الأحلام الغامضة المنوعة التى كنت أتوقعها ، وأحسست أنى سعيد . ولكن ما الذى جعلنى سعيدا ؟ لم أكن أتوق إلى شىء . . . بل لم أكن أفكر فى شىء . . . ولكنى كنت سعيدا .

دسست نفسى بين أغطية الفراش . وابتسمت مستشعرا الخوالج

المستفيضة اللذيذة الناعمة . وما كاد النعاس يطرق جفنى حتى فطنت إلى أن ذكرى الأرمل الجميلة القاسية لم تمر ببالى مرة واحدة طوال ذلك المساء ، فساءلت نفسى : « ما معنى ذلك ؟ ! ألم أعد عاشقا لها ؟ ! . » ولكن النوم زاحم هذا السؤال فى ذهنى ، ولا بد أن أكون قد استغرقت فى النوم كطفل يرقد فى مهده .

— ٣ —

وفى الصباح ، بينما كنت لا أزال جالسا فى فراشى ، سمعت دقات عصا على زجاج نافذتى ، وصوتا لم ألبث أن أدركت أنه صوت جاجين . وكان يردد الأغنية التالية :

« إذا غلبك النعاس فاعلم أنى سأوقظك . . .

« ستوقظك أوتار قيثارتى . . . »

وسارعت إلى الباب كى أفتحه له . وحيانى وهو يتخطى عتبته ، وقال :

— لقد أزعجتك بهذه الزيارة المبكرة . ولكن أنظر إلى الصباح ، ما أجمله !! ما أنقى هواءه !! إن أنداءه ترصع وجه الأرض . . . وطيوره تغرد . . وبدا لى صديق وهو عارى الرقبة ، مورد الخدين ، لامع الشعر ، كأنه أنضر من الصباح نفسه :

ارتديت ملابسى ، ونزلنا إلى الحديقة ، واخترنا مقعدا جلسنا فيه ، وأرسلت فى طلب قهوة الصباح ، وتبادلنا الحديث ، وأخبرنى عما أعده من خطط لمستقبل أيامه . قال إنه اعتزم الاشتغال بالفن نظرا لأن له دخلا

ثابتا يكفيه ، ولأنه غير مقيد فى حياته بأية قيود . والشىء الذى يأسف له هو ذلك الوقت الطويل الذى أضاعه هباء فى التردد قبل أن يستقر على هذا الرأى . وبحت له أنا أيضا بما رسمته لمستقبلى . وأطلعته على سر حبى المخفق ، وكان ينصت إلى باهتمام ، ولكنى أدركت أن لواعجى لم تثر إشفاقه الفعلى . وبعد أن بادلنى بعض التنهدات على سبيل المجاملة اقترح على أن أعود معه إلى منزله لأطلع على اللوحات التى رسمها . وقبلت هذه الدعوة على الفور .

لم نجد آسيا فى الدار . وأنبأتنا « صاحبة الملك » أنها ، أى آسيا ، توجهت إلى « الأطلال » . والأطلال هذه تقع على بعد بضعة أميال من بلدة (ل) ، وهى بقايا قلعة متخلفة من عصر الإقطاع . وعرض على جاجين مجموعة لوحاته فوجدت فى فنه غير قليل من الحيوية والإخلاص ، ووجدت فيه كذلك نوعا من الإنطلاق وفسحة الأمل ، ولكنه لم يتم رسم واحدة من تلك اللوحات ، بل تركها جميعا غير كاملة وبدا لى أن صنعته الفنية ضعيفة وغير معنى بها . وقد صارحته برأيى دون مواربة .

وأجاب وهو يتنهد :

— أنت على حق ، فهذه اللوحات جميعها ضعيفة غير ناضجة ، ولكن الأمر ليس بيدى . ، فأنا لم أدرس فى الرسم دراسة حقيقية . ثم هناك تلك الخصلة « السلافية » اللعينة ، وهى التراخى ... إننا نحوم كالنسور فى أعلا الأجواء عندما نفكر فيما سنقوم به من عمل ، ونشعر كأننا نستطيع

زحزحة الجبال الشم عن مكانها . ولكننا نتحول وقت التنفيذ إلى ضعفاء متخاذلين .

وكنت على وشك تشجيعه بكلمة طيبة ، ولكنه أسكتنى بإشارة من يده ، وجمع لوحاته وألقى بها فوق الأريكة .

وتمتم والكلمات تخرج من بين أسنانه المطبقة :

— لو استطعت الصبر والمواظبة لأمكن أن أصنع شيئا يذكر ، وإلا فسأبقى بليدا غبيا . . . لنخرج ونبحث عن آسيا .

وخرجنا من المنزل .

— ٤ —

يدور الطريق المنحدر المؤدى إلى (الأطلال) حول غابة محصورة فى واد ضيق . ويشتمل بطن ذلك الوادى على مجرى نهر سريع يشق طريقه الوعر بين الصخر والحجر صاخبا كأنما يتعجل الامتزاج بالنهر الكبير الذى يبدو مشرقا وراء الحاجز المعتم المكون من سلسلة جبال شديدة الانحدار . وكان جاجين يلفت نظرى إلى الأماكن التى يرقد فوقها النور فيعكس جمالا غير عادى . ودلت عبارته على أن له روح فنان حتى ولو لم تكن له موهبته . ثم بدت لنا (الأطلال) وهى حصن مربع الشكل قائم على صخرة عالية جرداء، ورغم أن صدعا أصابه وشطره شطرين إلا أنه ما زال متين البنيان . وأحاطت به من جانبيه أسوار من النباتات المتسلقة

وتعلقت فروع اللبلاب بأحجاره . ومالت الأشجار المعوجة متهاوية من وراء أسوار الحصن المنيرة ، وأقواسه المفتتة ، وهناك ممر مرصوف يؤدى إلى باب الحصن . وكان ذلك الباب قد بقى سليما لم تنل منه الأيام . وما اقتربنا من تلك الآثار حتى شاهدنا قامة فتاة تتسلق فى خفة ومهارة كومة عالية من الأحجار المهشمة ، وسرعان ما وصلت إلى أعلا سور ترتكن إليه تلك الأحجار ، وبدت لنا مشرفة على الهاوية ، فصاح جاجين :

— ماذا ؟ إنها آسيا ! . . يالها من مجنونة ! !

اجتزنا باب الحصن ووجدنا أنفسنا وسط فناء تعلوه أشجار التفاح والحشائش . وكنا قد اقتربنا من الفتاة الواقفة فى أعلا الجدار المرتفع فإذا هى آسيا فعلا ودارت بوجهها صوبنا وضحكت دون أن تغادر مكانها . وأشار جاجين إليها بأصبعه مؤنبا . وصحت أعاتبها على عدم مبالاتها . ولكن جاجين قال لى :

— دعها وشأنها . . . لا تغظها ، فأنت لا تعرف طبعها . إنها لا تجد فى تسلق هذه الأنقاض خطرا . وخير لك أن تراقب حسن تصرف الناس هنا وتعجب به .

ودرت حولى ببصرى . ورأيت عجوزا تحيك الجوراب وهى جالسة فى ظل كشك صغير ، وكانت تختلس النظر إلينا من وراء عويناتها . كانت تبيع الجعة والكعك والمياه المعدنية للسائحين ، وسقتنا جعة شبه قارسة فى

أكواب من المعدن الثقيل . أما آسيا فكانت فى ذلك الوقت تجلس القرفصاء فى مكانها بلا حراك ، وتعصب رأسها بوشاح حريرى . وبدا قدها الجميل فاتنا وراء الأفق الصافى . ولكنى كنت أنظر إليها حينذاك بنفور ، فقد لاحظت فى اليوم السابق أن بها شذوذا ، وأنها شيئا غير طبيعى وقلت لنفسى : (إنها تريد بقفزها فوق الصخور أن تلفت النظر إليها . وما جدوى ذلك ؟ يالها من حيلة صبيانية ! !) وكأنما حزرت فى تلك اللحظة ماجال بخاطرى فصوبت إلى على حين فجأة نظرة فاحصة . ثم ضحكت ، وابتعدت عن الحائط فى قفزتين ، وجاءت إلى العجوز تطلب منها كوبا من الماء . وقالت تخاطب أخاها :

— أتظننى عطشى ؟ لا ، إنى لم أطلب الماء إلا لأروى بعض الزهور المحتاجة إليه .

ولم يعرها أخوها انتباهاً . وعادت إلى الأنقاض تتسلقها والكوب فى يدها ، وتتوقف هنا وهناك ، وتنحنى فى هيئة جدية مضحكة لتصب قطرة أو قطرتين من الماء الذى كان يتألق تحت أشعة الشمس . ولا شك أن حركاتها كانت جذابة ، ولكنى ظللت متبرما بها ، غير أنى لم أستطع صرف نفسى عن الإعجاب بخفتها ومهارتها . وتعالت صرختها المصطنعة إذ تعرضت لخطر الزلل ، وبعد أن استعادت توازنها استغرقت كعادتها فى الضحك ، فزادنى ذلك ضيقا بها .

ورفعت العجوز نظرها عن الجورب الذى تغزله وتمتمت :

— ماذا ! ! إنها تتسلق الأنقاض كالمعزة ! . .

وعادت آسيا بعد أن أفرغت ما حوى الكوب من ماء ، تتمايل جذلى وهي مقبلة علينا . وكان حاجباها وأنفها وأركان فمها ترف في سخرية غريبة ، وضاقت عيناها السوداوان ضيقا بعضه تحد وبعضه جذل وانشراح وكأنما كانت أساريرها تقول لي :

— أنا أعلم أنك تعد سلوكي مشيناً ، ولكني لا أعبأ بذلك . فانا أعلم أنك معجب بي في الواقع .

وخاطبها أخوها خافت الصوت : « أحسنت يا آسيا أحسنت »

وبدت كأنها شعرت بالخجل . فقد أرخت أهدابها ، وجلست إلى جانبنا مستكينة كالمذنب . ولأول مرة أمعنت النظر في وجهها الذي لم أر وجها متقلبا مثله . ولم تمر دقائق حتى صار ذلك الوجه شاحبا ، ثم اتخذ سيماء الحزن والتفكير ، وخيل إلى أن أساريره فقدت رونق الصبا والبشاشة ، وأصبحت أميل إلى الجدية والسذاجة . وكأنما صاحبته قد غرقت في سكون عميق الغور .

وطفنا بالأنقاض . وسارت آسيا في أعقابنا معجبة بما ترى . وكان موعد الغداء يوشك أن يحل . ونقد جاجين المرأة العجوز ثمن الجعة ، ثم طلب كوبا آخر منها ، ورفعه وهو ينظر إلى نظرة العارف بباطن الأمور وصاح :

— في صحة السيدة التي خلبت لبك !

وباغتتنا آسيا بسؤالها :

— أهناك سيدة خلبت لبه ؟ . . — ألك سيدة من هذا القبيل حقاً ؟ . .

ورد جاجين :

— ومن ذا الذي نجا من مثل هذا .

وأطرقت آسيا لحظة وهي تفكر . وتغيرت أسارير وجهها مرة أخرى ، ودلت من جديد على التحدي والاستهزاء الساخر .

ولكنها ازدادت في طريق العودة ضحكا وضجيجا . وقطعت غصنا طويلا من إحدى الأشجار ووضعته على كتفها كما توضع البندقية ، وعقدت الوشاح الذي يعصب رأسها ، وأذكر أننا قابلنا وقتذاك أسرة إنجليزية كبيرة أفرادها شقر محافظون . وكان كل واحد من أولئك الأفراد يوجه بدوره إلى آسيا (وكأنه يؤدي واجبا) نظرات جامدة باردة مشحونة بالعجب والدهشة . وكانت آسيا تجيب على هذا التحدي بالترنم والغناء . وعلى إثر وصولنا إلى الدار احتجبت آسيا في غرفتها ولم تغادرها إلا بعد إعداد الطعام وأقبلت علينا في كامل زينتها ، مرتدية أجمل أثوابها وممشطة الرأس بأناقة وعناية ، ومشدودة الخصر بشد محبوك ، ولم تهمل حتى قفازها . والتزمت الوقار أثناء تناول الطعام ، وراعت تقاليد المائدة فكانت تلتقط الأطعمة لمساً ، وتتذوق الماء الذي استبدلته بالنبيذ . وكان من الواضح أنها أرادت أن تقوم أمامي بتمثيل دور جديد . وهو دور السيدة الحسنة التربية والتهذيب . أما جاجين فقد تركها وشأنها ، ولم يغب

على أنه اعتاد أن يتجاوز عن نزواتها كافة . وكان كلما التقت نظرته العرضية الرقيقة بنظرى يرفع إحدى كتفيه . وكأنما يريد بذلك أن يقول : « كن رفيقا بها — فهى بعد طفلة » . وعلى أثر انتهاء الغداء نهضت آسيا ، وأومأت تأدبا ، واستأذنت جاجين ، وهى تتناول قبعتها ، فى التوجه إلى السيدة « لويز » لزيارتها .

وأجاب جاجين :

— منذ متى تستأذنيني فى الخروج ؟

وابتسم ابتسامته المعتادة ، ولكن شائبة من الحرج كانت تشوبها هذه المرة وعاد يسأل :

— أترين مجلسنا مملا إلى هذا الحد ...

— أبداً ... وكل مافى الأمر أنى وعدت السيدة لويز أن أؤدى لها هذه الزيارة ، وأحسب كذلك أن تركـكما منفردين يسعدكما ...

وأشارت إلى وهى تستأنف القول :

— وسيستطيع السيد (ن) أن يحدثك عندئذ عن ...

وتركتنا وانصرفت ، وطفق جاجين يحدثنى وهو يتحاشى نظراتى .

— السيدة لويز أرملة لعمدة سابق . وفى الحق أنها سيدة محترمة ، ولكن رأسها فارغ . وهى معجبة بآسيا كل الأعجاب . ثم إن آسيا تميل إلى معرفة الناس الذين هم أقل منها مستوى ، وقد أدركت بتجاربى أن مثل هذا الميل ينبع من الكبر والتعالى ، وهى فتاة مدللة بعض الشىء ، ولابد أنك لاحظت عليها ذلك .

وصمد برهة ثم استطرد القول :

ولكن ما الحيلة ؟ أنا لم أستطع أن أتشدد قط فى معاملة الناس ، وأجدنى معها أشد ضعفاً ، بل أنا «مضطر» إلى التجاوز عن هناتها .

لم أعلق على قوله بشىء . ولم يلبث أن طرق موضوعاً آخر . وكنت كلما خبرته إزددت به تعلقاً ، ولم ألبث أن عرفته حق المعرفة . فهو يتميز بطبيعة روسية أصلية ، بطبيعة شريفة صادقة ، وباستقلال فى التفكير . إلا أنه يميل مع الأسف إلى التراخى ، ويفتقر إلى العزيمة والحماسة . فالشباب لم يضطرم فى أحشائه ، ولكنه ألقى عليه ضوءاً هادئاً . وهو يتمتع بالذكاء والجاذبية ، ولكنى لا أستطيع أن أستشف الحال التى سيكون عليها عندما يبلغ سن النضج . أسيصبح فناناً بحق ؟ إن تحقيق ذلك يحتاج إلى عمل متواصل طاحن . وقد أدركت وأنا أنظر إلى ملامحه السمحة ، وأستمع إلى حديثه اللين البطىء ، أن مثل هذا العمل لايتوفر بمجرد الرغبة فيه ، ولا يتحقق بإرغام النفس عليه . بيد أنه من المستحيل أن يرى الإنسان جاجين ولا يهواه . وإن قلب جليسه يتجه إليه بكليته . وقد أمضينا مايقرب من أربع ساعات جالسين جنباً إلى جنب على الأريكة ، أومتجولين أمام الدار ؛ وفى خلال تلك الساعات توشجت بيننا صداقة وثيقة .

غربت الشمس ، وحان وقت أوبتى . ولم تكن آسيا قد عادت بعد ، فصاح جاجين :

— يالها من عنيدة !! دعنى أرافقك فى طريق عودتك ، فنستطيع

المرور بدار السيدة لويز والتماس آسيا هناك . إن دارها لا تبعد كثيراً عن طريقنا .

ونزلنا إلى المدينة ، ومررنا بشارع جانبي ضيق متعرج ، ووقفنا بباب بناية ذات أربعة طوابق ، ولايتسع عرضها لغير نافذتين ، وقد خرج الطابق الثانى عن حذاء أسفل الدار ، وزاحم جو الشارع . وتجاوز الطابقان الثالث والرابع كذلك حذاء الطابق الثانى . وبدت الدار باحجارها غير منتظمة البناء ، وبالعمودين اللذين يسندان أدوارها العليا ، وبسقفها المائل المرصوف ، وبطابقها الأعلا النانىء نتوء المنقار ... بدت كأنها طائر ضخم جاثم على الشارع . ونادى جاجين :

— آسيا ! .. أأنت هنا ؟

وسمعنا صوت نافذة تفتح . ونظرنا فإذا هى نافذة غرفة مضاءة بالطابق الثالث ورأينا رأس آسيا الأسود الشعر يطل علينا ؟ ويشرئب من ورائه وجه محطم الأنياب مظلم العينين ، هو وجه السيدة الألمانية المسنة .

صاحت آسيا وهى تضع يديها برشاقة على حافة النافذة .

— هأنذا ! . كم أنا سعيدة !! خذ ، التقط هذا .

وقذفت لجاجين عودا مرصعا بزهر الجيرانيوم . وقالت :

— خذ هذا الزهر ، وازعم أننى « السيدة التى خلبت لبك ! . »

وضحكت السيدة لويز ، وقال جاجين لآسيا :

— صديقنا (ن) يعتزم الرحيل ، ويود أن يحييك قبل انصرافه .

— أيريد الرحيل حقا ؟ أعطه عود الزهر إذن . ولن يطول غيابى عنكم .

وأقفلت النافذة ، ولابد أنها قبلت السيدة الألمانية مودعة . وناولنى جاجين الغصن صامتا فوضعته فى جيبى صامتا كذلك . وتوجهت إلى شاطىء النهر وركبت القارب الذى نقلنى إلى الشاطىء الآخر .

وأذكر أنى مشيت إلى دارى دون أن أفكر فى شىء معين ، ولكنى كنت أشعر بعبء غريب يثقل قلبى ، ولم ألبث أن ثبت فجأة إلى رشدى إذ شممت رائحة لاذعة عرفتها من قبل لا يكاد الإنسان يصادفها فى ألمانيا . ودرت بعينى فرأيت إلى جانب الطريق أعوادا من نبات القنب كانت رائحة « الستبيا » (أرض روسيا المدرجة) تفوح منه وتذكرنى بلادى ، وتوقظ فى نفسى عاطفة الحنين إلى الوطن . واستحوذت على رغبة فى استنشاق عبير روسيا والتجول فى أراضيها . وساءلت نفسى : « ماذا أصنع هنا ؟ ولم أحوم فى هذه الأرض الغريبة وأخالط الغرباء ؟ . وتحول الثقل الميت الجاثم على صدرى إلى اضطراب مرير حارق . ووصلت إلى منزلى وأنا أعانى حالة تختلف كل الاختلاف عن الحالة التى عانيتها أمس . واستبد بى شعور أشبه بالغضب ظل متمكنا منى بعض الوقت وانتابنى غيظ كظيم نهش صدرى دون أن أعرف له سببا . وبعد فترة من الوقت جلست أفكر فى الأرمل الغادرة (كنت اختتم كل يوم من تلك الأيام بذكرى الأرملة الغادرة .) وأحضرت أحد خطاباتها لأقرأه ، ولكنى لم أقدم حتى على فض غلافه لأن تفكيرى تحول فجأة إلى مجرى آخر . فقد أخذت أفكر فى . . . آسيا

ومما خطر ببالي أن جاجين أشار عرضا ، فى حديث جرى بيننا ، إلى عقبة تحول دون عودته إلى روسيا . . وساءلت نفسى بصوت عال : « كى تعمية . . . أمى حقيقة أخته ؟ . »

خلعت ملابسى ، وأويت إلى فراشى ، وحاولت أن أنام . ومرت ساعة رفعت بعدها رأسى ، وجلست فى سريرى ، وأسندت كوعى إلى الوسادة ، وأطلقت العنان لأفكارى التى ظلت تحوم حول « الفتاة اللعوب ذات الضحكات المغتصبة . . » وقلت لنفسى : « إن وجهها أشبه بوجه رافائيل فى صورته المعلقة بمتحف فارنسينا . . . وأنا واثق من أنها ليست أخت جاجين . . ».

(٥)

وفى صباح اليوم التالى عبرت النهر مرة أخرى إلى بلدة (ل) زاعما لنفسى أنى أود لقاء جاجين ، ولكنى كنت فى الواقع أتوق إلى معرفة أى مسلك ستسلكه آسيا معى ، وهل ستعمد إلى مثل الحيل والألاعيب التى عمدت إليها أمس ؟ وجدتهما معا فى غرفة الجلوس ، ومن العجب — ولعل ذلك يرجع إلى طول تفكيرى فى روسيا ليلة أمس — أن آسيا بدت لى كأنها نموذج للفتاة الروسية . نعم ، بدت كأنها فتاة عادية ، بل لعلها بدت أقرب إلى خادم روسية ، كانت تجلس إلى جانب النافذة مرتدية ثوبا عاديا ، وشعرها مشدود إلى ما وراء أذنيها . وطفقت ترسم بالإبرة بعض النقوش على قطعة قماش . وكانت فى هدوئها وتواضعها كأنها لم تزاول إلا

هذا العمل ، ولم تعرف إلا مثل هذه الجلسة . وظلت مطبقة الفم لا تتكلم إلا نادرا ، وعينها لا تتحول عن عملها . وارتسم على وجهها تعبير مبتذل لا روح فيه ، فلم أملك إلا أن أتذكر ما تنضح به وجوه فتياتنا العاديات من تعبير . وكأنما أرادت أن يكتمل الشبه بينها وبينهن فأخذت تردد أغنية : « أمى ، أمى الحبيبة ! » وتذكرت وأنا أتأمل وجهها الشاحب الهامد ما ازدحم به رأسى أمس من أحلام . وشعرت بحسرة لم أعرف لها. سببا ... لقد كان أمس يوما رائعاً ... وأعلن جاجين أنه سيخرج إلى الخلاء ليرسم بعض المناظر الطبيعية . فسألته أن أصحبه إذا لم يكن فى ذلك مايضايقه . فأجابنى بقوله:

— بل على العكس ، فأنت تستطيع أن تعيننى بنصحك ...

وارتدى سترة وقبعة «هولندية» ، ووضع أدوات الرسم تحت إبطه ، وخرج وأنا فى أعقابه . وتخلفت آسيا فى المنزل . وكان جاجين قد أوصاها قبل خروجه أن تزيد الحساء غليا حتى يصبح كثيفا . فوعدته أن تشرف على طهيه . وعندما وصل جاجين إلى الوادى الذى أصبح مألوفا لدى ، جلس فوق صخرة وبدأ يرسم شجرة بلوط عتيقة ممدة الفروع . وتمددت أنا على الحشائش ، وأخرجت من جيبى كتابا وفتحته وتصفحته ، غير أنى لم أتم إلا قراءة بضع صفحات منه ، وكذلك كان جاجين لايبدأ الرسم حتى يمزق الورقة التى يرسم فيها ، ويطوح بها بعيدا ، ثم يأتى بغيرها ...وأمضينا أغلب الوقت فى المحادثة . وناقشنا بجد وحكمه — حسبما اعتقد — طريقة

العمل الصحيحة . أى ناقشنا المنهج الذى يجب اتباعه ، والأخطاء التى يجب تحاشيها ، وأهمية الفنان فى هذا العصر . ورأى جاجين أخيرا أنه غير مهيأ للعمل فى ذلك اليوم ، وتمدد إلى جانبى ، وتدفق حديثنا منطلقا انطلاق الشباب . وانهمكنا فى مناقشة من تلك المناقشات التى تحتدم أحيانا ، وتغنى بالفكر والتشويق أحيانا أخرى ، ولكنها تتصف غالبا بالغموض الحبيب إلى نفس كل روسى . وعدنا إلى المنزل بعد أن أشبعنا انفسنا بمتعة الحديث، وشعرنا بالرضا كأنما قد قمنا بعمل ناجح ووجدت آسيا على الحال التى تركتها عليها . وراقبتها عن قرب فلم ألاحظ عليها ما يدل على رغبة فى التجمل أو الهرج . ولا أحسب أحدا يستطيع أن يتهمها هذه المرة بالتصنع . قال جاجين :

— آه ! إنها كالسجينة ، لقد تحولت إلى رماد .

وفى المساء تثاءبت عدة مرات تثاؤبا حقيقيا لا تصنع فيه ، ثم انصرفت قبل الأوان إلى فراشها . واستأذنت أنا بدورى فى الانصراف ، وعدت إلى منزلى ، ولم أستغرق فى أحلام كأحلام البارحة . فقد كان اليوم يوم مشاعر متزنة رزينة . وعندما أويت إلى فراشى لم أتمالك مع ذلك أن صحت : « يالها من حرباء ! ! . . » ثم أردفت : « ومع ذلك فأنا واثق من أنها ليست أخته ! »

— ٦ —

مضى على أسبوعان كاملان وأنا أزور جاجين كل يوم . والظاهر أن

آسيا كانت تتحاشى لقائى . وهى مع ذلك لم تكن ترتكب فى حضورى تلك النزوات الطائشة التى أدهشتنى ذلك الإدهاش فى اليومين الأولين لمرفقى بها . ويبدو أنه كان هناك عامل خفى يحزنها أو يربكها . بل إنها لم تعد تطلق ضحكاتها التى كانت تطلقها من قبل . وقد دعانى هذا إلى مراقبتها باهتمام وفضول .

كانت تجيد الفرنسية والألمانية ، وتتحدث بهما فى طلاقة . ولكن شيئا من مظهرها لم يدل على أنها حظيت فى سنى طفولتها بأنثى ترعاها وتسدد خطاها . فهى لم تتلق من صفوف التعليم إلا كل غريب شاذ ، وهى فى ذلك تختلف كل الاختلاف عن جاجين . . . وإذا نحن استثنينا قبعة جاجين الهولندية الطراز ، وسترة الفنان التى يرتديها ، فإنه فيما عدا ذلك يبدو كالسيد الروسى المدلل . أما هى فمجردة من أية مسحة تدل على أنها سيدة راقية . ولا أدل على ذلك من أنها دائمة الحركة ، لا تستقر على حال. فهى نبات برى لم يطعم . أو هى نبيذ ما زال فى حالة التخمر ، وهى حيية هيوبة بطبيعتها ، فاذا ضاقت بخجلها وإحجامها بذلت جهدها لتظهر بمظهر الشجاعة والاستقلال ، ولكن جهدها لم يكن يصيب التوفيق . وقد حاولت أن استدرجها فى القول أكثر من مرة لأقف على طرف من حياتها السابقة التى قضتها فى روسيا ، ولكنها كانت تحجم دائما عن الرد على أسئلتى . بيد أنى علمت مع ذلك أنها عاشت شطرا طويلا من حياتها فى روسيا قبل أن تغترب . ولاقيتها يوما على انفراد . كانت منكفئة على كتاب وقد

أسندت رأسها بيديها ، وغرست أصابعها فى شعرها ، وراحت عيناها تلتهمان إحدى صحائفه . قلت وأنا مقبل عليها .

— مرحى ، فكم أنت مجتهدة اليوم .

ورفعت رأسها ، وصوبت إلى نظرات جادة قاسية :

— أنت تظن أنى لا أحسن غير الضحك

وتظاهرت بأنها ستغادر المكان .

ولمحت اسم الكتاب . ووجدته قصة فرنسية فقلت :

— أخشى أنى لا أستطيع استحسان اختيارك لهذا الكتاب .

— وماذا أقرأ إذن ؟

وألقت بالكتاب على المائدة وأضافت قولها :

— أولى بى أن أغادر المنزل ، وأبحث عن متعة أستمتع بها .

وخرجت إلى الحديقة ركضا

وفى المساء جلست إلى جاجين ، وأخذت أقرأ له قصة « هيرمان ودوروثى » بصوت عال ، وكانت آسيا ، أثناء قراءتى ، تمر بنا مرورا بين حين وحين . ولكنها أقبلت بعد ذلك مطأطئة الرأس ، وجلست إلى جانبى هادئة صامتة منصتة إلى أن أتيت على آخر القصة وفى اليوم التالى ظهرت لى بمظهر جديد لم أستطع أول الأمر تفسيره ، ولكنى فطنت بعد ذلك إلى أنها أرادت أن تغدو رزينة كربات البيوت ، تشبهاً «بدوروثى» . وبجمل القول إنها تبدو لى دائما لغزا يحتاج إلى حل . لقد كانت رقيقة حساسة ،

بيد أنها كانت تستهوينى حتى فى حالة استثارتها لغضبى . والشىء الذى كنت أزداد به اقتناعا يوما بعد يوم هو أنها لم تكن أخت جاجين . فهو لم يكن يعاملها معاملة أخوية . فقد كان يمنحها من عطفه وتسامحه فوق ما يمنحه الأخ . وكان يبدو ، فى الوقت نفسه ، عصبيا بعض الشىء فى مجلسها .

ووقع حادث غريب أيد اقتناعى هذا . ففى إحدى زياراتى لجاجين وجدت باب كرمته مغلقا ، ولم أضيع الوقت فى التفكير عن سبب ذلك ، بل تخطيت السور من فجوة فيه كنت قد لاحظتها من قبل واقتربت من جوسق على جانب الممر ، غير بعيد من السور ، تظلله الأعشاب ، وكنت على وشك أن أتجاوزه ، ولكن الدهشة تملكتنى فجأة إذ سمعت آسيا تقول باكية الصوت

— أنا لا أريد أن أحب غيرك — لا ، لا . وإنما أريد أن أحبك وحدك . . . أريد أن أظل لك على الدوام .

— كفى يا آسيا . هدئى من روعك . أنك لا تجهلين مبلغ ثقتى فى صدق قولك .

وكان صوتهما ينبعث من الجوسق ، وقد رأيتهما من خلال الأعشاب جالسين داخله . أما هما فلم يفطنا إلى وجودى .

وكررت آسيا قولها :

— أنت ... ولا أحد غيرك .

وكانت تترامى على صدره وهى ترسل تنهدات متشنجة ، وتقبله حينا

بعد حين ، وتضمه اليها أما هو فكان لايني يمسح شعرها الناعم بيده ، ويكرر قوله :

— ماذا هنالك ! ماذا هنا لك ! ...

وقفت دقيقة أو دقيقتين جامدا فى مكانى . ثم تحركت ، وخطر ببالى كومض البرق « أأدخل عليهم ؟ لا ، ولو دفعوا لى مال الأرض » وعدت أدراجى مسرعا إلى الحائط ، وتخطيته إلى الطريق ، وكدت أركض أثناء عودتى إلى دارى ، وتبسمت وفركت يدا بيد ، مغتبطا بهذه الواقعة التى أثبتت صدق حدسى من حيث لم أتوقع (بيد أنى لم أكن أشك فى صدقه قط) . وشعرت فى نفس الوقت بمضض يوجع قلبى ، ومما لاشك فيه أنهما عرفا كيف يكتمان سرهما ، ولكن فيم هذا الكتمان ؟ ولم يريدا تضليلى ؟ إنى لم أكن أتوقع ذلك منه ... لشد ما كانت اعترافاتها مؤثرة !! ...

— ٧ —

استيقظت فى الصباح مبكراً بعد أن قضيت ليلة مرهقة . وشعرت بثقل فى جسمى وتوتر فى أعصابى . وقلت لربة البيت ألا تنتظرنى قبل المساء . وصعدت فى الجبل الممتد إلى جانب النهر الذى ترقد مدينة (ز) فى حضنه . وهذا الجبل هو واحد من سلسلة الجبال المسماة «ظهر الكلب» هاندزروك وهذه الجبال ذات أهمية جيولوجية كبرى . فهى مشهورة ، على الأخص بجودة حجر البازلت المستخرج منها ، بيد أنى لا أميل كثيراً للبحوث الجيولوجية . ولم أدر حقيقة ما كان يدور بخلدى فى ذلك الصباح . ولكن

شعورا واحداً من مشاعرى الغامضة كان واضحا لى كل الوضوح ، وهو رغبتى فى عدم رؤية جاجين وآسيا مرة أخرى . وكنت أؤكد لنفسى أن السبب الوحيد الذى نفرنى منهما هو نفاقهما ، فمن ذا الذى أرغمهما على الظهور بمظهر الأخوين ؟ وحاولت أن أبعد عن ذهنى سائر الخواطر التى كانت تخطر لى عنهما .

ظللت أدور فى تلك النواحى وفق هواى ، فتنقلت بين الوادى والجبال ، واسترحت فى خان القرية ، وتحدثت إلى نزلائه ورواده . ثم استلقيت فى الخلاء على صخرة ملساء دافئة وراقبت السحب البيض وهى تسبح شفافة فى الفضاء ... لقد كان الجو فى ذلك اليوم رائعاً .

ومرت بى ثلاثة أيام أنفقتها فى مثل هذا اللهو . بيد أنى كنت أشعر بين وقت وآخر بوخز فى قلبى . ولم يرحنى إلا أن هدوء المناظر الطبيعية فى تلك البقعة من الأرض كان يلائم حالة نفسى وخواطرى وقتذاك كل الملاءمة .

وأسلمت نفسى للأحاسيس المفاجئة ، وللمؤثرات الوقتية . كانت المشاعر تتعاقب على نفسى فى هدوء ، ثم تتصل وتندمج ، وتتحول فى النهاية إلى عاطفة واحدة تنطوى على كل ما ينبض له قلبى ، ووقعت عليه عينى ، والتقطته أذنى خلال هذه الأيام الثلاثة ... فمن رائحة خفيفة منبعثة من أشجار الصنوبر ، ومن صياح المحتطبين وضجيجهم ، ومن خرير الجداول الذى لاينقطع ، ومن ألوان الأسماك الجارية تحت مائها الشفاف . ومن حسن استدارة قمم الجبال الهادئة ، ومن دكنة الصخور الضخمة ، وجمال القرى

النظيفة ، والكنائس القديمة المحوطة بالأشجار ، وطيور البرارى ، وطواحين الهواء التى لاتكف مراوحها عن الدوران ، ووجوه الفلاحين الوديعة الصديقة ، وملابسهم الزرق ، وجواربهم الشهب ، وعرباتهم البطيئة تجرها جيادهم السمينة أو أبقارهم ...والحجاج ذوو الشعر الطويل يخترقون الطرق النظيفة بين صفين من أشجار التفاح والكمثرى.

وإنى أجد متعة حتى اليوم فى استعادة تلك المشاعر .. فلك التحية أيتها البقعة المتواضعة من أرض ألمانيا . أيتها البقعة التى تكفى نفسها بمواردها القليلة ، وتحمل كل مكان فيها طابع اليد العاملة ، وأثر العمل المتمهل الصبور تحية لك ، وسلاما عليك !

وعدت إلى منزلى فى آخر اليوم الثالث ، وقد فاتنى أن أذكر أنى حاولت منذ غضبت على أسرة جاجين ، أن أحيى فى قلبى صورة الأرمل الخؤون ، ولكن جهودى ضاعت هباء . وأذكر أنه حدث مرة خلال تلك الأيام الثلاثة ، أنى كنت أسترجع ذكرياتها وإذا بى ألمح فلاحة صغيرة لاتتجاوز الخامسة من عمرها ، ذات وجه مستدير وعينين يقظتين، ترسل إلى نظرات الطفولة البريئة .. لقد أخجلنى صفاء تلك النظرات فعجزت عن مواصلة الكذب والرياء . ومنذ تلك اللحظة أقلعت عن فكرة إحياء تلك العاطفة القديمة .

وقد وجدت فى انتظارى كلمة كتبها لى جاجين ، لقد عبر لى عن دهشته للسرعة التى نفذت بها فكرة الصعود إلى الجبل ، ولامنى على عدم التفكير فى استصحابه وسألنى أن أزوره عقب عودتى من رحلتى الجبلية .

قرأت رسالته متململا ، ولكنى ذهبت فى اليوم التالى إلى بلدة (ل) .

— ٨ —

تلقانى جاجين بحفاوة . وأمطرنى فيضا من العتاب الصادق . وما كادت آسيا ترانى حتى قابلتنى بتلك الضحكات التى تطلقها دون سبب ، ولم تلبث أن غادرتنا مسرعة . وشعر جاجين بالارتباك ، وقال مغمغما : « لا بد أنها مجنونة » ورجانى أن أتجاوز عن خطئها . ولست أنكر أن تصرف آسيا كان يثير أعصابى ، كان يقلقنى — وتلك الضحكات المفتعلة ، والألاعيب الشاذة لم يكن من شأنها أن تعالج حالتى النفسية ... وقد حاولت مع ذلك أن أظهر بمظهر من يجهل الحقيقة ، وطفقت أحدث جاجين عن رحلتى القصيرة . وحدثنى هو بدوره عما حدث له أثناء غيابى . ولكن محادثتنا انقطعت ، فقد اقتحمت علينا آسيا الغرفة ، ثم ارتدت راكضة . وأخبرت جاجين على أثر ذلك أن ورائى عملا هاما لابد أن أنجزه ، وأن وقت أوبتى قد حان . وحاول جاجين فى أول الأمر أن يستبقينى . ولكنه عاد فنظر إلى مليا ، ثم قال إنه سيصحبنى فى طريق عودتى . وظهرت آسيا فجأة فى الردهة ، وأقبلت على ومدت يدها محيية ، ولكنى اكتفيت بلمس أطراف أصابعها ، وانحنيت انحناءة خفيفة .

ركبت القارب مع جاجين إلى الشاطىء الآخر ، ومررنا تحت الشجرة الحبيبة إلى نفسى ، شجرة البلوط التى تحمل تمثال العذراء ، بين أفرعها . وجلسنا على مقعد هناك ، وأخذنا نتأمل المنظر الطبيعى المتجلى لنا . ثم دارت بيننا محادثة هامة .

لقد بدأناها بتبادل بضع كلمات لا رباط بينها ، ثم ركنا إلى الصمت ، وأخذنا نتأمل النهر المتدفق المتلألىء .

وسألنى جاجين فجأة ، وعلى ثغره ابتسامته العذبة المعتادة :

— خبرنى يا صديق ، ما رأيك فى آسيا ؟ أظنك تجدها غريبة الأطوار .

أجبته وقد أخذتنى الدهشة ، فإنى لم أتوقع أن يحدثنى عنها :

— أى نعم .

لا بد أن تعرفها حق المعرفة قبل أن تصدر حكمك عليها ، فهى طيبة القلب جدا ، ولكن بها لوثة ، وعشرتها ليست سهلة والذنب فى ذلك ليس ذنبها ، فإنك إذا عرفت حكايتها ...

وقاطعته متسائلا :

— حكايتها ؟ ! ، أظن أنك قلت لى إنها ...

وواصل كلامه دون أن يعير ارتباكى أهمية :

— أعتقدت الرأى على أنها ليست أختى ؟ ألا فاعلم أنها أختى حقيقة ، ولكنها ليست شقيقتى . فهى ابنة أبى . وإنى أستطيع ولاشك أن آتمنك على سرها ، ولن أخفى عنك من تفاصيله شيئا . . . كان أبى على أكبر جانب من الحكمة والعطف والعلم ، ولكنه كان سىء الحظ . وإذا كانت الأقدار لم تخصه دون غيره بويلاتها ، فإنه كان أقل احتمالا من سواه فلم يستطع الصمود لأول صدمة من صدماتها . تزوج فى صباه امرأة أحبها ،

ولكن زوجته ، وهى أمى ، ماتت وأنا لم أتجاوز شهرى السادس . وأخذنى أبى بعد موتها إلى الريف حيث أقمنا اثنى عشر عاما . وكان فى تلك الأثناء يتولى تربيتى وتعليمى بنفسه ، ولم يكن يخطر بباله أن يفارقنى حتى جاء أخوه ، أى عمى ، إلى الريف لزيارتنا . كان عمى هذا يعيش فى مدينة بطرسبرج ويتولى هناك منصبا هاما . واستطاع أثناء إقامته معنا أن يقنع أبى بأن يستصحبنى معه ، ويتولى أمرى ، مادام أبى لا يرى داعيا يدعوه إلى ترك الريف . وقد أشار إليه أنه لا يحسن بغلام فى مثل سنى أن يعيش فى تلك الوحدة والوحشة ، وقال إن أثر حالة أبى السيئة فى نفسى سيؤدى إلى تخلفى عن الصبية الذين هم فى مثل سنى ، بل إنه سيؤثر فى استعدادى . وظل أبى يناقش حجج عمى مدة ، ثم سلم بها فى النهاية . وتحدرت دموعى وأنا أودع أبى فقد كنت أحبه رغم أنى لم أشاهد ثغره يفتر عن ابتسامة واحدة . ولكنى ما وطئت أرض بطرسبورج حتى نسيت دارى الريفية المظلمة الكئيبة . وأرسلنى عمى إلى مدرسة عسكرية ، ومنها ألحقت بكتيبة الحرس . وتعودت أن أزور الريف كل عام حيث أقضى أسبوعا أو أسبوعين . وكنت أجد أبى فى كل زورة أشد كآبة مما كان عليه فى الزورة السابقة ، وأميل إلى العزلة ، حتى صار من فرط التفكير والتأمل كالناسك المعتزل المجذوب . كان لا ينقطع عن زيارة الكنيسة يوما واحدا ، وكاد يفقد عادة الكلام وحدث فى إحدى زياراتى له ، وكنت حينذاك فى العشرين من عمرى ، أن لاحظت لأول مرة وجود فتاة فى المنزل ، سوداء العينين ، لم تتجاوز عامها العاشر . ولم تكن هذه الفتاة إلا آسيا بعينها ، وقد قال

لى أبى عنها « إنها صبية يتيمة آواها ليطعمها ويحميها » — هذه هى عبارته بألفاظها — ولم ألق بالا إلى تلك الصبية ، كانت فى صمتها وخجلها وسكونها أشبه بحيوان صغير . وأذكر أنى كنت كلما دخلت الغرفة المفضلة عند أبى ، وهى الغرفة المظلمة الفسيحة التى ماتت فيها أمى ، والتى لم يكن بد من إضاءتها بالشموع حتى فى وضح النهار ، أذكر أن تلك الصبية كانت عند ذاك تهرب منى ، وتتوارى خلف أحد الصناديق أو خلف مقعد أبى العالى المسند ، ثم حدث بعد هذه الزيارة أن حالت واجباتى العسكرية مدة ثلاث سنوات أو أربع دون تكرارها . وكنت أتلقى من أبى كل شهر رسالة مقتضبة ، ولكنه لم يكن يشير إلى آسيا فى رسائله هذه إلا نادرا ، وإلا عرضا ، كان فى ذلك الوقت قد تجاوز الخمسين من سنيه ، ولكنه كان لا يزال يبدو فى سن الشباب . فتصور حالى عندما تلقيت من وكيله ، وأنا مطمئن كل الاطمئنان إلى موفور صحته ، نبأ تعرضه لمرض قتال يقتضى السفر إليه فيما إذا رغبت فى لقائه قبل أن يحين حينه ، واندفعت فى طريقى إليه ، ووجدته لا يزال على قيد الحياة ، وإن كان فى رمقه الأخير . وقد فرح بلقائى فرحا لا يوصف ، وطوقنى بذراعيه الواهنتين ، وأطال النظر فى عينى محدقا تحديقا فيه أسئلة وفيه توسلات ، وبعد أن وعدته بتنفيذ رغباته الأخيرة طلب إلى خادمه القديم أن يستدعى آسيا . وعندما دخلت علينا الغرفة كانت لاتكاد تقف على قدميها من شدة الانتفاض .

وقال أبى فى صعوبة :

— هاأنذا أوصيك خيرا يابنى — بأختك ، وسيحطيك يعقوب بالأمر جميعه .

قال ذلك وهو يشير إلى الخادم المسن . وانفجرت آسيا بكاء وزفيرا ، وأخفت وجهها فى فراش أبيها ، ولم يمر غير نصف ساعة حتى كان المحتضر قد لفظ أنفاسه الأخيرة .

هذا ما علمته فآسيا ابنة أبى من « تاتيانا » التى كانت خادما للمغفور لها أمى . وأنى مازلت أذكر تاتيانا هذه بوضوح ... ما زلت أذكر وجهها المستطيل ، وأساريرها الجميلة الجادة الفطنة ، وعينيها الواسعتين السوداوين . كانت فى نظر الناس أبية أنوفا بعيدة المنال . وكل ما استطعت أن استخلصه من حديث يعقوب المتحفظ أن أبى اتصل بهذه الفتاة بعد مرور سنوات على موت أمى . وقد أبت الفتاة أثناء تلك الصلة أن تعيش فى قصرنا الكبير ، وآثرت النزول فى كوخ أخت لها متزوجة تضطلع برعى الماشية .

وكان أبى شديد التعلق بها . وقد أراد بعد رحيلى مع عمى أن يتزوجها ، ولكنها لم تذعن لإرادته رغم رجائه وتوسله .

ومما قاله لى يعقوب وهو واقف إلى جانب الباب فى أدب واحترام : « إن المغفور لها تاتيانا فاسيليفنا كانت مثالا للحكمة وحسن الإدراك ، وقد حرصت على ألا تسىء إلى أبيك بحال . كانت تقول له : « إذا تزوجتنى فأية زوجة تكون قد تزوجت ؟ ! ... أنا لست سيدة راقية »

هكذا كانت ترد على المغفور له وكان مثل هذا الحديث يجرى أمامى

وقد رفضت تاتيانا أن تنتقل إلى منزلنا بعد أن وضعت آسيا ، وظلت تقيم مع ابنتها فى كوخ أختها . وأنا لم أكن أرى تاتيانا أيام صباى إلا فى الكنيسة أيام الآحاد . كانت تقف بين الحشد إلى جانب النافذة متدثرة بشال مزركش تضعه على كتفها ، ومعصوبة الرأس بمنديل أسود . وكانت الخطوط الجانبية لوجهها الصارم تبدو واضحة المعالم خلف زجاج النافذة اللامع . وإذا استغرقت فى الصلاة انحنت فى وقار متواضع ، وكاد جبينها ، وفقا للعادة القديمة ، يلمس الأرض وعندما استصحبنى عمى إلى بطرسبورج كانت آسيا قد أتمت عامين من عمرها . وعند ما ماتت أمها كانت فى الثامنه .

وعلى أثر موت تاتيانا استدعى أبى آسيا لتقيم معه فى المنزل الكبير ، وكان قد أبدى رغبته قبل ذلك فى ضمها إليه ، ولكن تاتيانا لم تسمح حتى بتلبية تلك الرغبة ، وتصور يا صديق المشاعر التى استولت على آسيا عند ما وجدت نفسها بين جدران المنزل الكبير ! ! إنها لم تنس إلى اليوم تلك اللحظة التى ارتدت فيها ثوبها الحريرى الأول ، وجاء إليها خدم القصر واحدا بعد واحد يلثمون يدها ، وبعد أن تعودت حزم أمها فى تنشئتها ، وجدت نفسها متمتعة فى منزل أبيها بحرية مطلقة ...

لقد أصبح أبوها معلمها ورفيقها الوحيد ، وهو لم يفسدها ، بل لم يدللها ، ولكنه كان يهيم بها هياما فتركهاتصنع مابدا لها ، وكان يشعر فى قرارة نفسه أن هذه الخطة تضر بها ، ولكنه لم يملك الحيدة عنهـــا

وأدركت آسيا على التو أنها أهم فرد فى المنزل الكبير ، وأن أباها صاحب المنزل وسيده ، ولكنها أدركت فى الوقت نفسه زيف وضعها . فنما فى نفسها كبر أخذ يشتد ويستفحل ، ونما معه خجل لا يقل عنه اشتدادا واستفحالا . وتأصلت فيها خصلة سيئة ، وتبددت بساطتها وأصالتها . وقد صارحنى فى أحد الأيام بأن حلمها فى الحياة هو أن تحمل العالم بأسره على نسيان أصلها ، وكانت تخجل من أمها ، بل كانت تخجل من خجلها ، وتباهى فى نفس الوقت به تحديا .

وكم سمعت أذناها الصغيرتان من قول غير مناسب لسنها ! ! . أترى هذا . ولكن ، أكان الذنب ذنبها فيما حدث ؟ ... لقد ظلت تندفع مأخوذة بنشوة الصبا ، وحرارة دم الشباب، دون أن تتاح لها يد تقودها إلى جادة الصواب ، ولم تكن لحريتها المطلقة حدود ، ولم يثقل كاهلها أى حمل ، وكم عقدت العزم على أن تصبح سيدة خيرة كسائر من فى سنها من سيدات المجتمع ، وانكبت على القراءة بنهم ، ولكن أية فائدة كانت ترجى من كل هذا مادامت حياتها قد بدأت بداية سيئة وتطورت تطورا غير سليم ؟ ! إلا أن قلبها ظل مع ذلك طاهراً ، وعقلها غير مأفون .

وهكذا وجدت نفسى شابا فى حوالى العشرين مسئولاً عن فتاة فى الثالثة عشر تعيش معه تحت سقف واحد ، وفى الأيام الأولى التى تلت وفاة أبى كان سماع صوتى يكفى لإشعال جذوة الحمى فى بدنها ، وكانت

ملاطفتى تشقيها ، ومضت مدة قبل أن تألف عشرتى ، ولكنها فى الحق تبدلت بعد ذلك ، فما تحققت من أنى أعدها أختى فعلا ، وأنى متعلق بها تعلق الأخ الصادق حتى تحولت إلى نقيض ما كانت عليه وهامت بى هياما — فعواطفها لم تكن تعرف الاعتدال ...

وسافرت بها إلى بطرسبورج . ولم تكن صحبتها سهلة على نفسى ، ولم يكن من الميسور أن أعيش معها تحت سقف واحد ، فألحقتها بأحسن مدرسة داخلية فى المدينة . وسلمت آسيا بأن فراقنا كان ضرورة لابد منها ، ولكنها وقعت فريسة لمرض كاد يصبح قاتلا عقب ابتعادها عنى، ثم اعتادت حياة المدرسة شيئا فشيئا ، وظلت تواصل تلك الحياة أربع سنوات ، وخرجت من المدرسة كما دخلتها ، خلافا لما كنت أتوقع . وكانت ناظرة المدرسة تشكوها إلى باستمرار ، وتقول « إن عقابها لايثمر، والتلاطف معها لا يحدث صدى فى نفسها » كانت آسيا تلميذة لامعة ممتازة ، بل كانت تفضل التلميذات جميعا ، ولكن أية قوة لم تكن تستطيع أن تخضعها ، فقد كانت عنيدة صارمة . ولم يكن قلبى يطاوعنى على تأنيبها ، فقد كانت حالتها تفرض عليها أحد مسلكين ، فإما أن تذل وتستكين ، وإما أن تتمرد وتثور. وهى لم تصاحب من زميلاتها إلا فتاة مسكينة ساذجة منبوذة. أما سائر الزميلات ، وهن كريمات المحتد ، فكن ينفرن منها، ويسعين إلى إيلامها ماوسعهن ذلك ؛ ولكن آسيا لم تخضع لهن فتيلا ، وبينما كان مدرس الدين يتحدث مرة عن الرذيلة صاحت آسيا : « الملق والجبن هما شر الرذائل » . ومجمل القول إنها واصلت خطتها كما بدأتها . ولم يطرأ أى تحسين إلا على سلوكها ، ولو أن هذا التحسين كان طفيفا .

وبلغت آسيا أخيراً سن السابعة عشر ، ولم يعد من المستطاع بقاؤها فى المدرسة بعد تلك السن . وشعرت بحرج موقفى . ثم خطر لى على حين فجأة ذلك الخاطر السعيد وهو أن أستقيل من الخدمة العسكرية ، وأسافر فى صحبة أختى إلى الخارج حيث أقضى عاماً أوعامين . وماكاد هذا الخاطر يطوف برأسى حتى قمت على الفور بتنفيذه . وها نحن الإثنين على شاطئ الراين كما ترانا ، أحاول أنا أن أشغل نفسى بالتصوير بينما هى تتصرف تصرفاً أشد تطرفاً وشذوذاً . وأرجو بعد ذلك أن تكون فى حكمك عليها أكثر كرماً وتسامحاً . ثم اعلم أنها رغم كل ما تتظاهر به ، تهتم كل الاهتمام برأى الناس فيها .. لاسيما رأيك أنت ...

وظهرت على ثغر جاجين ، بعد أن أتم حكايته ، بسمته الهادئة ثانية . وأمسكت يده ، وشددت عليها بقوة . وقال وهو يعود إلى الموضوع :

— لقد فات هذا جميعه ، بيد أنى أعانى معها الآن وقتاً عصيباً . فهى مخزن بارود . وإذا كانت لم تتلق إلى اليوم بإنسان ، فماذا يكون من أمرها لو وقعت فى حبائل الحب !!! وإنى لا أبرح أفكر فيما قد يصيبها فى مثل هذه الحالة ؟! وأحزر ماطاف برأسها منذ أيام .. اتهمتنى أول الأمر أنى بدأت أجفوها . ثم أخذت تؤكد لى أنها لاتحب غيرى ، ولن تحب غيرى فى يوم من الأيام ... وكم بكت يومذاك !!

وقلت وأنا أصحح رأيى فيهما :

— آه : هذا هو إذن ماحدث ....

ثم سألته (قد أصبحنا نتحدث بصراحة) :

— قل لى ، أتقصد أنها لم تصادف أحداً علق به قلبها إلى الآن ؟ لابد أنها صادفت فى بطر سبورج شباناً ...

— إنها لم تشعرلأولئك الشبان بأى ميل . فهى تنتظر ولاشك بطلا تنتظر رجلا مرموقاً — أو تنتظر راعى غنم غيرطبيعى يمر بأعلا الجبل.. ولـكنى أضعت وقتك وأنا أثرثر هكذا ...

وهب واقفاً ، فقلت له :

— إسمع — إنى أود أن أعود معك ثانية .

— والعمل الذى جئت من أجله !!!

لم أجب ، فابتسم جاجين عن رضى . وعدنا إلى بلدة (ل) . وعندما طالعت الـكرمة المعهودة ، والمنزل المستوى على رأس الجبل ، شعرت بعذوبة تغمر جوانبى . بل كأن شهداً خالصاً أخذ يقطر فى شغاف قلبى .

— ٨ —

قابلتنا آسيا على عتبة الباب . وكنت أنتظر أن تضج بالضحك ولـكنها أقبلت ممتقعة اللون ، كاسفة البال ، مطبقة الفم ، وقال جاجين :

— ها هو ذا يعود . بل هو الذى عرض من تلقاء نفسه أن يعود :. تصورى ، وصوبت آسيا إلى نظرات فاحصة ، ومددت أنا إليها فى هذه المرة يدى ، وضغطت بقوة على أناملها الباردة . وتولانى إشفاق شديد عليها ، فقد وضح لى اليوم من أمرها ما كان يحيرنى أمس . فقد أدركت جانباً كبيراً مما يقلقها ويعجزها عن التصرف برزانة ، ويدفعها إلى التظاهر —

لقد استطعت أن أتغلغل إلى أعماقها ... فبين جوانحها حافز خفى يحفزها دائماً إلى تلك التصرفات ، وزهو جريح يمزق صفوها . ولـكنها تقاوم ذلك بكل ماتملك من قوة . وقد أدركت كذلك شرف تعلق بتلك الفتاة الغريبة ، فلم تـكن فتنتها البريئة التى تسبغ على قوامها النحيل ذلك الحسن والإشراق هى وحدها التى تجذبنى إليها . ولـكن روحها هو الذى كنت أعشق .

أخذ جاجين يقلب أوراق رسومه ، فعرضت على آسيا أن نقوم سويا بجولة فى الحديقة ، فقبلت عرضى على الفور فى خضوع وغبطة . وماوصلنا إلى منتصف الطريق المنحدر إلى باب الحديقة حتى صادفنا صخرة كبيرة فجلسنا عليها . وبدأت آسيا الحديث بقولها :

— ألم تشتق إلينا أثناء غيبتك ... ولو قليلا ؟

وأجبت على سؤالها بمثله :

— وأنتم ! ألم تشتاقوا إلى تلك الأثناء ؟

ورمقتنى آسيا بطرف لحظها وأجابت :

— نعم ...

ثم أردفت على عجل :

— أطاب مقامك فى أعلى الجبل ؟ أكان علوه شاهقاً ؟ أهو أعلا من السحاب ؟ حدثنى عما شاهدت هناك . لقد خصصت أخى بأحاديثك وبخلت بها على ...

— ولـكنك كنت تؤثرين دائماً أن تتباعدى ...

— كنت أتباعد ... آن ... ولكن سأبقى معك الآن .

ثم أسرت في أذني :

— لقد كنت غاضباً اليوم ... كما تعلم .

— أنا غاضب !! ...

— نعم أنت .

— وأي شيء هنالك يغضبني !

— لست أدري . ولكنك غاضباً عند حضورك ، وكذلك كنت عند انصرافك وقد شعرت بالأسف لانصرافك على تلك الحال . ولم يسرني شيء مثل رجوعك ثانية .

وأجبت .

— وأنا كذلك شعرت بالسرور لعودتي ،

واهتزت أكتاف آسيا على نحو ما يحدث للصغار عندما يتولاهم السرور وقالت :

— أنا أستطيع أن أحزر دائماً ما يعتمل في ضمير الناس فما من مرة سمعت فيها سعال أبي من الغرفة المجاورة إلا وأدركت ما إذا كان راضياً عني أم غاضباً علي .

ولم تكن آسيا قد حدثتني قبل هذه المرة عن أبيها ولذلك أثر حديثها عنه في نفسي تأثيراً عميقاً . وسألتها فجاءة .

— أكنت تحبين أباك .

وشعرت بالاحمرار يتصاعد إلى وجهي ، فحز ذلك في نفسي . ولم تجد

آسيا جوابا ، واحمر وجهها كذلك ، وساد بيننا الصمت . وبدت لنا في تلك الأثناء باخرة كانت تمخر الراين ، وترسل وراءها ذيلا من الدخان ، فظللنا نرقبها .

ثم قالت لي آسيا بصوت أشبه بالهمس :

— لماذا لا تحدثني عن أعلا الجبل ؟

فسألتها :

— ولماذا أغرقت في الضحك أول ما رأيتني اليوم ؟

— أنا نفسي أجهل السبب ! فكم من مرة أضحك وأنا أود أن أبكي . فلا تحكم علي بما .. أفعل . والشيء بالشيء يذكر .... ما أجمل أسطورة «لوريلي» ! فهذه هي صخرتها ؟ أليس كذلك ؟ . قالوا إنها كانت تغرق كل من يهيم بها ، فلما وقعت هي بدورها في حبائل الحب أغرقت نفسها ...كم أحب هذه الأسطورة ! إن السيدة لويز تروي لي ألوانا من مثل هذه القصة ... وفي دار السيدة لويز قطة سوداء ذات عينين سوداوين ..

ورفعت آسيا عينيها إلي ، وهزت رأسها فتهدلت خصائل شعرها . وقالت متهللة :

— آه ! كم أنا سعيدة ! ! .

وغمرت آذاننا في تلك اللحظة نغمات رنية متقطعة ، ثم تبينا أنها دعوات ترتلها بين حين وحين حناجر مئات الحجاج الذين كانوا يعبرون الطريق الممتد تحتنا حاملين صلبانهم وأعلامهم .

قالت آسيا وهي ترهف أذنها لتلتقط بقايا تلك الأنغام المتلاشية .

— ليتنى أستطيع الذهاب معهم .

— أأنت تقية إلى هذا الحد ؟ !.

— أود أن أذهب إلى مكان بعيد .. بعيد جداً ، وأن أصلى .. وأقدم على عمل شاق خطير . .

ثم أضافت :

— إن الأيام تمر ، والحياة تنقضى ، ونحن لانؤدى عملا .

قلت معلقا :

— أنت فتاة طموح تأبى أن تنقضى حياتها سدى . أنت تريدين أن تترك أثرا وراءك .

— أتظن ذلك مستحيلا ؟

وكادت عبارة « نعم ، أظنه مستحيلا » تفلت من لسانى ، ولكنى ما رأيت وميض عينيها حتى قلت .

— عليك أن تجتهدى ...

وصمتت فترة ، ومرت على وجهها ظلال يطرد بعضها بعضا ، ثم شحب لونها . وقالت :

— خبرنى ! .. أأحببت تلك السيدة بحق ؟ . أ نت تعلم من أقصد .، تلك السيدة التى شرب أخى الجعة بين الأطلال فى صحتها .. وكان ذلك فى اليوم التالى لتعارفنا .

أجبت ضاحكا .

— كان أخوك يمازحنى ، فأنا لم أحب سيدة بحق . وأنا الآن

خالى القلب على أية حال .

وعادت تسألنى وهى تثنى رأسها إلى الوراء منفعلة بفضولها البرىء :

— ما الذى يعجبك فى السيدات ؟ ..

— ياله من سؤال غريب !!

— كان يجب ألا أوجه لك مثل هذا السؤال ، أليس كذلك ؟ . لاتؤاخذنى ، لقد اعتاد لسانى أن يقذف بكل كلمة تمر بخاطرى . ولذلك أخشى أن أتكلم .

فقلت لها :

— بالله عليك قولى ما شئت دون تهيب ، فقد أسعدنى أن تتغلبى فى النهاية على حيائك .

وأرخت آسيا هدبيها ، وأرسلت ضحكة قصيرة خفيفة ، ضحكة لم ترسل مثلها أمامى من قبل . وقالت متوسلة وهى تسوى طرف ثوبها المنسدل على ساقيها كأنما تستعد لجلسة طويلة :

— هيا حدثنى ، أو أسمعنى شيئاً من محفوظاتك ، فإن الطريقة التى كنت تلقى بها بشعر بوشكين فى المرة الماضية ..

وتوقفت عن الكلام ، ثم أنشدت مطبقه الفكين :

« أين الصليب وأين ظلال الأشجار التى كنت أراها فوق قبر أمى التعسة » .

فقلت مستدركا :

— ولكنك حرقت شعر يوشكين هذا .

واستطردت وهي لاتزال مستغرقة في التأمل :

— وددت لو كنت مكان تاتيانا ، بطلة قصة يوشكين ...

ثم صاحت وقد انفعلت فجأة .

— ولكن حدثني.. استمر في حديثك ..

بيد أني لم أكن على أستعداد للكلام . ونظرت اليها وهي هادئة . . وديعة .. متألقة في ضوء الشمس ، وكان كل مايحيط بنا ، وكل ما فوقنا وماتحتنا من سماء وأرض وماء . . متألقا كذلك . بل لقد خيل إلى أن الجو نفسه يتلألأ ، وقلت لها وأنا أخفض صوتي دون قصد :

— أنظري كم كل شيء جميل حولنا ! !

وأجابت وهي تخفض صوتها كذلك ، وتتحاشى نظراتي :

— جميل ! ! .. لو أننا طير فكم كنا نطير !.. وكم كنا نحلق !.. وكم كنا نغوص في هذه الزرقة !.. ولكننا لسنا طيرا .

قلت :

— قد نستطيع أن تثبت في جنبينا أجنحة .

— وكيف ذلك ؟

تعلمي على كر الأيام . فهناك شعور يستطيع أن يرتفع بنا عن الأرض .. لا تقلق . فسوف تكون لك أجنحة في يوم من الأيام .

— وهل كانت لك أنت أجنحة ؟

— ليس من السهل أن أجيب ... ولكني أحسب أني لم أحلق بعد.

وصمتت آسيا ، وملت نحوها قليلا . وخرجت عن صمتها فجأة وسألت ؟

— أترقص « الفالس » ؟ . .

أجبت وقد حيرني سؤلها :

— نعم .

— تعال إذن ... تعال ! سأطلب إلى أخي أن يعزف لنا لحن تلك الرقصة ... وسنتظاهر بأننا نطير ... وسنتظاهر بأن لنا أجنحة .

وارتدت إلى المنزل راكضة ، وركضت وراءها ، وبعد بضع دقائق كنا ندور معاً في غرفة الجلوس ، ونتفعل على نغم « فالس اللانر » . ورقصت آسيا باناقة وحماسة . وبدا على إبائها العذرى الصارم شيء من اللين الأنثوى . وظلت يدى محتفظة بأحاسيس ملامستها لذلك الخصر النحيل مدة طويلة . وانقضى زمن قبل أنسى صوت أنفاسها السريعة العذبة وهي تتردد بالقرب مني ، وجمال عينيها السوداوين وهما شبه مغمضتين ، ووجهها الشاحب وهو يفيض حيوية في إطار جدائل شعرها .

(١٠)

مر ذلك اليوم على أسعد حال مستطاعة . فقد لعبنا كما يلعب الاطفال . وكانت آسيا تفيض عذوبة وبساطة ، فاغتبط جاجين لرؤيتها على هذه الحال

ولم أغادر دارها إلا فى ساعة متأخرة، وعند ما توسط القارب الذى كان ينقلنى إلى الشاطئ الآخر عرض النهر ، سألت النوتى أن يدعه وشأنه ، فكف ذلك الشيخ عن التجديف ، وحملنا النهر المتدفق على صدره المهيب . ونظرت فيما حولى ، وأرهفت أذنى ، وأطلقت العنان لذكرياتى . وعلى حين فجأة شعرت بقلق خفى يرج قلبى ... ورفعت بصرى إلى السماء ، فلم أجد حتى فى رحبها هدوءاً . كانت مرصعة بالنجوم الخافتة المرتعشة التى لا يقر لها قرار . وانحنيت على صفحة الماء ، وأرسلت طرفى إلى أغواره الداكنة الباردة ، فوجدت النجوم تومض فيها وترتجف كذلك. وشعرت بنوع من القلق المتصل يستحوذ على كل ما يحيط بى ، وينمو كذلك فى قلبى ويستفحل . واتكأت على حافة القارب . واضطربت لنواح الريح المطيفة بأذنى ، وخرير الماء المصطدم بمؤخرة القارب . وتصاعدت إلى برودة الماء فلم ترطب أنفاسى . وصدح كروان على الشاطئ فصب فى عروقى سم ألحانه العذبة . وطفرت الدموع إلى عينى ، ولكنها لم تكن دموع انفعال وجدانى مبهم . فالشعور الذى غمرنى وقتذاك لم يكن مجرد الرغبة فى احتضان كل ما فى الكون ، تلك الرغبة التى تملأ آفاق النفس ، وتحبب إليها الغناء ، وتشعرها بما يكمن فيها من محبة وتفاهم مع الخليقة جمعاء ... لا ، لم يكن كذلك ، ولكنه كان ظمأ إلى السعادة يفترسنى ... وإذا كنت لم أجترىء على مصارحة نفسى بحقيقته إلا أن الذى كنت أتوق إليه هو السعادة ، والسعادة الجارفة ... وتهادى القارب فوق صفحة الماء ، وانحنى النوتى الشيخ على مجدافه فاتر الهمة .

(١١)

وفى اليوم التالى ، وأنا أشق طريقى إلى أسرة جاجين ، لم أسأل نفسى عما إذا كنت أحب آسيا . إلا أنى كنت لا أكف عن التفكير فيها ، وكان مصيرها يثير اهتمامى الشديد . وقد أثلج صدرى أننا أصبحنا نحن الإثنين أشد تقاربا وتفاهما . وكان يخيل إلى أنى لم أعرفها إلا منذ يوم واحد ، فهى قبل ذلك ظلت متباعدة عنى . وأما وقد تفتح لى فى آخر الأمر قلبها ، وبدت لى على حقيقتها ، فأى نور غمر صورتها الماثلة فى خاطرى ! وأية جدة اكتسبتها تلك الصورة، وأية ألوان من الفتنة الخفية انبثقت من مكنون أعماقها !! .

اندفعت أطوى الطريق المعهود بخطى سريعة ، متطلعا إلى البيت الصغير الذى لم يتحول نظرى عنه منذ بدا لى عن بعد كنقطة بيضاء . وقد اكتملت سعادتى وأنا بعيد كل البعد عن التفكير فى المستقبل ، بل حتى عن التفكير فى الغد ذاته .

صبغ الخجل وجه آسيا عندما دخلت عليها الغرفة . ولم يفتنى أنها تأنقت فى لباسها هذه المرة كذلك . ولكن مظهرها لم يكن يجارى هندامها فى ناقته — فقد كانت كئيبة ...... أما أنا فكنت على أحسن حالة معنوية .

وخيل إلى أنى فطنت إلى ما يعتمل فى نفسها ، فطنت على أنها كانت على وشك الهروب منى ، ولكنها بذلت جهدها حتى تغلبت على نفسها

وبقيت فى مكانها . وكان جاجين مصابا بنوبة من نوبات الفن الجنونية التى تصيب الهواة الذين يتوهمون أنهم أحكموا الخطة ، وأنهم يوشكون (على حد تعبيرهم) « أن يمسكوا بالطبيعة من ذيلها » كان أشعث الشعر ملطخا بألوان فرشاته . وقد أومأ إلى محيياً بطريقة غيرطبيعية . ولم يتحول عن الصورة التى يرسمها . كان يضيف إليها بعض الألوان ، ثم يرجع إلى الوراء بضع خطوات ، ويدقق فيها النظر ، ثم يعود إليها ويعدل ما صنع . وقد أمسكت عنه حتى لا أزعجه ، وجلست إلى جانب آسيا ، فتحولت عيناها السوداوان نحوى بتؤدة . قلت لها بعد أن عجزت عن حملها على الابتسام :

أنت تختلفين عما كنت عليه أمس .

فأجابت بصوت بطىء عميق النبرات :

— هذا صحيح ، ولكنه معذلك لايهم . أنا لم أهنأ بالنوم ليلة أمس فقد ظللت سهرانة أفكر حتى الصباح .

— وفيم كنت تفكرين ؟

— آه : فى مختلف الأمور . كان هذا دأبى منذ كنت طفلة ...... منذ كنت أعيش مع أمى .

وخرجت هذه العبارة الأخيرة من فمها بصعوبة ، ثم إنها حملت نفسها على تكرارها :

— نعم ، منذ كنت أعيش مع أمى ، فكم كنت أتساءل : لماذا

يجهل الإنسان ما يخبئه الغيب ؟ ! ... ولماذا يشعر الإنسان فى بعض الأحيان بقرب انقضاض الكارثة ولكنه يعجز عن دفعها ؟ ! ولماذا لا يقوى على الإدلاء بالحقيقة كاملة ؟ ! ... عندئذ قلت لنفسى إنى أجهل كل شىء ، ومن واجبى فى هذه الحالة أن أتعلم . ولابد أن أبدأ من البداية فإنى لم أنشأ تنشئة صالحة ، ولم أثقف كما يجب . فأنا أجهل العزف على البيان ، وأجهل كذلك فن الرسم ، بل إنى لا أدرى أموهوبة أنا أم لا ؟ لا بد أن الناس تتحاشى مجالستى .

فقلت لها :

— أنت تقسين فى الحكم على نفسك فمحصولك من القراءة كثير ، وتثقيفك محمود . ثم إنك بالفطنة التى تتمتعين بها ...

فسألتنى :

— أتظننى فطنة لبقة حقا ؟

وبلغ فضولها الساذج ، وهى توجه لى هذا السؤال ، حدا لم أتمالك معه أن ضحكت ، ولكنها لم تجارنى حتى بابتسامة ، واتجهت إلى أخيها تسأله :

— أخى ! أأنا لبقة ؟

ولم يجبها أخوها . بل واصل عمله مبدلا فرشاة بفرشاة دون انقطاع ورافعا يده كل حين فى الفضاء .

واستطردت شاخصة الطرف متأملة :

— أنا أجهل فى بعض الأحيان حقيقة مايدور بخلدى . وأخشى فى أحيان أخرى نفسى .

هـذا صحيح ... ثم إنى أود ... أيجب حقاً ألا تتوسع المرأة فى الاطلاع ؟ ...

— نعم ... هذا حق ولـكن ...

— أرشدنى إلى مايجمل بى أن أقرأه .

وأضافت وهى تبدى لى ثقة ساذجة :

— سأفعل ماتشير على به .

ولم أفق إلى جواب سريع . فعادت تسألنى .

— ألن تضيق بى ؟ ...

— كلا بالطبع ...

وقاطعتنى وأنا فى بداية قولى ، وهتفت :

— آه . أشكرك ، أشكرك — كنت أخشى أن تضيق بى .

وضغطت يدها الصغيرة الدافئة يدى . ونادانى جاجين فى هـذه اللحظة قائلا :

— ألا تظن أن لون أرض الصورة أعتم مما يجب ؟ ...

وتوجهت إليه . وقامت آسيا فغادرت الغرفة .

— ١٢ —

عادت بعد ساعة . وقالت مومئة إلى وهى لم تتخط عتبة الباب :

— خبرنى ؛ أتحزن على إذا هم أجلى !

— ما أغرب الخواطر مم التى تطيف برأسك اليوم !!

— إن فكرة الموت القريب لاتفارقنى : ويخيل إلى فى بعض الأحيان أن الناس جميعهم يودعوننى الوداع الأخير والحق إن الموت خير من هذه الحياة التى أحياها ... ليس مايدعو إلى تحديقك فى هكذا فأنا لا أدعى القول، أقسم أنى لاأدعيه . وسيعاودنى الخوف منك إذا ظللت ترسل إلى نظراتك هذه .

— أكنت تخافين منى حقاً ؟

— ليس الذنب ذنبى فأنا غريبة الأطوار كما ترى . ولم أعد أستطيع الضحك ثانية .

وظلت حزينة مشغولة البال طوال ذلك النهار . ولم أوفق إلى إدراك ما يعتمل فى نفسها . كانت نظرتها تلازمنى فى أغلب الأحيان فتسرى فى قلبى رجفة حقيقة بفعل تلك النظرة الغامضة . وكنت أشعر رغم مظهرها الهادىء أن دافعاً يدفعنى كل حين إلى مواساتها والتوسل إليها أن تهدىء من روعها . وتبينت وأنا أنظر إليها طيفاً من الفتنة الشجية يرتسم على وجهها الذى أطرق وشحب ؛ ويبدو فى إيما أنها البطيئة المترددة . ولأمرما استنتجت أنى متضايق .

قالت لى قبيل انصرافى :

— أتعلم أنى لم أعد احتمل منك أن تظننى هوجاء طائشة ..عدنى أن تصدق أى شىء أقوله لك ، واعلم أنى لن أقول إلا صدقا ...

أقسم لك على ذلك .

وحملني قسمها على الضحك من جديد . فقالت بحماسة :

— لاتضحك ، وإلا سألتك اليوم عما سألتني عنه أمس : « لماذا تضحك ؟ »

ثم أضافت بعد فترة صمت .

— أتذكر ماقلته أمس عن «الأجنحة» ؟ لقد نبتت لي أجنحة ، ولكن إلى أين أطير ؟ ..

فأجبتها :

— أنظري يا آسيا ! فالعالم كله منبسط أمامك .

وشخصت إلى آسيا فلم تحول عينها عني ، وقالت مقطبة :

— أنت غير راض عني اليوم .

— أنا ؟! غير راض عنك !!

وقطع علينا جاجين الحديث . وصاح يخاطبني :

— لماذا يشاكس أحدكما الآخر اليوم ؟ أأعزف لكما نغماً مرقصاً كأمس ؟ —

فصاحت آسيا وقد اشتبكت يداها .

— لا ، لا تفعل ... لا رقص اليوم أيا كان الثمن ...

— وفيم هذه الحماسة ؟ إن أحداً لم يرغمك على الرقص .

فأخذت تردد وقد ازدادت شحوبا :

— أيا كان الثمن ... أيا كان الثمن ...

... ...

وأخذت أفكر وأنا أقترب من الراين : أتكون قد عشقتني؟ ...

— ١٣ —

ورددت نفس السؤال حالما استيقظت في اليوم التالي : « أتكون قد عشقتني ؟ ... » ولم أشأ بحال أن أسائل قلبي عن سره . ولكني كنت أشعر أن صورة الفتاة ذات الضحكات المفتعلة منقوشة فيه ، وأنه ليس من الميسور التخلص منها . واتخذت طريقي إلى بلدة (ل) ، وقضيت هناك النهار بطوله ، إلا أني لم أر آسيا إلا مدة دقائق معدودة ، فقد كانت متعبة تشكو الصداع وعندما نزلت إلينا في درجات السلم بدت معصوبة الجبين ، شاحبه الوجه ، غائرة الخدين ، لاتكاد تفتح جفنيها . وقالت وقد مرت على ثغرها ابتسامة عابرة :

— شدة سوف تزول . أمرها بسيط . وكل شيء إلى زوال ، أليس كذلك .

وعادت من حيث أتت . وعانيت حالة من الكآبة ممزوجة بانقباض شديد . ولم أستطع حمل نفسي على مغادرة المكان ، وظللت إلى حالة متأخرة حتى اضطررت إلى الانصراف دون أن أراها ثانية .

ومر اليوم التالي وأنا في شبه ذهول . وقد حاولت أن أشغل نفسي بعمل ما ولكني أخفقت ، فعولت على أن أكف عن أي عمل وأي تفكير . ولكن هذه الخطة لم تنجح كذلك . فأخذت أحوم

حول المدينة ، وقفلت راجعاً إلى بيتى ، ولكنى عدت فخرجت ثانية ...

سمعت صوت صبى ينادينى فجأة :

— السيد (ن) !

ونظرت فوجدت صبياً أمامى يناولنى ورقة ويقول :

— هذه رسالة من الآنسة « أنيت »

وفضضت غلاف الرسالة، وعرفت خط آسيا السريع المتعرج. وقرأت ما يلى : «لا بد أن أراك . انتظرنى اليوم عند الصخرة القريبة من الكنيسة فى الطريق إلى الأنقاض ... لقد ارتكبت حماقة أرجو أن يغفرها الله لى. أحضر لتقف على جلية الأمر . قل للرسول : « نعم » .

وسألنى الصبى :

— أمن رد ؟ . .

فاجبته :

— قل لها « نعم »

وانطلق الصبى ركضا .

(١٤)

وعند ما دخلت غرفتى جلست وأطلقت العنان لأفكارى . وكان قلبى شديد الخفقان . وأعدت قراءة رسالة آسيا مرة بعد مرة . ونظرت إلى الساعة فوجدت عقربها يقترب من الثانية عشرة .

وانفتح الباب ودخل جاجين

كان متجهم الوجه . وأمسك بيدى فضغطها بشدة ، فسألته :

— ماذا هنالك ؟

فجذب كرسيا وجلس أمامى ، وقال وهو يتلعثم قليلا ، ويتكلف الابتسام :

— حكيت لك منذ أربعة أيام تلك القصة التى أدهشتك . واليوم سأزيدك دهشة . وما كنت لأجرؤ على مصارحة غيرك بما أصارحك به . فأنت إنسان مهذب ، وأنت صديق أليس كذلك ؟ والآن استمع إلى .. إن أختى آسيا هائمة بك هياما .

جفلت فى عنف ، وكدت أهب من مقعدى ... وهتفت :

— أختك ! .. تقول أختك ...

وقاطعنى قائلا :

— نعم ، نعم ، لقد جنت ، وهى توشك أن تجرنى إلى الجنون . ومن حسن الحظ أنها تعلن ما تضمر . . . وتثق بى . أى قلب لقى بين جنبى هذه الفتاة !! ولكنها ستدمر نفسها .. أنا واثق من ذلك ...

فقلت له :

— لابد أنك مخطىء .

— ليست هناك ذرة من شك فى صدق ما أقول . لقد قضت أمس أغلب يومها ، كما تعلم ، طريحة الفراش . وامتنعت عن الطعام ، ولم تشك

أو تتذمر ، ومن عادتها ألا تشكو أو تتذمر ولم أقلق عليها رغم أنها أصيبت بحمى خفيفة قرب المساء . ولكن صاحبة البيت أيقظتنى فى الساعة الثانية صباحا وقالت :

— تعال إلى أختك فهى فى حالة سيئة .

وأسرعت إلى آسيا فوجدتها محمومة ، مبللة بدموعها ، ولم تكن قد خلعت بعد ملابس النهار . كان جبينها يلتهب ، وأسنانها تصطك ، فسألتها: « ماذا بك ؟؟ .. أأنت مريضة ؟. »

فطوقت عنقى بساعديها ، وتوسلت أن أذهب بها إلى أبعد مكان مستطاع إذا كنت لاأزال مبقياً على حياتها .. وعجزت عن إدراك ما تعانيه وحاولت أن أرفه عنها . ولكن زفراتها ازدادت عنفا .. ولكنى علمت فجأة — أو بعبارة موجزة ، أخبرتنى خلال زفراتها أنها تحبك ، وأؤكد لك أن العقلاء من أمثالك وأمثالى يجهلون عمق تلك المشاعر التى تنتابها ، والحالة النفسية العصبية التى تحدثها . إن مثل تلك المشاعر تفاجئها كالصاعقة وتصرعها دون أن تترك لها فرصة للمقاومة ...

وواصل جاجين قوله :

— إنى أجدك بالطبع جذابا . ولكنى لا أفهم كيف وقعت فى حبائل حبك هكذا ! أعترف أن هـذا الأمر فوق إدراكى . لقد قالت لى إنها تعلقت بك من أول نظرة ، وهذا هو مادعاها إلى البكاء فى تلك الليلة التى أكدت لى فيها أنها لاتريد أن تحب أحدا غيرى . كانت واثقة من أنك

تزدريها . وقد تكون ملما بتفاصيل سيرتها . فأخبرتها أنى لم أطلعك على شىء من تاريخ حياتها . . ولكن حدسها مخيف !!. وهى لاتريد الآن إلا أمراً واحداً .. تريد أن ترحل بعيداً .. تريد أن ترحل فوراً ، وجلست إلى جانبها حتى بزغ الفجر ، ولم تزل بى حتى أقسمت لها أننا سنرحل فى اليوم التالى ، وعند ذلك استغرقت فى النوم . وفكرت فى الأمر ، وقلبته على مختلف نواحيه ، واعتزمت فى النهايه أن أحدثك بشأنه . أنا أرى أن آسيا على حق . فمن الأفضل لنا نحن الاثنين أن نرحل . وقد كنت على وشك أن أنفذ هذا الرأى لولا أن خاطراً خطر لى فحال بينى وبين تنفيذه، فقد تكون أنت أيضا متعلقا بأختى ؟ فإن كان الأمر كذلك ففيم رحيلى معها ؟ .. لذلك عولت على أن أنحى الخزى جانباً ... ثم إنى لاحظت أمراً فقررت .. أن أسألك ..

ووقع جاجين المسكين فى ارتباك شديد وتمتم :

— أغفر لى تصرفى ، فأنا لم أقع فى مثل هذا المأزق من قبل .

فأمسكت يده ، وقلت فى لهجة حازمة :

— إن كنت تسأل عما إذا كنت متعلقا بأختك ، فاعلم إذن أنى متعلق بها فعلا .

ورمقنى جاجين بنظرة ، وقال متلعثما :

ولكنك لاتريد أن تتزوجها ؟ .. أم تريد ذلك ؟ .

— والآن ! .. انتظر منى أن أستطيع الإجابة على مثل هذا السؤال،

اسال نفسك عما إذا كان ذلك فى استطاعتى ...

فقاطعنى بقوله :

— أنا لا أجهل ذلك ... أنا لا أجهله . فليس من حق أن أطالبك بالرد على سؤالى الذى تجرد من حسن الذوق كل التجرد . . ولكن ما الذى كنت أستطيعه ؟ إن الإنسان لا يمكنه أن يهزل معها . أنت لا تعرفها حق المعرفة ، فهى قمينة أن تقع فى براثن مرض عضال ، أو أن تهرب منا ، أو أن تضرب لك موعدا . . . إن أية فتاة أخر تستطيع أن تكتم ما بنفسها ... وتنتظر . أما هى فلا ... ثم إن أمراً كهذا لم يحدث لها من قبل ، وهذه هى المشكلة . ولو أنك شاهدتها اليوم وهى تشهق مرتمية على قدمى لعرفت سبب مخاوفى .

وجعلت أمعن النظر فيما قاله لى جاجين ، وكانت عبارته « أو أن تضرب لك موعدا » كأنها طعنة فى قلبى. وبدا لى أنه لا يجمل إلا أن أبادله صراحة بصراحة . فقلت بعد تردد :

— نعم ، بيدك حق ، فقد تلقيت من أختك رسالة منذ ساعة ، وها هى ذى ...

فأمسك جاجين بالورقة ، ومرت عيناه بأسطرها فى سرعة ، ثم ترك يديه تسقطان على ركبتيه ، وكم كانت الدهشة التى ارتسمت على وجهه مضحكة ! ! ولكنى لم أكن فى حالة تسمح بالضحك . وقال لى بعد لأى

— سبق أن قلت إنك رجل شريف ، وأعود الآن فأكرر هذا القول ... ولكن ما العمل ؟ ! ما العمل ؟ ! ... إنها تطلب منى الرحيل ،

ثم تكتب اليك وتلوم نفسها على ما تطلبه منى ! ! ومتى أتيح لها وقت الكتابة وماذا تريد منك ؟ ! ...

وعملت على تهدئة باله . وأخذنا نناقش الموضوع بما وسعنا من هدوء ، وتنظر فيما يجدر عمله .

وقد استقر رأينا فى النهاية على أن أذهب إلى آسيا فى الموعد المضروب تفاديا للفاجعة ، وأن أتحدث إليها فى صراحة تامة . وأخذ جاجين على نفسه أن يبقى فى منزله متظاهرا بأنه لا يعرف شيئا عن رسالة أخته . ثم أقابله فى المساء ثانية .

وضغط جاجين يدى مودعا وقال :

— إنى أعتمد عليك ، كن رفيقا بها ... وبى . ونحن سنرحل غدا على أية حال . ثم أضاف وهو يهم بالانصراف :

— نعم سنرحل لأنك لن تتزوج آسيا ... أليس كذلك ؟ ! ...

— أمهلنى إلى المساء .

— حسنا . ولكنك لن تتزوجها ...

وما انصرف حتى ارتميت على المقعد وأغمضت عينى . وظل ذهنى ينسج الأفكار ، ويشتد دورانه بفعل ما فرض عليه من أحكام . وقد غاظنى جاجين بصراحته ، وغاظتنى آسيا كذلك بحبها الذى أسعدنى وأشقانى فى نفس الوقت . ولم أستطع أن أفهم السبب الذى دعاها إلى كشف سرها لأخيها . ثم إن اضطرارى إلى اتخاذ قرار سريع ، بل قرار ارتجالى ،

آلمني أشد الألم . . . وقلت وأنا أغادر مقعدي : «أأتزوج بفتاة لم تجاوز السابعة عشر . . ولها مثل ذلك المزاج ! . . كيف أستطيع هذا ؟ » .

(١٥)

انتقلت إلى شاطىء الراين الثاني في الميعاد المتفق عليه . وكان أول من قابلته هناك ، ذلك الصبي الذي جاءني في الصباح ، كان يبدو أنه ينتظرني ، ولم يلبث أن همس في أذني وهو يناولني رسالة جديدة .

— إنها من الآنسة أنيت .

وأنبأتني آسيا في الرسالة أنها غيرت زمان المقابلة ومكانها . فعلي أن أقابلها بعد ساعة ونصف من الزمان المحدد للموعد الأول ، وأن تتم المقابلة في منزل السيدة لويز بدل طريق الكنيسة ، على أن أطرق الباب العمومي ، ثم أصعد إلى الدور الثالث . وسألني الصبي :

— هل الجواب « نعم » كذلك .

فأجبته :

— نعم .

وتمشيت على طول شاطىء الراين . فلم تكن هناك مندوحة من الوقت تسمح برجوعي إلى داري انتظارا للموعد الجديد ، ولم أشأ كذلك أن أحوم في شوارع البلدة . ثم ذهبت إلى مقهى صغير منخفض مظلل بالأشجار يقوم إلى جانب سور البلدة ، ويحتسي رواده الجعة . وأغلب

أولئك الرواد متوسطوا الأعمار ، وقد اعتادوا أن يلعبوا هناك « بكرة الأوتاد » . وكان صوت الكرات يتعالى اثناء تدحرجها ، وتغمره كل حين صيحات الاستحسان . وجاءت إلى ساقية جميلة بكوب من الجعة . وكانت عيناها في لون الدم من كثرة البكاء ، ونظرت إليها فأعرضت وانصرفت عني مسرعة . وقال حضري بدين أحمر الخدين يجلس الى جواري :

— نعم ، نعم . إن ساقيتنا مكتئبة ، فقد جند حبيبها اليوم .

راقبتها وهي تنسحب إلى أحد أركان المقهى ، وتجلس هناك حاملة رأسها بإحدى يديها ، ولم تلبث دموعها أن انهمرت دمعة وراء دمعة ، من خلال أصابعها . ونادى احد رواد المقهى طالبا كوبا من الجعة . فأتت به إليه وارتدت مسرعة إلى ركنها . وأحدث حزنها أثره نفسي . واخذت افكر في الموعد الذي يخبئه لي الغيب . وملأت رأسي افكار كثيبة مضطربة . كنت أفكر في ذلك اللقاء المنتظر مثقل القلب بالهم . فأنا لم أزمع الذهاب إليها لأقتطف متع الحب المتبادل ، ولكن لأفي بالوعد الذي قطعته على نفسي ، ولأقوم بواجب باهظ الثمن . وتذكرت عبارة جاجين « ان الانسان لا يمكنه أن يهزل معها » . ونفذت كل كلمة من هذه الكلمات إلى قلبي كرأس السهم . ولكن ... ألم أشعر منذ أربعة أيام ، وأنا على ظهر القارب المنساب مع التيار ، بنهم إلى السعادة يغم قلبي ! وها هي ذي السعادة المرجوة متاحة لي اليوم ، ولكني مع ذلك متردد ، بل اني أدفعها بعيدة عني وأحسب أني مضطر إلى دفعها بعيدة عني . وها أنا ذا أعاني من جرائها شجنا ألقى بي في وحدة القلق والارتباك ، ثم ان آسيا نفسها ،

تلك الفتاة الجذابة الغريبة الأطوار ، تملأ قلبي رعبا بمزاجها الملتهب ، وبسوء تهذيبها ، وبالماضي الذي يؤودها . وكم تصارعت في نفسي المشاعر المتضاربة وكل منها يحاول الغلبة والانتصار !! واقترب موعد اللقاء ، فانتهيت إلى رأي ، وقلت لنفسي في عزم وتصميم : « أنا لن أستطيع أن أتزوجها . ولن أشعرها كذلك أني أحبها ! » .

غادرت مقعدي ، ووضعت قطعة من النقود في يد الساقية المسكينة (فلم تعن حتى بشكري) وتوجهت إلى منزل السيدة لويز وكانت ظلال المساء تتساقط على البلدة ، وعرض الأفق يعكس حمرة الشفق . وطرقت باب السيدة لويز طرقا خفيفا ، ففتح على الفور ، واجتزت الفناء فوجدت نفسي غارقا في ظلام دامس . وسمعت صوت سيدة تقول :

— تعالى من هنا . إنهم ينتظرونك .

وخطوت خطوة أو اثنتين في اتجاه ذلك الصوت ، وإذا يد غليظة تمسك بيدي ، فسألت :

— أأنت السيدة لويز ؟

وأجاب الصوت نفسه :

— نعم ... نعم أيها الفتى النبيل .

وصعدت بي السيدة في سلم يكاد يكون عموديا . ووقفت بي عند عتبة الدور الثالث وقد استطعت أن ألمح عند ذاك وجه تلك السيدة المجعد على خيوط من الضوء تنحدر من نافذة ضيقة ، وكانت شفتها الغليظة المدلاة تنفرج عن بسمة معسولة . وأشارت وهي تدور بعينيها المطفأتين إلى باب

صغير ، فمددت إليه يدي المترددة ، وفتحت مصراعه ، ثم تركته ينصفق ورائي .

(١٦)

كانت الغرفة التي دخلتها شبه مظلمة إلى حد أني لم أر فيها آسيا لأول وهلة . ثم تبينتها جالسة في مقعد بجانب النافذة . وكاد رأسها يتوارى بين طيات شال كبير التفعت به فبدت كعصفور خائف . وتلاحقت أنفاسها السريعة ، وانتفض جسمها كله . فشعرت بشفقة لا توصف ، وأقبلت عليها فتجنبتني ، ومالت برأسها بعيدا عني . فناديتها :

— يا آنا نيكولا يفنا ! ...

اعتدلت في جلستها وحاولت أن تلتفت إلي ، ولكنها لم تقو على ذلك . فمددت يدي وتناولت يدها ، فثوت كفها في كفي باردة لا حياة فيها . وبدأت تقول :

— كان قصدي ...

وحاولت أن تبتسم ، ولكن شفتيها أبتا أن تطاوعاها وهتفت :

— كان قصدي ... لا ، لا أستطيع ...

وأطبقت شفتيها ولم تزد . وكان صوتها يخونها بالفعل في كل كلمة نطقت بها . وجلست إلى جانبها وقلت :

— آنا نيكولايفنا ...

وعجزت أنا أيضا عن مواصلة الكلام . وساد الصمت . وظللت ممسكا بكفها وأنا جالس جوارها . كانت تتنفس بصعوبة وهي متسربلة بشالها

الكبير ، وتعض شفتها السفلى لتحاشى البكاء ، وتوقف دموعها الصاعدة إلى عينيها . عاودت النظر إليها فوجدتها فى خجلها الهادى، ضعيفة تستثير الشفقة، وكأنما ألح عليها التعب فلم تستطيع إلا أن تدلف إلى ذلك المقعد وتتهاوى عليه . وشعرت بنفسى تطير شعاعا ، وقلت بصوت لا يكاد يسمع :

— آسيا ! ...

فرفعت عينيها إلى فى بطء ... وبالنظرة المرأة حينما يتمكن منها الحب! ... من ذا الذى يستطيع وصفها ؟ ! كانت هاتان العينان تتوسلان ... وتسألان ... وتفيضان ثقة ... وتخضعان ... وانهارت عزيمتى فلم أستطع مقاومة حسنهما . وشعرت بألسنة رفيعة من اللهب تجرى فى عروقى . فانحنيت على اليد التى كانت مستسلمة ليدى ، وضغطتها بشفق . وصافح أذنى صوت مرتجف أشبه بأنة خافتة . وشعرت بلمسات خفيفة ... يد أشبه بورقة الشجر القلقة ... تمسح شعر رأسى . ورفعت نظرى إلى وجهها فى تلك اللحظة فراعنى ما طرأ عليه من تغيير مفاجىء . فقد تبددت دلائل الخوف التى كانت مرتسمة عليه . وبعدت نظرتها وكأنما غاصت إلى أغوار نفسها وجذبتنى معها ... وافترقت شفتاها قليلا . وشحب جبينها حتى صار فى لون المرمر . وتطايرت خصائل شعرها إلى الوراء كأنما عبثت بها ريح خفية . ونسيت نفسى وجذبتها إلى . فاستسلمت يدها فى خضوع ، وتبع جسدها يدها ، وانحسر الشال عن كتفيها ، ومال رأسها الصغير على صدرى ، ورقد فوقه متطلعا إلى شفتى ... وغمغمت بصوت خافت :

— أنا لك ...

وانزلقت يداى إلى خصرها ... ولكن ذكرى جاجين مرت وقتئذ بخاطرى كومض البرق ، فصحت متراجعاً إلى الوراء :

— ما هذا الذى ترتكبه ؟ ... إن أخاك ... نعم ، إنه يعرف كل شيء ... يعرف سر هذا اللقاء ...

وتساقطت آسيا على مقعدها . وواصلت قولى ، وأنا أبتعد إلى ركن قصى بالغرفة :

— نعم — إنه يعرف كل شيء ، فقد اضطررت إلى البوح له به .

— اضطررت ؟ ...

كررت هذه الكلمة بصوت غير واضح ، وظهر أنها لم تكن قد استطاعت أن تثوب بعد إلى رشدها ، وأنها لم تدرك مما قلت إلا لماما . وخاطبتها بحدة غير مفهومة السبب :

— نعم . والخطأ فى الواقع هو خطؤك أنت . فما الذى دعاك إلى كشف سرك لأخيك ؟ ما الذى دعاك إلى الاعتراف له بكل شيء ؟ لقد زارنى اليوم وأفضى إلى بكل ما قلته له .

وبذلت جهدى لأتحاشى النظر إليها ، وجعلت أذرع الغرفة جيئة وذهوبا وصحت قائلا :

— لقد أفسدت أنت كل شيء الآن ... أفسدت كل شيء .

وتحركت آسيا كأنما تهم بالوقوف فصحت ثانية :

— الزمى مكانك ... إجلسى ... أرجوك . فأنت تعاملين رجلا شريفا ... نعم ، تعاملين رجلاشريفا . خبرينى بالله عليك ، ما الذى أزعجك إلى هذا الحد ؟ ألاحظت على أى تقلب أو غدر ؟ ! ... إنى لم أستطع لدى التقائى بأخيك أن أخفى الحقيقة عنه ...

وعدت أسائل نفسى : « ما هذا الذى أقوله ! » وترنحت ألماً لفكرة أنها أصبحت تظننى منافقا عديم الحس ، تدرك أن أخاها وقف على سر الموعد الذى ضربته لى ، وأن ما بينى وبينها فسد بعد أن افتضح أمره ...

ووصل إلى أذنى همس آسيا المرتعد :

— ولكنى لم أرسل فى طلب أخى وقت مرضى. لقد جاء من تلقاء نفسه .

وواصلت تهجمى :

— أنظرى إلى ما فعلته ! ... وهأنت ذى تريدين أن ترحلى ...

وقالت بصوتها الناعم المنخفض :

— نعم ، لا بد أن أرحل . وهذا هو ما دعانى إلى طلب لقائك ... فقد أردت أن أودعك ...

فأجبتها :

— أتظنين أنه يسهل على فراقك ؟ ...

وسألتنى بلهجة تدل على الحيرة :

— ولكن لماذا أفضيت إلى أخى بسر هذا اللقاء ؟ ...

— قلت لك إنه لم يكن لى بد من ذلك ... وأنت ؟ ... لماذا ا كشفت أنت سرك لأخيك ! ...

أجابت ببساطة :

— كنت قد أغلقت على نفسى باب غرفتى فى تلك الليلة ، ولم أكن أعلم أن صاحبة الدار تملك مفتاحا آخر لبابى ...

وكاد هذا التصريح البسيط الذى فاهت به؛ فى تلك اللحظة يثير غضبى... وإنى عندما أذكر ذلك الآن بعد مرور تلك السنين الطويلة يغلبنى التأثر الشديد ... مسكينة تلك الطفلة الصادقة الشريفة .وأستأنفت الكلام

— انقضى الآن كل شيء ... كل شيء ... ولا بد أن نفترق توا .

واختلست إليها النظر ، فرأيت الدم يتصاعد فجأة إلى وجهها ، وأدركت أنها تعانى شدة الخجل والألم . وأنا نفسى كنت مضطربا ... كنت أعانى نوعا من الحمى وأنا أقول لها :

— أنت لم ترعى العاطفة التى نشأت بيننا وبدأت تتكشف ... وبدل أن تتركيها تترعرع وتنضج ، عملت على تدمير الروابط المتوشجة بيننا . فأنت لم تثقى بى ... أنت أسأت الظن بى ...

وأخذت آسيا وأنا أقذف بكلماتى تنحنى شيئا فشيئا حتى وقعت فجأة على ركبتيها ، وتلقت رأسا المتدلى بيديها ، ورددت الزفرات الحارة. فاندفعت صوبها ، وحاولت أن أعاونها على النهوض ، ولكنها قاومتنى . ومن عادتى أنى لا أحتمل دموع السيدات فرؤيتها تفقدنى صوابى. وأخذت أردد القول:

— آنا نيكولاييفنا ! ! ... آسيا ! ! ... أتوسل إليك أن تكفى عن البكاء .

وتناولت يدها مرة أخرى . ولكنها ، لشدة دهشتى ، هبت واقفة على قدميها ، واندفعت فجأة إلى الباب فى مثل ومض البرق ، وتوارت عن ناظرى .

وعندما دخلت على السيدة لويز الغرفة بعد بضع دقائق وجدتنى لا أزال واقفا وسط الغرفة دون حراك كما لو كنت قد أصبت بصاعقة . ولم أستطع أن أفهم كيف انتهى لقاؤنا على هذا النحو من الاقتضاب والسرعة دون أن أتمكن من التعبير حتى عن جزء ضئيل مما أردت أن أقوله ، أو ما كان يجب أن أقوله ، ودون أن أتبين ما كان يمكن أن نصل إليه بالتفاهم ! ! ...

وسألتنى السيدة لويز وهى ترفع هدبيها الأشهبين إلى أن كادا يلمسان حافة حاجبيها :

ــ أخرجت الآنسة أنيت ؟ ...

فألقيت عليها نظرة جوفاء وخرجت .

(١٧)

سلكت طريقى إلى تخوم البلدة ، وواصلت السير حتى وجدتنى فى جوف الريف ، وكان الغيظ أثناء ذلك يفترسنى افتراسا . وأخذت أصب على رأسى اللعنة والتقريع . وساءلت نفسى كيف فاتنى أن أفهم السبب الذى حمل آسيا على تغيير مكان لقائنا ؟

وكم كلفها أن تلجأ فى مثل تلك الظروف إلى لويز العجوز ؟ ولماذا لم

أمنعها من مغادرة الغرفة ؟ ! ... لقد وجدت فى تلك الغرفة المعزولة ، شبه المظلمة ، قدره وشجاعة على تأنيبها ... وعلى صدها عنى ... فهل أجد القدرة الآن على الخلاص من طيفها الذى يلاحقنى ؟ ! ! ... إنى التمس غفرانها راجيا متوسلا ... إن ذكرى ذلك الوجه الشاحب ، والعينين المبللتين الوجلتين ، وخصائل الشعر المهدلة على الجيد الأبيض الناصع ، ولمسات الرأس الجميل الراقد على صدرى ... إن هذه الذكريات تلذع أحشائى لقد كنت أسمعها تهمس فى أذنى «أنا لك ... أنا لك ... » فأنى أؤكد لنفسى ، ترويحالها ، أن ما أقدمت عليه لم يكن إلا خضوعا لنداء ضميرى . ولكن هذا لم يكن صحيحا . ثم هل أنا حققت الغاية التى كنت أرجوها ؟ وهل أقوى على فراقها ؟ ... وظللت أردد بمرارة : « ياله من جنون ! ! ياله من جنون ! ! .. »

وزحف على الليل فى هذه الأثناء ، فاتخذت طريقى إلى حيث تقيم آسيا .

(١٨)

وخرج إلى جاجين ، وصاح وهو لا يزال بعيداً عنى :

ــ أقابلت أختى ؟ ...

فسألته :

ــ أليست فى المنزل ؟ ...

ــ لا .

ــ ألم تعد بعد ؟ ...

— لا ... أرجو المغفرة ، فإنى لم أطق صبراً . لقد خالفت ما اتفقنا عليه وذهبت إلى الصخرة المجاورة للكنيسة ، ولكنى لم أجدها هناك . وظننت أنها أخلفت معك الموعد .

— إنها لم تذهب إلى هناك .

— ألم تقابلها إذن ؟

واضطررت أن أعترف له بأنى قابلتها ، فسألنى .

— وأين كان ذلك ...

— فى منزل السيدة لويز . وقد افترقنا منذ ساعة .

ثم أضفت قولى :

— كنت متأكداً أنها قفلت راجعة المنزل .

فقال جاجين :

— سننتظر .

ودخلنا المنزل ، وجلسنا جنبا إلى جنب صامتين . وشعرنا بارتباك شديد . وكان نظرنا لا يتحول عن الباب ، وآذاننا المرهفة لا تكف عن التصنت . ثم هب جاجين واقفاً وهتف :

— لست أدرى كيف أنصرف ! إنها ستقتلنى . نعم ستقتلنى . دعنا نخرج للبحث عنها .

خرجنا من المنزل إلى ظلام دامس . وسألنى جاجين وهو يشد قبعته إلى حاجبيه :

— فيم تحدثتما ؟ ...

فأجبته :

— أنا لم أقض معها إلا بضع دقائق . وقد أخبرتها بما اتفقنا عليه .

— أولى بنا أن نبحث عنها مفترقين ، فهذا يتيح لنا فرصة أكبر للعثور عليها . ولترجع إلى المنزل بعد ساعة على أية حال .

(١٩)

انحدرت فى طريق الحديقة راكضا ، واندفعت إلى المدينة . ودرت فى شوارع المدينة . مسرعا ، ونقبت فى كل مكان ، ومررت حتى بمنزل السيدة لويز ، وتطلعت إلى نوافذه . ثم اتجهت إلى الشاطىء وقطعته عدوا وكان نظرى يقع على كثير الفتيات ، ولكن آسيا لم تكن من بينهن . ولم يعد الغيظ هو الذى يفترسنى ، بل خوف غامض رهيب . وكان هناك شعور آخر غير الخوف ينهش أحشائى ، كان هناك تأنيب الضمير ... والندم ... والحب ... نعم الحب ، بل أعذب حب ! ! ... وأخذت أضرب كفا بكف ، وأهتف باسمها تحت جنح الظلام ، ويتعالى هتافى شيئا فشيئا حتى صار مجلجلا . وكررت لنفسى أنى أحبها ، وأنى لن أفارقها طوال حياتى . وكنت على استعداد لدفع أغلا ما فى الحياة ثمنا للمس يدها الباردة مرة أخرى ، وسماع صوتها العذب ثانية ، ورؤية وجهها الجميل من جديد ... ما كان أقربها منى ! ! ... لقد جاءت إلى بملء إرادتها ، جاءت إلى بقلب طاهر فياض الشعور ، جاءت إلى بنضارة شبابها المصون ... ولم أقدم حتى على ضمها بين ذراعى . بل قذفت بالسعادة التى كنت سأنعم بها

وأنا أرى وجهها الجيل الوجل يتهلل بغبطة النشوة الساحرة ... كان هذا الخاطر يقترب بى من الجنون ...

وصرخت وأنا بين براثن اليـــأس : « أين تراها ذهبت ؟ وماذا تراها صنعت بنفسها ولاح لى وقتئذ شىء أبيض يلتمع إلى جانب النهر . ولم أكن أجهل ذلك المكان . فهناك فوق قبر رجل انتحر غرقا منذ سبعين عاما قامت صخرة بيضاء متوجة بصليب ، ومزخرفة بعبارات منقوشة ... شعرت كأن قلبى توقف عن الخفقان . وجريت إلى القبر ، ولكن الشىء الأبيض الذى رأيته كان قد تبدد ... وصحت بأعلا صوتى . آسيا !... آسيا وارتعبت حتى من صدى صوتى ، ولكن أحدا لم يجب ...

وعقدت العزم على العودة إلى جاجين ، فلعله عثر عليها .

— ٢٠ —

اقتحمت طريق الكرمة ... ولمحت نورا ينبثق من نافذة آسيا ، فاطمأننت بعض الشىء . وصعدت إلى الدار ، فوجدت الباب الأمامى مغلقا طرقته فأطل جاجين من نافذة معتمة فى سفل الدار ، وسارعت إلى سؤال :

— أوجدتها ؟

— فأجاب همسا :

— شكرا لله ! لقد عادت ، وهى الآن فى غرفتها تشرع فى ارتداء قميص النوم ، كل شىء على خير ما يرجى .

وقلت وأنا أتنفس الصعداء .

— شكرا لله ، شكرا لله ... سيكون كل شىء مرضيا مبهجا ... لا بد لى أن أراها مرة أخرى كما تعلم .

أجاب وهو يرخى ستر النافذة بلطف :

— مرة ثانية ... نعم ، مرة ثانية ... والآن ، طبت مساء .

صحت :

— إلى الغد ... ستسوى الأمور فى الغد .

فكرر جاجين قوله :

— طبت مساء .

وأغلق النافذة... وهممت أن أنقر زجاجها بإصبعى ، وتأهبت للافضاء إلى جاجين بأنى أريد التزوج بأخته . ولكنى وجدت الوقت غير مناسب لمثل هذا العرض . وقلت لنفسى : « فلأصبر إلى غد ... فى غد سأصبح أسعد إنسان » .

كان المفروض أن أسعد فى الغد . ولكن السعادة لا تعرف الغد . وهى ليس لها ماض كذلك . هى بنت ساعتها فليس هناك ماض تذكره ، أو مستقبل تفكر فيه . إنها تعيش للحاضر ، وليس حاضرها يوما أو بعض يوم ، ولكنه لحظات .

ولا أذكر كيف عدت إلى دارى . فلم تحملنى إليها قدماى ، ولم يحملنى قارب — ولكن جناحين هائلين طارا بى إليها . وقد مررت بحديقة

يتعالى منها تغريد بلبل ، فمكثت مدة أنصت إليه . وخيل إلى أن البلبل يصدح تحية لحبى وسعادتى .

— ٢١ —

واقتربت من المنزل الحبيب فى الصباح التالى فراعنى أن أجد نوافذه جميعها مفتوحة ، وكذلك بابه . ورأيت قصاصات من الورق ملقاة أمامه ، وخادما على العتبة ممسكة بمكنسة .

توجهت إلى تلك الخادم ، وقبل أن أجد وقتا للسؤال عن أسرة جاجين صاحت فى وجهى .

— لقد رحلوا ...

ورددت قولها كرجع الصدى :

— لقد رحلوا ! ! ... ماذا تعنين ؟ ! ... وإلى أين رحلوا ؟ ؟ ...

— رحلوا فى السادسة صباحا دون أن يذكروا وجهتهم . ولكن صبرا . ألست السيد (ن) .

— نعم .

— لقد تركوا لك رسالة مع صاحبة المنزل .

وصعدت الخادم إلى علو الدار ، ومالبثت أن عادت بالرسالة ، وقالت :

— هذه لك .

وجعلت أهذى مرددا :

— كيف هذا ؟ ! هذا غير ممكن ...

ونظرت إلى الخادم بذهول ، ثم استأنفت عملها .

فضضت الرسالة فوجدتها بتوقيع جاجين . ولم أعثر بها على كلمة من آسيا . طلب إلى جاجين فى رسالته ألا أغضب لسفره المفاجىء ، وأكد إنى سأوافقه بعد الروية على القرار الذى اتخذه ، وأنه لم يجد مخرجا آخر من ذلك الموقف الذى تحرج وأصبح خطرا . وقال : « وقد اقتنعت أمس ونحن جالسان معا فى انتظار آسيا أنه لا بد من فراقكما . وهناك نوع من العذاب جدير بالتقدير والاحترام . أنا لا أجهل أنك لا تستطيع الاقتران بآسيا ، وهى لم تدار عنى شيئا . ولذلك اضطررت إلى الإذعان لرجائها الحار المتكرر ...» وختم خطابه بإظهار الأسف على قصر عهد الصداقة التى توطدت بيننا ، وبتأكيد حسن تقديره وتمنياته ، وبرجائى ألا أحاول اقتفاء أثرهم :

صحت وكأنه يسمعنى : « أى عذاب هذا الذى تتحدث عنه ! ! ... ما هذا الهراء ؟ ! ... بأى حق تبعدها عنى...»وأمسكت رأسى بيدى».

ونادت الخادم سيدتها بصوت عال . ونبهنى صوتها إلى ضرورة الانصراف . وكانت فكرة واحدة تملأ حواسى ، وتنهش كيانى ، هى أن أجدها ... مهما غلا الثمن . لم يكن فى مقدورى أن أحتمل تلك الصدمة ، وأن أرضى بالحل الذى ارتآه جاجين. وقد علمت من صاحبة البيت أنهما ركبا باخرة نهرية حملتهما منذ الصباح الباكر إلى الجنوب. وتوجهت إلى

المحطة النهرية، عرفت أنهما اشتريا تذكرتي سفر إلى مدينة «كولونى». وجريت إلى منزلي لأعد عدتي وأعبر وراءهما على ظهر السفينة التالية . وكان بيت السيدة لوز في طريق . وبمروري به سمعت صوتا يردد اسمي. فتطلعت إلى أعلا ورأيت أرمل العمدة تطل من نافذة نفس الغرفة التي قابلت بها آسيا أمس . وابتسمت لي ابتسامتها المعهودة المنفرة ، فأشحت بوجهي ، وواصلت سيرى . ولكنها صاحت بأن لديها نبأ تريد الإفضاء به إلى . وحملني قولها هذا على العودة أدراجي والصعود إلى منزلها . ومن أين أجد الكلمات التي أصف بها شعوري عندما وجدت نفسي ثانية في عين الغرفة التي ضمتني وآسيا ؟ ! . .

قالت العجوز وهي تبرز لي وريقة بين أصبعيها . .

— كان على أن أعطيك هذه الورقة في حالة واحدة فقط ، وهي مرورك بي للسؤال عنها . . . ولكن لا بأس . فأنت شاب ظريف . . . خذ . . ها هي ذي .

وأخذت الورقة ، ووجدت بها الكلمات الآتية مكتوبة على عجل .

« أودعك وداعا لا لقاء بعده : ولا تظنني اخترت الرحيل بدافع المحافظة على كرامتي . ولكني أرحل دون أن يكون لي في ذلك خيار . فعندما بكيت أمامك أمس ، كنت على استعداد للبقاء فيما إذا جادت على شفتاك بكلمة واحدة . . . مجرد كلمة واحدة . . ولكنك بخلت بتلك الكلمة . وعلى ذلك فالذي كان . . . هو خير ما يمكن أن يكون .. وداعا إلى الأبد ! » .

كلمة واحدة ! . . آه ! ما كان أشد جنوني ! ! لقد قلت هذه الكلمة

أمس والدموع تجرى على خدى . لقد هتفت بها في الخلاء ، ورددتها بين الحقول . . . ولكني لم أقلها لها ، وهي صاحبتها . . . لم أقل لها : أحبك ! ! ... لقد عجزت أمامها عن النطق بها . إني لم أكن أعي الحب الكامن في نفسي ، حين قابلتها في تلك الغرفة ، وعيا كاملا . بل إن ذلك الحب لم يتضح لي على حقيقته حتى وقتما كنت جالسا إلى جانب أخيها في ذهول ونحن ننتظر عودتها . إلا أنه لم تمر دقائق على تلك الجلسة حتى تدفق ذلك الحب حيا عارما ... تدفق عندما خشيت أن أفقدها ، عندما خفت أن يكون قد أصابها مكروه. وجريت إلى كل مكان ، في الشوارع وبين الحقول ، باحثا عنها هاتفا باسمها مناديا ... ولكن الأوان كان قد فات . وقد يقول قائل « إن هذا مستحيل » ، ولست أدرى إن كان مستحيلا بالفعل أم لا ، ولكن الذي أدريه هو أنه حقيقة واقعة .

كان رحيل آسيا بسبب بساطتها واستقامتها . فلو أنها كانت تميل قيد أنملة إلى التجمل والغزل ، أو أنها كانت تستخف بزيف موقفها، لما رحلت. فهي لا تستطيع احتمال ما يحتمله غيرها من الفتيات ... ولم يكن في مقدوري أن أفهم ذلك . كنت على وشك أن أعترف لجاجين بحبي وهو يغلق النافذة المعتمة أمس أثناء آخر لقاء لنا ، ولكن فطنتى المشئومة حبست ذلك الاعتراف في حلقي . فأفلتت من يدي آخر قشة كان يمكن أن أتعلق بها وأصل إلى الغاية المأمولة .

عدت إلى بلدة (ل) في نفس اليوم حاملا متاعي ، وركبت السفينة

النهرية إلى « كولونى » . وإنى أذكر إلى اليوم أنى رأيت « الساقية الحزينة » وأنا أنظر من السفينة التى أخذت تشق صدر النهر ، وأودع تلك الشوارع والأماكن والمغانى التى لن أنساها ما حييت...رأيت تلك الساقية تجلس فى مقعد مشرف على النهر ، ولم يبد على وجهها ، رغم شحوبه ، ما يدل على الحزن . وكان إلى جانبها فتى وسيم يتحدث إليها ويضحك . وظهر لى ، وأنا فى عرض النهر ، تمثال العذراء ، وقد لاح حينذاك لمدة ثوان من خلال أوراق الشجر الداكنة .

— ٢٢ —

وقفت فى « كولونى على أثر أسرة جاجين . وعلمت أنهما غادرا تلك المدينة إلى لندن ، فتبعتهما إلى هناك . ولكن جميع الجهود التى بذلتها فى مدينة لندن الكبيرة بحثا عنهما باءت بالفشل . وظللت مدة طويلة أوالى ذلك البحث دون أن أستطيع توطين نفسى على الإخفاق . واضطرنى الواقع فى آخر المطاف إلى فقدان كل أمل فى العثور عليهما .

لم أرهما بعد ذلك قط . لم أر آسيا بعد ذلك أبدا...وكانت هناك شائعات فى أول الأمر تترامى إلى عنهما بين الحين والحين ، ولكنها انقطعت بعد ذلك نهائيا وأنا لا أعرف الآن أهى باقية على قيد الحياة أم لا ... ومنذ بضع سنين ، وأنا فى الخارج ، وقع بصرى لمدة لحظة على امرأة فى إحدى عربات السكة الحديد تشبه آسيا كل الشبه ، فأحيا منظرها فى ذهنى تلك

الملامح الجميلة التى لا تنسى . ولكن ، أغلب الظن أنى خدعت فى هذا الشبه الذى صادفنى . إن آسيا ما زالت تمثل فى ذهنى تلك الفتاة الفاتنة التى رأيتها فى أسعد سنى حياتى . أما هذه الفتاة التى تشبهها فكانت تحتل مقعدا خشبيا فى العربة ، وتكاد تغرق بين زحمة الناس .

ولا بد لى مع ذلك أن أعترف بأن فقدان آسيا لم يحزنى طويلا . فقد قلت لنفسى إن القدر أحسن صنعا بتفريقه بيننا ، وواسيتها بأن آسيا لم تكن الزوجة التى تستطيع أن تسعد زوجها . كنت وقت هيامى بها فى ريعان الصبا ، وخيل إلى وقتئذ أن المستقبل أبدى ، فى حين أنه القصير السريع ... الخاطف . وكم سألت نفسى : « أليس من الممكن أن يتكرر ما حدث لى ؟ بل ألا يجوز أن يتكرر على نحو أطيب وأجمل ؟ ؟ ... » وقد توثقت علاقتى فعلا بكثير من السيدات ، ولكن الأحاسيس التى أثارتها آسيا فى نفسى ، تلك الأحاسيس الرقيقة العميقة المتأججة ، لم تتكرر على ذلك النحو أبدا . ولم تحتل عيون أخرى قط مكانة عينى آسيا اللتين كانتا تنظران إلى بذلك الحنان والورد ! ... ولم يرد قلبى قط على أى قلب آخر مال إليه ، بتلك الخفقات الطربة الجزلة التى كان يرد بها على خفقات قلب آسيا . وإنى مازلت أحتفظ ، وأنا أكابد اليوم حياة العزوبة والوحدة الكريهة التى قدر لى أن أحياها ، ما زلت أحتفظ بآثارها التى أقدسها ، بالرسالتين وبعود الزهر الذى ألقته من النافذة ، وطلبت إلى أخيها أن يعطيه لى . إن ذلك العود مازال يحتفظ إلى اليوم ببقايا من

عطره . وقد تكون اليد الرخصه التى جادت على به ، والتى لم أستطع أن ألثمها إلا مرة واحدة ، ذاوية يابسة فى قبرها ... وأنا ماذا كان مصيرى أنا ؟ ! ... ما الذى بقى منى ومن تلك الأيام السعيدة المحتشدة بشتى الانفعالات ، والآمال والأحلام ذات الأجنحة ؟ ! ! وإذا كانت بقية العبير النافحة من عود الزهر البسيط قد أحيت من جـــديد جميع أفراح الإنسان وأحزانه ؛ فهى قد تستطيع البقاء فى هذه الحالة بعد الإنسان نفسه .

تمت

جداول الربيع

« أيام ما أسعدها ! »

« أيام ما أبهجها ! ! »

« مرت وتولت مسرعة »

« كجداول الربيع . . . »

أغنية قديمة

عاد إلى مكتبه عندما كانت الساعة تجاوز الواحدة صباحا . وأذن للخادم الذى جاء يوقد الشموع فى الانصراف ، ثم ألقى بنفسه ثقيلا على مقعد وثير قائم إلى جوار الموقد ، وأخفى وجهه بكلتا يديه . فهو لم يشعر من قبل بمثل هذا الإرهاق الجسدى والعقلى . لقد قضى ليلته هـذه بين سيدات مؤنسات ورجال مثقفين . كان كثيرات من أولئك السيدات كما يمتزن بالحسن ، كان أغلب أولئك الرجال من ذوى المواهب والعقول الممتازة ، وغنيت محادثات ذلك المجلس بألمعيته الباهرة هو كذلك . ولـكنه مع ذلك لم

يكابد مللا مبرحا من قبل كالذى كابده فى تلك الليلة . لقد شعر « بملل الحياة » الذى شكا منه قدماء الرومان ، وغلب عليه تقزز من وجوده لم يسبق أن أخذ بخناقه فى مثل تلك الشدة . ولو أنه كان أصغر سنا ، لبكى من وطأة شتاته وضيقه وغيظه . كان قلبه يطفح مرارة كاوية لاذعة كالحنظل ، وخيل اليه أن شيئا كريها خانقا يطبق عليه من كل ناحية كأنه ليلة من ليالى الخريف الرهيبة الظلام ، فتضيق به السبل ، ولا يجد مهربا من ذلك الظلام وذلك الشقاء . ولم يكن يأمل فى راحة النوم إذ كان واثقا من أنه لن يطرق جفنيه .

ألقى بنفسه فى لجة التأملات — وكانت بطيئة مضنية مريرة .

أخذ يفكر فى الزهو الباطل ، والجشع المتفاقم والزيف التافه ، وما إلى ذلك من صفات الإنسان وكل ما يتعلق به . واستعرض مراحل الحياة الفردية مرحلة بعد مرحلة ، (وكان وقتذاك فى الخمسين من سنه) فلم يجد واحدة منها تستحق أن يتساهل فى الحكم عليها ، إذ لا انقطاع فى الحياة للعمل المتلاحق غير الهادف ، ولإنفاق الجهود فيما لا يجدى ، ولتذرع الإنسان بوسائل يخدع بها نفسه ، بعضها أصيل وبعضها مصطنع . . . ولا إحجام عن أى شىء يوفر اللهو والتسلية . . . ثم تطبق الشيخوخة فجأة كالصاعقة المنقضة من السماء ، فإذا الخوف من الموت يكمن فى كل شىء ، متزايدا على مر الأيام . . . فتاكا . ثم . . . تتكشف الهاوية . وكان الأمر يهون لو لم يكن هناك إلا أن تزداد الأمور سوءا . بيد أن

الضعف والألم سيتراكمان قبل النهاية كما يتراكم الصدأ على الحديد . . .

لم يكن يرى الحياة كالمحيط الذى تتعاقب أمواجه الزرق على نحو ما يصف الشعراء . ولكنه كان يتمثلها بحرا هادئا راكدا شفافا ينصح بقاعه المعتم ، ويحسب نفسه فى قارب هش يطل منه فيرى فى قاع البحر الطينى وحوشا مخيفة ! . . ولا يجد مناصا من المنغصات التى تلازمه وهى المرض والجنون والفقر وعدم التبصر وسوء الطالع . . . ويطيل وهو فى القارب التحديق فى الماء ، فإذا وحش من وحوش البحر يبرز من الظلمات المتراكمة ، ويصعد إلى سطح الماء رويدا رويدا ، وتتضح ملامحه شيئا فشيئا حتى يبدو على حقيقته البشعة . . . ويقترب من القارب حتى ليكاد يصدمه ويقلبه . ولكنه يتوقف دون ذلك ، ويأخذ فى الابتعاد ثانية ، وتغيم ملامحه المخيفة من جديد ، ويغطس إلى القاع حيث يفترش الطين . ولا يكف عن تحريك زعانفه . . . إلا أن الساعة المحتومة سوف تحين ، فيصعد الوحش دون توقف حتى يضرب القارب فيقلبه .

دفع برأسه إلى الوراء ، وهب واقفا على قدميه ، وذرع طول الغرفة جيئة وذهابا مرة أو مرتين ، ثم سار إلى مكتبه ، وفتح أدراجه واحدا بعد الآخر ، وقلب فى أوراقه ، وفى رسائله القديمة ، وكان أكثرها مرسلا إليه من سيدات ولم يكن يبحث عن شىء محدد واضح فى ذهنه ، ولكنه كان يستهدف أن يجد فى الحركة والنشاط مهرباً من أفكاره المضنية . واكتفى بهز كتفيه وهو يتصفح بعض تلك الرسائل دون مبالاة (وكانت

إحداها تنطوى على وردة معقودة بشريط بال) ثم أخذها رزمة واحدة ، ونظر إلى الموقد ، ووضعها إلى جانبه ، ولعله كان يزمع حرق تلك المهملات التى لا تجدى . وعاد يدس يده فى أدراج المكتب ، وحملق فجأة وهو يخرج من أحدها صندوقا أثريا صغيراً متعدد الأضلاع ، وفتح غطاءه . وكان به صليب صغير من العقيق محفوظ بين طيات قماش من القطن تغير لونه .

ظل يحدق فى ذلك الصليب بضع دقائق . وأفلتت من شفتيه صرة خافتة تدل على الدهشة . ولاحت فى عينيه نظرة عابرة رسمت على ملامحه تعبيرا ينم بعضه عن سرور ، وبعضه عن أسى وحسرة . ومثل هذا التعبير يمكن أن يشاهد على وجه رجل يقابل فجأة إنسانا لم يره من زمن بعيد ، وكان فيما مضى يحبه ويعزه ، فإذا هو يراه أمامه دون توقع ، متجليا كما كان يتجلى فى العهد الماضى ، وإن كانت السنون أحدثت به بعض التغيير .

غادر مكانه وقصد الموقد ، وجلس هناك فى المقعد الوثير ، وأخفى جهه بكلتا يديه من جديد . . . وأخذ يسائل نفسه : « لم يقع هـذا اليوم ؟ . . . لم يقع اليوم من دون سائر الأيام ؟ ! . . وتوالت على خاطره ذكريات حوادث جرت من قديم . . . من قديم جدا . »

وها هو ذا ما خطر له منها ...

ولكنى يجب أن نبدأ بذكر اسمه ولقبه — إن إسمه هو ديمترى بافلوفيتش ، . . ولقبه سانين .

وها هو ذا ما يتذكره من ماضيه :

— ١ —

لم يكن سانين قد تجاوز الثانية والعشرين إلا قليلا فى صيف عام ١٨٤٠ ، وكان وقتذاك بمدينة فرنكفورت وهو فى طريق عودته من إيطاليا إلى روسيا . ولم يملك يومئذ من المال إلا قدرا متواضعا ، ولم يكن كذلك متزوجا ، ولم يكد يكون له أقرباء . وقد ورث بضعة آلاف روبل من رجل يمت إليه بصلة واهية من القربى ، فقرر أن يبعثرها فى الخارج قبل أن يتولى وظيفة حكومية ، أو قبل أن يحمل على أكتافه فى النهاية نير الوظيفة الحكومية التى لا غنى عنها لتوفير سبل معاشه . ونفذ سانين ما قرره بدقة ، ودبر إنفاق ماله بلباقة ومهارة حتى أنه لم يتبق معه منه يوم وصوله إلى فرانكفورت إلا القدر الذى يكفى لانتقاله إلى بطرسبورج . وكادت أوربا تخلو عام ١٨٥٠ من السكك الحديدية . وكان السائحون يتنقلون بين بلادها فى عربات البريد . وحجز سانين مقعدا فى « عربة اى » التى تقرر ألا تبدأ السفر إلا فى الساعة العاشرة فى هذا المساء . ووجد سانين أمامه فسحة من الوقت قبل الرحيل . ومن حسن حظه أن الجو كان فى ذلك اليوم معتدلا ، فنزل إلى المدينة ليلقى عليها نظرة بعد أن تناول غداءه فى مطعم « البجعة البيضاء » ، وكان فى ذلك الحين ذا شهرة واسعة . وتوجه إلى « أرياد دانيكر » ولكنه لم يتأثر بما شاهده هناك . ثم زار منزل « جوته » مع أنه لم يقرأ له من أعمـــاله الأدبية إلا ترجمة

فرنسية لقصة « أحزان فيرتر » . وتمشى بعد ذلك على شاطىء نهر « اللين » شاعرا بذلك الملل الجديد بالسائح المحترم . ثم وجد نفسه فى الساعة السادسة مساء ، بعد نهاية المطاف ، فى أشد شوارع فرانكفورت ظلمة ، وجدنفسه واهن المفاصل مغبر الحذاء فى ذلك الشارع الذى ظلت ذكراه مرتسمة فى مخيلته مدة طويلة . رأى لافتة معلقة فوق دكان بإحدى الدور القليلة الموجودة هناك . . وقد كتب عليها « جيوفانى باتستى روزيللى » بائع حلوى إيطالى ... دخل سانين الدكان ليطلب كوبا من عصير الليمون ، ولكنه لم يجد أحدا فى مدخله الذى امتدت فى صدره منصة مستطيلة متواضعة ، وبدت وراءها رفوف نظيفة الدهان شبيهة برفوف الصيدليات ، صفت عليها بعض زجاجات مغلقة العنق بورق مذهب ، وأوان تحوى كعكا وألوان من الحلوى . لم يكن بمدخل الدكان من الأحياء إلا قط أشهب الشعر يطرف بعينه ، ويهر هريره ، وتنكمش مخالبه وتمتد ، وهومستلق على مقعدمن الخيزران بجانب النافذة ، وظهرت لفافة كبيرة من الصوف الأحمر ملقاة على الأرض ، أحالت شمس الغروب لونها الفاقع إلى لون الياقوت ، وقام إلى جانبها صندوق خشبي من صناديق الحياكة منقوش الجوانب .

وترامت إلى أذن سانين أصوات خافتة من الغرفة الداخلية . وتعالى رنين جرس معلق بالباب ، فانتظر توقف ذلك الجرس عن رنينه ليسأل : « أمن أحد هنا ؟ » ولكن باب الغرفة الداخلية فتح فى تلك اللحظة ، ورأى سانين ماكاد يقطع أنفاسه ...

— ٣ —

فتاة فى نحوالتاسعة عشرة من سنيها ، تتهدل خصائل شعرها الأسود على كتفيها العاريتين الناصعتين ، اندفعت إلى مدخل المحل باسطة ذراعيها فى هيأة توسل . وما وقع بصرها على سانين حتى قفزت إليه ، وأطبقت يدها على يده ، وحاولت أن تجره لتعود به إلى الغرفة الداخلية . وهتفت وهى لا تكاد تلتقط أنفاسها : « أسرع ...أسرع ... أنقذه . » وأحجم سانين عن تلبية رجائها ، والسير وراءها ، لا إعراضا عنها ، ورفضا لطلبها ، ولكن دهشة شلت حركته ، وصفدته فى مكانه ... كان جمالها الذى بهره فريداً لم ير مثله فى حياته ... ارتدت الفتاة إليه صارخة « تعال ... تعال ! » وما أشد اليأس الذى أرجف وقتئذ صوتها ، وأزاغ بصرها ، وأربك حركات يديها اللتين كانتا تنهشان خديها ! ! ... يأس لم يطالعه سانين حتى أطرح تردده ، واندفع وراءها مجتازا الباب المفتوح دون أن يضيع دقيقة أخرى بغير داع .

رأى فى الغرفة التى دخلها وراء الفتاة ، صبيا ممدداً على مقعد أثرى الطراز ، مكسو باللبد ، كان ذلك الصبى فى عامه الرابع عشر ، قريبالشبه بالفتاة إلى حد غريب ، وأغلب ظنى أنه أخوها كان لون وجههشبيها بلون الأموات ، يشوب بياضه اصفرار ، ويبدو كالشمع الخام أو المرمر القديم. وكانتعيناه مغمضتين ، وشعره الأسود الكثيف يلقى ظلاله على جبين ساكن منحوت كالتمثال ، وحاجباه مرسومين بإتقان ، وشفتاه المزرقتان تكشفان

عن أسنان مطبقة ، وبدا كأنه لفظ أنفاسه الأخيرة . كانت إحدى يديه مدلاة إلى الأرض ، والثانية مطروحة فوق رأسه . ولم يكن قد خلع سترته التى ظلت موثقة العرى ، وظل رباط رقبته المعقود يحز فيها .

ركعت الفتاة إليه مولولة : « لقد مات ، لقد مات ! . . كان يجلس إلى جانبى منذ برهة ، ثم سقط فجأة بلا حراك . يا إلهى . . . ، أما من حيلة نلجأ إليها لإنقاذه ؟! أمى غير موجودة الآن . . . يا باتاليونى ! . . . أين الطبيب » ؟ . . . ثم استأنفت قولها بالإيطالية : « ألم تذهب لإحضار الطبيب ؟ . . »

وجاء صوت خشن من ناحية الباب :

— أنا لم أذهب بنفسى يا آنسة ، ولكنى أرسلت لويز .

وأقبل علينا رجل يعرج . كان متقدم السن ، ضئيل الجسم ، يرتدى سترة حمراء ، طويلة ذات أزرار سود ، وسروالا قصيرا ، وجوربا أزرق من الصوف ، ويعقد حول رقبته رباطا أبيض عريضا . وكان وجه الصغير لا يكاد فى الواقع يظهر تحت غابة شعره الكثيف الأشهب الخشن الممتد فى كل ناحية من رأسه . هذا الشعر الذى جعل الرجل يبدو كالديك ذى العرف . والذى يزيد هذا الشبه انطباقا ، أنف الرجل المقوس المدبب ، وعيناه الصفراوان المنبثقتان من خلال فوضى فروة رأسه المغبرة .

وواصل قوله بالإيطالية .

— لويز أسرع منى فى الذهاب ، فهى تستطيع العدو .

وتقدم وهو يحرك قدميه المفرطحتين المصابتين بالنقرس ، المنكمشتين فى حذاء طويل ينتهى أعلاه بأربطتين ، وقال للفتاة .

— جئت ببعض الماء .

وكان يمسك عنق زجاجة طويلة بيد مجعدة وأصابع ذابلة . وقالت الفتاة وهى تمد يديها صوب سانين :

— ولكن إميل سيموت قبل وصول الطبيب ! . . سيدى الكريم ، أليس بيدك أن تصنع شيئا ؟

وقال الرجل الذى دعته باسم باتاليونى :

— لقد أصيب بنزيف داخلى . . . من أثر صدمة عصبية .

ورغم أن سانين لم يكن ملما بالطب أى إلمام ، إلا أن أمرا واحدا كان يعرفه حق المعرفة ، وهو أن الصبية فى سن الرابعة عشرة لا يصابون بمثل تلك الصدمات . لذلك قال لباتاليونى :

— إنها إغماءة وليست صدمة . أعندكم فرشاة ؟ . . ؟

ورفع الرجل المسن رأسه :

— ماذا ؟ . .

— فرشاة . . . فرشاة .

وكرر سانين هذه الكلمة بالفرنسية ثم بالألمانية . وطفق يمسح سترته بيده إشارة إلى ما يريد .

وفهم الشيخ فى آخر الأمر ما أراده سانين وقال :

— آه ! فرشاة . . . عندنا فرشاة بالطبع .

— أحضرها . . . وسنخلع ملابسه ، ونفرك بها جسده .

— حسنا . ولكن ، ألا نصب هذا الماء على رأسه ؟ . .

— لا . لنرجئ ذلك الآن . اذهب وأحضر الفرشاة بأسرع ما يمكنك

وضع پانتاليونى زجاجة الماء على الأرض ، وجرى إلى خارج الغرفة وعاد بعد برهة بفرشاتين إحداهما فرشاة شعر ، والأخرى فرشاة ملابس . ودخل فى أعقابه جرو مجعد الشعر ، يهز ذنبه بقوة ، ويتفرس فى وجوه الرجل المسن والفتاة ، وسانين نفسه ، متسائل النظرات ، كأنما يريد أن يقف على سبب الارتباك .

ولم يتوان سانين عن خلع سترة الصبى المضطجع ، وفك عروة ياقته ، ورفع أكمام قميصه . ثم تناول إحدى الفرشاتين ، وفرك بها صدره وذراعيه بكل ما يملك من قوة . وحذا پانتاليونى حذوه وأخذ يفرك بالفرشاة الأخرى ، وهى فرشاة الملابس ، حذاء الفتى وسرواله وخرت الفتاة فى هذه الأثناء على ركبتيها إلى جانب المقعد ، وأنشبت أصابع يديها فى شعرها وحدقت فى الصبى بعينين لا تتحولان عنه ولا تطرفان .

وكان سانين وهو يجاهد بفرشاته ، يختلس النظر إلى الفتاة . . رباه ما أجملها ! ! . .

— ٣ —

كان أنفها مستطيلا نوعا ، ولكنه أقنى بديع التكوين ، وشفتها العليا مظللة بزغب خفيف ، وبشرتها ملساء ناعمة غير لامعة ، تشبه العاج أو صمغ العنبر . وشعرها المهدل المتموج أشبه بشعر صورة « جوديث » المعروضة بمتحف بيتى . (لوحة الرسام ألورى) أما عيناها فلونهما الشهبة الداكنة ، وتحيط بإنسانهما دائرة سوداء كانتا باهرتين غلابتين حتى عندما أطفأ بريقهما الخوف والحزن . . . وطارت خواطر سانين دون قصد إلى بلدهما الفاتن الذى خلفه وراءه منذ قليل . . . بيد أنه لم يصادف فى إيطاليا كلها ما يضارع هذا الجمال . وكانت الفتاة تصعد أنفاسها بين حين وحين ، وكأنما كانت فى كل مرة تنتظر قبل تصعيدها أن يسبقها أخوها إلى التنفس .

ولم ينقطع سانين عن عمله ، ولكن نظراته كانت تتجه ناحية الفتاة . وقد استرعى وجه پانتاليونى كذلك انتباهه . كان الشيخ الفانى قد أنهكه الجهد ، فأخذ يلهث ، ويشب كلما ضرب بفرشاته ، ويتأوه مشفقا متحسرا . وتتأرجح فروة رأسه الكثة من ناحية إلى ناحية أخرى كلما هز رأسه بعنف ، وتبدو كأنها نبات كثيف متشعب غمره الماء .

وأوشك سانين أن يقول له : « اخلع حذاءه على الأقل » . ولـكن الـكلب الصغير الذى أثاره ولا شك ما يقع حوله من أحداث شب على رجليه الأماميتين واسترسل فى النباح . وهمهم الشيخ وهو ينظر إلى الجرو.

— تارتاجليا ... كناجليا !

وتبدل محيا الفتاة فى هذه اللحظة .. ارتفع حاجباها ، واتسعت حدقتا عينيها ، وأشرق وجهها جذلا ..

ودار سانين بعينيه فشاهد خدى الصبى يستعيدان ألوانهما ، وهدبيه يطرفان ، وفتحتى أنفه تتحركان . ثم استاف الصبى نفسا طويلا من خلال فكيه المطبقين ، وتنهد .. وصاحت الفتاة :

— إميليو ! .. حبيبى إميليو ..

وتفتحت عينا الصبى الواسعتان ببطء . وكانت نظراتهما خاليتين من أى معنى ، ولـكن بسمة خفيفة أخذت تصعد إليهما ، ثم تتسرب كذلك إلى شفتيه الذابلتين . ورفع يده المدلاة إلى صدره بحركة عنيفة . وكررت الفتاة نداءه :

— إميليو ! ! ...

وكان تعبير وجهها حيا قويا إلى حد الدلالة على أنها توشك إما أن تنفجر باكية ، أو تنفجر ضاحكة . وتعالى فى هذه الأثناء صوت يصيح من وراء الباب :

— إميل ! . . . ماذا حدث يا إميل ؟ ..

وأسرعت إلى الغرفة سيدة أنيقة الهندام ، فضية الشعر ، سمراء البشرة . ودخل فى أعقابها رجل متقدم السن ، يبدو من ورائه رأس الخادمة حينا ، ويتوارى حينا آخر .

وجرت الفتاة لمقابلتهم ، وقبلت السيدة بانفعال وهى تصيح :

— لقد نجا يا أمى ... لقد عاد إلى الحياة ! ...

وسألت السيدة من جديد :

— ولـكن ، ماذا حدث ؟ ما كدت أحضر حتى وجدت السيد الطبيب ولويز على عتبة الدار .

وطفقت الفتاة تسرد لأمها تفاصيل ما حدث . واقترب الطبيب من المريض الذى كان يستعيد صوابه تدريجيا ، ولا يكف عن الابتسام . وكأنما كان خجلا مما سببه للحاضرين من انزعاج .

وقال الطبيب مخاطبا سانين وبانتاليونى :

— يبدو أنكما كنتما تدلـكان جسمه . لقد أحسنتما صنعا . إنها فكرة مدهشة ... ولنر الآن ما يجب اتخاذه من وسائل العلاج الأخرى ...

وجس نبض الصبى وقال :

— هيه ... أرنى لسانك .

وانحنت السيدة جزعة على الفتى ، فاتسعت ابتسامته ، وارتفع نظره اليها ، واصطبغت وجنتاه حياء . وخطر لسانين أن بقاءه قد يضايق الموجودين ، فانتقل إلى مدخل المحل ، ولكنه لم يكد يمسك بمقبض الباب الخارجي ليفتحه حتى ظهرت له الفتاة واستوقفته ، وقالت وهي تنظر اليه بلطف :

— أأنت تاركنا ؟ ... أنا لا أريد أن أستبقيك ، ولكن عدني أن أن تعود إلينا ثانية في المساء . فكم نحن مدينون لك ! ! إن أخي كان سيلقى لولاك منيته . ولذلك نود أن نوفيك حقك من الشكر ، وأمي تود ذلك هي الأخرى . لا بد أن تطلعنا على اسمك ، وأن تشاركنا في سرورنا ...

وأجاب سانين متلعثما :

— ولكني مسافر الليلة إلى برلين

واعترضت الفتاة بحماسة :

— إن الوقت متسع أمامك . عد إلينا في بحر ساعة لتشاركنا في تناول كوب شراب من الشكولاته . عدني بذلك ... لا بد أن أرجع اليه الآن . ولكنك ستعود ثانية ، أليس كذلك ؟ ؟

وهل بقي لسانين شيء من حرية التصرف ؟ ؟ ... قال :

— سأحضر ثانية .

وضغطت المخلوقة الجميلة يده بخفة ، وعادت أدراجها كأنها فراشة تطير . وبعد دقيقة واحدة وجد نفسه في عرض الشارع .

— ٤ —

عندما عاد سانين بعد ساعة إلى دكان الحلوى استقبله الموجودون كأنه أحد أفراد أسرتهم . وكان إميل لا يزال يجلس في نفس المقعد الذي كان يدلكه فيه . وقد وصف له الطبيب بعض الدواء ، وأوصى أهله أن يحتاطوا كل الاحتياط في معاملته حتى لا يعرضوه للانفعالات النفسية ، ذلك لأنه عصبي المزاج ، ومعرض للأزومات القلبية . وسبق له أن أصيب مرارا بنوبات إغماء ، ولكنها لم تبلغ عنف هذه النوبة الأخيرة وطول مدتها . بيد أن الطبيب أنبأه مع ذلك أن الخطر زال عنه تماما . وقد ارتدى الصبي ملابس تناسب حالته الصحية...ارتدى جلبابا محلول العرى ، وربطت أمه رقبته بوشاح من الصوف الأزرق . ولكنه كان يبدو مغتبطا فرحا بالجو المحيط به . كان كله جو غبطة وفرح .

كان وعاء كبير موضوعا على مائدة مستديرة قائمة إلى جوار مقعد الصبي، مكسوة بغطاء نظيف وقد تناثرت في ذلك الوعاء أكواب مليئة بشراب الشكولاتة الشهية النكهة ، وأباريق تحوي مختلف المرطبات ، وفطائر وبسكويت وخبز . . . حتى الورد لم يخل منه ذلك الوعاء ! .. وأضاءت الغرفة ست شموع انبثقت من شمعدانين فضيين. وقام إلى جانب مقعد الصبي كرسي ذو ذراعين ممتدتين كأنما تتهيآن لاحتضان من يجلس بينهما . وقد

اختير هذا الكرسى لجلوس « منقذ الصبى » . وكان جميع من عرفهم سانين ذلك اليوم فى هذا المحل موجودين حتى الجرو « تارتاجليا » والهرة. وغمرت الجميع سعادة لا توصف . وعطس الجرو فى هدوء وجذل . ولم يشذ إلا الهرة التى جلست جامدة فى مكانها تطرف وتهنف كما كانت تفعل من قبل .

سألوا سانين عمن يكون ، وعن بلده واسمه . وعندما أخبرهم أنه روسى أبدى السيدات اندهاشهن ، بل وشهقن أيضا وهن يؤكدن له صائحات فى نفس واحد بأن تمكنه من الألمانية بهرهن ، ولكنه إذا آثر أن يتحدث بالفرنسية فلا بأس فى ذلك لأنهن يتقن هن أيضا تلك اللغة فهما وتحدثا ...ولم يتردد سانين فى الإفادة من هذا العرض وسرعة تنفيذه . وأخذن يرددن لقبه : « سانين ! . . سانين !! » ويقلن إنهن لم يتصورن قط أن يكون هناك لقب روسى سهل النطق إلى هذا الحد . أما اسمه — وهو ديمترى — فقد وجدنه ظريفا كذلك . وقالت السيدة الكبيرة (والدة الفتاة والصبى) إنها شهدت أيام شبابها أوبرا باسم « ديمتريو — وبوليبيو » ، ولكنها تفضل اسم ديمترى على ديمتريو . وأنفق سانين ساعة كاملة فى مثل هذه الثرثرة . ولم تحجم السيدات من ناحيتهن عن الإفضاء إليه بأخص أسرارهن . واحتكرت الأم ، ذات الشعر الفضى ، الجانب الأكبر من الحديث . وعلم سانين منها أن اسمها « ليونورا روزيللى » وأنها لم تتزوج بعد موت زوجها « جيوفانى روزيللى » الذى جاء إلى مدينة فرانكفورت ، وأنشأ محل الحلوى هذا منذ خمسة وعشرين عاما .

وكان أصلا من أبناء مدينة فيسنزا ، وهى تقر بأنه كان زوجا طيبا على العموم، وإن عابه مزاج حاد، وإخلاص وإيثار للنظام الجمهورى . وأشارت وهى تقرر ذلك إلى صورة زيتية لزوجها معلقة فوق المقعد المستطيل ، وقالت وهى تتنهد « إن راسم الصورة ، وهو جمهورى كذلك ، لم يفلح فى إبراز شبه زوجى الذى يبدو فيها صارم الوجه متجهمه كأنه قاطع طريق ، أو كأنه المجرم « رينالدو رينالدينى » ... »

والسيدة روزيللى أصلا من سكان مدينة « بارما » القديمة الجميلة المزدانة بكنيستها الفخمة ذات الجدران المكسوة بالصور التى رسمها « كوريجيو » الخالد . بيد أن تلك السيدة تأقلمت بعد طول إقامتها بألمانيا واكتسبت بعض صفات « التيتونيين » وقالت وهى تهز رأسها أسفا إنه لم يبق لها فى الحياة غير ابنتها هذه ، وابنها هذا ، (وأشارت إليهما) واسم الفتاة « جيما » والصبى إميل . وهما طيبان مطيعان ، لا سيما إميل وقاطعتها ابنتها .

— وأنا ! ألست مطيعة ؟ . . .

وأجابت أمها على الفور :

— أنت تؤمنين كأبيك بالجمهورية . . .

واستأنفت السيدة حديثها فقالت إن الأعمال لا تسير بالطبع على نحو ما كانت تسير عليه أيام وجود زوجها الذى كان فنانا فى صنع الحلوى . وأضاف باتاليونى فى حزم وصرامة : « كان رجلا عظيما » واستطردت

السيدة قولها إنها لا تشكو ولاتتحسر رغم ذلك ، فالشكر لله على كل حال .

(٥)

كانت جيما تنصت إلى أمها أثناء ذلك الحديث ، وتبتسم حينا ، وتتنهد حينا آخر ، وتهز كتفيها ، وترفع إصبعها معترضة على بعض ما يقال . وهى تلقى أثناء ذلك على سانين نظرة بعد نظرة. ثم قامت وطوقت أمها بذراعيها ، وطبعت على عنقها ، قريبا من ذقنها ، قبلات استثارت ضحكاتها وصرخاتها.

وتم تقديم بانتاليونى لسانين أيضا . وظهر أن هذا الرجل المسن كان فى يوم من الأيام مغنيا فى الأوبرا ، ولكنه ترك المسرح من زمن طويل وانضم إلى أسرة « روزيللى » حيث احتل مركزا وسطا بين صديق وخادم . وكان لا يكاد يعرف اللغة الألمانية رغم طول إقامته بألمانيا ، أو إنه لم يعرف منها إلا عبارات السباب . وكان يشوه حتى تلك العبارات حين ينطق بها ، فيصف كل ألمانى مثلا بعبارة « المتمرد الملعون » ، وينطق بها هكذا بالألمانية « فيرو فلوكتو ـ سبيتز بوبيو » ، مع أن صحة نطقها هى « ڤرفلوخق ـ سبيتزبوبى » . أما الإيطالية فكان يجيدها ، ولا عجب فهو من بلدة « سينجاليا » التى لا تزال ينطبق على لغة أهلها قول القائل « لغة توسكانيا ينطق بها فم رومانى » .

أما إميليو فكان فى بحبوحة من السعادة . ومن الواضح أنه كان مستسلما لتلك المشاعر اللذيذة التى يشعر بها من كان معرضا لخطر داهم

فأفلت منه ، أو من أبل من مرض ألم به . ومن الواضح كذلك أنه كان محبوب أسرته المدلل . وقد شكر سانين وهو يتعلثم خجلا ، بيد أنه أقبل فى جرأة على الطعام والشراب . واضطر سانين أن يبتلع قدحين من سائل الشكولاته الجيد ، وأن يزدرد كمية كبيرة من الكعك والبسكويت . فهو لم يكن يأتى على ما فى حوزته من طعام حتى تقدم له جيما غيره ، وهل كان يستطيع أن يرفض ؟ ولم يلبث أن شعر بين أولئك القوم بألفة حتى لكأنه فى بيته ، ومر الوقت بسرعة غير متصورة . وكم من أمور كان عليه أن يحدثهم عنها : — كان عليه أن يحدثهم عن روسيا نفسها ، وعن الجو الروسى ، والمجتمع الروسى ، والفلاح الروسى — لاسيما عن القوزاق . ثم كانت هناك هزيمة نابليون أمام موسكو عام ١٨١٢ ، وكان هناك بطرس الأكبر ، وقصر الكرملن ، وأغانى روسيا ؛ وأجراس كنائسها . ولم تكن لجيما وأمها أية فكرة عن أرض وطننا النائية غير المحدودة . ومما أدهش سانين سؤال وجهته إليه السيدة روزيللى ؛ أو « فراو لينور » كما كانوا ينادونها ؛ عن قصر الثلج الذى شيد بمدينة بطرسبورج فى القرن الماضى ، وعما إذا كان لا يزال قائما ؟ ! وقالت إنها قرأت أخيرا مقالا مهما عن هذا الموضوع فى كتاب عن الفن وجدته بين مخلفات المغفور له زوجها ! ! وسألها سانين مندهشا :

— أتعنين أنه لا يوجد صيف فى روسيا على الإطلاق ! ! . .

فسلمت فراو لينور (فراو بمعنى سيدة بالألمانية) بأنها كانت تظن حتى

تلك اللحظة أن روسيا هى بلاد الجليد المستديم ، وأن أهلها لا يخلعون معاطف الفرو فى تجوالهم ، وأن رجالها جميعهم عسكريون ، ولكنهم كرماء محسنون ، وأن فلاحيها دمثو الخلق طيعون . وحاول سانين أن يصحح معلوماتها ، ويعطيها هى وابنتها فكرة أدق عن وطنه. وعندما تطرق الحديث إلى الموسيقى الروسية رجا الحاضرون سانين أن يسمعهم أغنية من أغانى بلاده ، ولفت بعضهم نظره إلى بيانو صغير قائم فى أحد أركان الغرفة سلالمه الموسيقية العليا بيض ، والسفلى سود على عكس المألوف . وامتثل دون أن ينتظر إلحاحا ، وأخذ يغنى مستعينا بالعزف على البيانو دون أن يستعمل إلا إصبعين من يده اليمنى ، وثلاثة من يده اليسرى (هى الإبهام والوسطى والبنصر) . وأسمعهم أول الأمر أغنية « سارافان الأحمر » وصدر صوته من أنفه عاليا مجلجلا ، ثم أسمعهم أغنية « على طول الرصيف » . وقرظت السيدات عذوبة اللغة الروسية ورقتها ، وسألنه أن يترجم لهن معانى الأغنيتين ، فأجابهن إلى رغبتهن . ولما كانت ترجمة تلك المعانى تفقدها جمالها الأصلى ، لا سيما معانى الأغنية الثانية التى تبدأ بالبيت الآتى : « سارت الفتاة على رصيف معبد ، قاصدة ينبوع الماء » فقد لجأ إلى إلقاء الاغنيتين بصوت عميق الوقع قبل الشروع فى ترجمة معانيها . ثم أسمعهن فى النهاية أغنية بوشكين « هنيهة السعادة التى لا تنسى وهى من تلحين جلينكا ، وكان صوته حين ينخفض أثناء الغناء يفيض شجوا ، فأخذت الحماسة السيدات هذه المرة . ولا حظت فراو لينور وجه شبه غريب بين اللغتين الروسية والإيطالية . وقالت إن اسم بوشكين

(وكانت تنطقه بوسكين) وجلينكا ليسا غريبين على سمعها . وسأل سانين السيدات بدوره أن يسمعنه كذلك بعض الأغانى ، فلبين طلبه دون تمنع . وجلست لينور إلى البيانو وصحبتها ابنتها جيما فى غناء بعض المقطوعات الفردية والثنائية . وبدا أن الأم كانت فيما مضى ذات صوت رنان ممتاز ، أما الإبنة فكان صوتها مشجيا رغم هدوئه .

— ٦ —

ولكن سانين كان معجبا بجيما نفسها ، لا بصوتها . وكان يجلس إلى الوراء لا يراها إلا من ناحية جانبية . وقال لنفسه وهو ينظر إلى الفتاة « لا توجد شجرة نخل فارعة ، بل لا توجد بين شجرات النخل التى صورها الشاعر الروسى « بينيد يكتوف » فى قصائده التى اشتهرت فى وقتها ، شجرة واحدة تتحلى برقة ذلك الوجه الأسيل » . وخيل إليه وهو يراها ترفع عينيها إلى أعلا عند انفعالها بالغناء ، أن السماء نفسها لا يمكن إلا أن تستجيب لتلك النظرات . بل إن بانتاليونى نفسه ، ذلك الشيخ الهرم الذى استند حينذاك إلى الباب ، وقد احتجبت ذقنه وفمه وراء رباط عنقه الكبير ، وأنصت إنصات الخبير فى جد ووقار ... كان ذلك الشيخ يستبد به الانفعال وهو ينظر إلى وجه الفتاة الجميل ، رغم أنه اعتاد ولا شك رؤيته . وعندما انتهت فراو لينور من الغناء ، قالت إن لا بنها إميل حنجرة ممتازة ترسل صوتا كرنين الفضة ، ولكنه اليوم فى سن المراهقه التى يخشوشن فيها الصوت (وهو فى الواقع يتحدث بصوت تعتوره خشونة متقطعة) ولذلك

لا يسمح له بالغناء . ولكن ، ألا يجمل بباتاليونى أن يحيى ماضيه ، ويشنف الآذان بالمناسبة السعيدة المتاحة ؟ ! ولكن باتاليونى قطب جبينه ، وأبدى عدم ارتياحه لذلك الاقتراح ، وأنشب أصابعه فى شعره الكث وهو يقول إنه طوى صفحة الماضى رغم أنه كان يبهر سامعيه بغنائه فى صباه . ثم إنه ينتسب إلى عصر غير هذا العصر . فقد كان الغناء فى عصره أصيلا كلاسيكيا لا يمكن أن يقارن بزعيق هذا الجيل . كانت هناك مدرسة غنائية لها قيمتها فى أيام صباه . وقد كلله سامعوه مرة فى مدينة «مودينا» ... نعم كللوه هو ، باتاليونى سبباتولا ، بإكليل من الغار ، وأطلقوا الحمائم البيض على أثر انتهائه من غنائه . وكان فى تلك الأيام على أحسن صلة بالأمير الروسى تاربوسكى (إل برينسبى تاربوسكى) . وكثيراً ما كان يدعوه ذلك الأمير إلى تناول طعام العشاء معه ، وقد عرض عليه أن يستصحبه إلى روسيا ، ووعده أن يهبه هناك جبالا من الذهب الخالص ... جبالا !. نعم جبالا ! ولكنه لم يطق فكرة مغادرة إيطاليا ... وطن دانتى العظيم . ثم وقعت — بالطبع أمور مؤسفة ، وهو لم يكن فى ذلك الوقت على حذر كاف ... وتخاذل الشيخ وهو يدلى بهذا الاعتراف ، وأرخى أهدابه ، وصعد زفرة عميقة أو زفرتين ، ثم عاد يتحدث عن عهد الغناء الكلاسكى وعن جارسيا المغنى الشهير الذى يكن له أعمق احترام . ثم صاح . « لقد كان رجلا ... إن جارسيا العظيم لم يحقر نفسه ، ويشوه سمعته بارتكاب الأغلاط الغنائية التى يرتكبها فنانو اليوم ، كان غناؤه ينبعث من صدره » وضرب الشيخ على قميصه بيده الواهنة الذاوية ، ثم استأنف قوله بحماسة :

«ويا له من ممثل !! كان بركانا يقذف حمما ، وقد تشرفت بالغناء إلى جانبه فى أوبرا عطيل التى لحنها الموسيقار الشهير روسينى . كان جرسيا يقوم فى تلك التمثيلية بدور عطيل ، وأما أنا فكنت أمثل ياجو . وعندما أخذ جارسيا يغنى هذه القطوعة ... » وصمت باتاليونى برهة وهو يتهيأ للغناء ، ثم تعالى صوته مرتجفا خشنا وإن كان لا يزال مؤثراً ، وأخذ يغنى:

« كنت أريد ... هذا ما أردته ... هذا ما فعلته ... »

« أنا قادر ... لا ... لا ... أنا لا أخاف ... »

وتوقف باتاليونى عن الغناء وقال :

— « اهتز المسرح من شدة التصفيق ... يا إلهى !! ولكنى صمدت لدورى ،وغنيت بعده :

« كنت أريد ... هذا ما أردته ... هذا ما فعلته ...»

« ولكنى لن أخاف بعد الآن ... »

« فأجابنى فى مثل ومض البرق ، أجاب كالنمر حين يزأر : —

« سأموت ... نعم ، سأموت ... ولكن بعد أن أنتقم ... »

— ثم إنكم لو سمعتموه وهو يغنى أوبرا «الزواج السرى» ، ويصل فى غنائه إلى مقطوعة « الجواد الراكض » ... ليتكم سمعتموه ... ليتكم سمعتم جارسيا العظيم ... كم كان رائعا ! ... كان ... » وتعالى صوت الشيخ مرددا بعض النغمات ، ثم توقف ، ودار برأسه ، وأشاح بيده وهو يغمغم :

— لماذا ترهقوننى ؟ ... لماذا تعذبوننى ؟

وهبت جما من مقعدها ، واندفعت إلى « ياجو » المسكين الذى اعتزل

العمل ، وصفقت بيديها صائحة « برافو ... برافو . » وطفقت تربت على كتفيه بكلتا يديها فى حنان وإشفاق . ولم يشذ عن الجمع إلا إميل الذى ظل يضحك دون شفقة أو رحمة ... وقديما قال لا فونتين : « هذه السن التى لا تعرف الشفقة والرحمة ! ! . »

وحاول سانين أن يواسى المغنى الشيخ ، وأخذ يخاطبه بالإيطالية (كان قد التقط بضع كلمات من تلك اللغة أثناء إقامته القصيرة الأخيرة بإيطاليا) ... حدثه عن « وطن دانق » ، وعن قول ذلك الشاعر : «دعونا نعمل» وقوله «هنا موطن آمالنا » . وكانت هاتان العبارتان هما كل ما حصله السائح الجوال من الشعر الإيطالى . ولكن هذه الملاطفة لم تهدىء من روع پانتاليونى الذى خفض رأسه ؟ فازدادت ذقنه غوصا فى طيات رباط عنقه ، وشخص ببصره الحزين ، وبدا عليه الغضب ، وصار أقرب شبها إلى الطير . ولكنه كان يشبه فى هذه المرة الغراب أو الحدأة .

ثم مرت على وجنتى إميل المدلل حمرة خجل خفيفة عارضة ، وقال لأخته وهو يلتفت إليها إن خير ما يمكن أن تفعله لتسلية ضيفها هو أن تقرأ له تمثيلية هزلية للشاعر « مالتز » . (وكانت تجيد إلقاء تمثيليات ذلك الشاعر .) وضحكت جما ، ودقت يد أخيها بيدها قائلة إن خاطره لا يجود إلا بالأفكار الغريبة . وقامت رغم ذلك ، وقصدت غرفتها على الفور ، وسرعان ما عادت بكتاب صغير ، وجلست إلى جانب المائدة قريبة من المصباح . ورفعت إصبعها كأنما تريد أن تقول : « أنصتوا ...

أرجوكم ... » (وإشارتها هذه إيطالية محضة) . ثم طفقت تقرأ فى الكتاب :

— ٧ —

عاش « مالتز » المذكور بمدينة فرانكفورت حوالى العقد الرابع من القرن التاسع عشر . وكان أديبا يكتب « المهازل » ، أو التمثيليات الهزلية باللغة المحلية الدارجة ، ويصور كذلك الشخصيات المحلية تصويرا فكاهيا . ورغم أن كتاباته لم تكن عميقة المعانى إلا أنها كانت مسلية مبهجة . وقد ظهر أن جما تجيد القراءة كما لو أنها كانت ممثلة محترفة . كانت تبرز بطريقة إلقائها خصائص كل شخصية فى التمثيلية ، وتحافظ على سلامة تصويرها حتى النهاية ، متوسلة بالإشارات المجونية الحية التى ورثتها عن جنسها الإيطالى . وعندما كانت تصل فى قراءتها إلى وصف عجوز مخبولة العقل ، أو حاكم أبله ، لم تضن بتجويد إلقائها العذب ، وتسخير ملامحها الجميلة . . كانت تقلب سحنتها ، وتشكلها أشكالا أشد ما تكون إستثارة للضحك ، فإذا عيناها تشخصان وأنفها يتجعد ، ولسانها يلثغ ويصفر . وكانت تضبط أعصابها فلا تضحك أثناء ذلك التمثيل . فإذا ضج الحاضرون بالضحك (جميع الحاضرين باستثناء پانتاليونى الذى انسحب على أثر البدء فى قراءة تمثيلية « الألمانى الملعون ») وحال ضجيجهم دون مواصلة القراءة ، فإنها تدع الكتاب يسقط فى هذه الحالة على ركبتيها ، وتلقى برأسها إلى الوراء ، وتستغرق هى الأخرى فى ضحك رنان ،

فيتهدل شعرها الأسود على كتفيها ، وتتراقص حلقاته حول عنقها . فإذا كف الضاحكون عن ضحكهم ، وعاد الهدوء إلى الغرفة ، تنــاولت الكتاب من جديد ، واتخذت ملامحها السيماء الملائمة ، واسترسلت فى القراءة .

خلب الإعجاب لب سانين — وكان أشد ما أدهشه أن يتمكن هذا الوجه الباهر ، الكلاسيكى الحاسن ، من أن يعـكس تلك التعبيرات المضحكة ، شبه المبتذلة . بيد أن جيا لم تصادف مثل ذلك النجاح فى تمثيل دور الفتاة العاشقة التى يطلق عليها لقب «بطلة التمثيلية »،بل إنها لم تكن تحسن تمثيل الأدوار الغرامية على العموم ، ولم يكن ذلك خافيا عليها ، ولذلك كانت ترتسم على وجهها وهى تقرأ مثل تلك الفصول ظلال خفيفة من السخرية كأنما أرادت بذلك أن تظهر ارتيابها فى صدق ما يتبـادله العشاق من أيمان الحب المغلظة ، ومن مطارحات الحب الملتهبة . تلك الأيمان والمطارحات التى كان المؤلف نفسه يحاول تجنبها على قدر إمكانه .

كان الوقت قد سرق سـانين فلم يشعر بالسرعة التى تولى بهـا ذلك المساء ! ولم يتذكر الرحلة التى كان عليه أن يقوم بها إلا عندما دقت الساعة العاشرة ، فقفز عندئذ من مقعـده كالملسوع . وسألته فراو لينور .

— ما الأمر ؟ !

— الأمر أنى مسافر الليلة إلى برلين ، وقد حجزت لى مكانا بمركبة السفر .

— ما ميعاد رحيل تلك المركبة ؟ ...

— منتصف الحادية عشرة :

قالت جيا .

— لقد فاتك ميعاد الرحيل ... فابق إذن . وسأواصل القراءة ...

وسألت فراو لينور :

— أدفعت عربونا لتذكرة السفر ، أم دفعت ثمنها كاملا ؟ ...

فأجاب سانين بقوة وهو يزفر أسى :

— دفعت الثمن كاملا .

وحدجته جيا بنظراتها وضحكت ، فأنبتها أمها قائلة :

— أتضيع نقود السيد سدى ... ثم تضحكين رغم ذلك ! ! ...

فأجابت جيا :

— لابأس ... فهولن يفلس لفقدان هذا المبلغ . ثم إننا سنبذل جهدنا للترفيه عنه ... خذ كوبا من عصير الليمون .

وتناول سانين كوب العصير فعبه إلى آخره . واستأنفت جيا قراءة التمثيليه ، وعاد المرح إلى ما كان عليه واستمر إلى أن دلت الساعة على انتصاف الليل ، فوقف سانين متأهبا للانصراف . وقالت له جيا :

— ولابد فى هذه الحالة أن تقضى بضعة أيام أخرى فى فرانكفورت .

وليس هناك ما يحملك على سرعة الرحيل ، فأى مكان آخر لن يكون أجمل من هذه المدينة ...

وتوقفت هنيهة عن الكلام ، ثم أضافت مبتسمة :

— نعم ، لن يكون أجمل من هذه المدينة .

لم يجب سانين ، وقال لنفسه إن جيبه الخاوى سيضطره إلى البقاء سواء رضى بذلك أم لم يرض ، نعم ، سيضطره إلى ذلك ريثما يكتب إلى صديق له فى برلين يسأله قرضا . وقالت فراو لينور :

— نعم، أرجوأن تبقى. وسنعرفك غداً « بالهركارل كاوبر» خطيب جيما . فهو لم يستطع الحضور الليلة لعمل استبقاه فى المتجر ... لابد أن تكون قد لاحظت ذلك المتجر ... فهو أكبر محل بشارع زايل ، يبيع أفخر الأقمشة والحرائر فى هذه المدينة ... وخطيب ابنتى هومديره ، وهو يسره بالطبع أن يعرفك .

وحزن سانين لهذا الخبر دون أن يعرف لحزنه سببا ، وقال لنفسه : « ما أسعد هذا الخطيب » ونظر إلى جيما فخيل إليه أنه لمح بريقا من السخرية ينبثق من عينيها ... وأخذ يودع الحاضرين . وسألته فراو لينور :

— إلى الغد ... ستحضر غدا ، أليس كذلك ؟ ..

وقالت جيما فى نبرة التأكيد لا السؤال ، كأنما الأمر محتوم :

— إلى الغد .

وأجاب سانين :

— إلى الغد

وشيعه بانتاليونى وإميل والجرو تارتاجليا إلى زاوية الطريق . ولم يستطع الشيخ المسن أن يكتم عدم رضاه عن طريقة إلقاء جيما فى القراءة . وقال ينفس عن ضيقه :

— يجدر بها أن تستحى . .. هذه الإشارات المضحكة ! . . . وهذا اللثغ والتلعثم ! ! ... إنه تهريج ... كاريكاتور ... كان أولى بها أن تمثل أدواراً جدية كدور « ميروبى » أو دور « كليتا يمنيسترا » . ولكنها بدل أن تقوم بتمثيل الأدوار التراجيدية العظيمة أخذت تتمشدق كالقرد بتلك الكلمات الألمانية . وهل هى تظن أنه يصعب النطق بتلك الكلمات !! إنى أستطيع أن أؤديها مثلها . « ميهرتز ، كرتز ، شميرتز » . وردد تلك الكلمات بصوت أجش وهو يبرز ذقنة ، ويمد أصابع يديه . ونبح تارتجليا عندما سمعه يصيح بهذه الكلمات الألمانية ، وأغرق إميل فى الضحك . وأشاح بانتاليونى بوجهه فى عنف ، وقفل راجعا .

عاد سانين إلى فندق البجعة البيضاء حيث كان قد ترك حقائبه ، وشعر برأسه يدور ، ، وبأذنيه تمتلئان بضجيج تلك الكلمات الألمانية والفرنسية والإيطالية .

ورقد فى فراشه الممتد فى غرفة الفندق المتواضع الذى نزل به ، وتردد همسه : « خطيبها ! ! ... ياجمالها الرائع ! ! . . ولكن ما الذى أبقانى هنا ؟ . . . » وفى اليوم التالى أرسل خطابا إلى صديقه ببرلين .

— ٨ —

وقبل أن يرتدى ملابسه فى الصباح التالى دخل عليه الخادم الغرفة ليخبره أن سيدين حضرا لمقابلته . واتضح أن أحدهما كان إميل . أما الثانى ، وهو رجل فى مقتبل العمر ، متناسق التكوين ، فكان الهر كال كلوبر ، خطيب چما الفاتنة المحاسن .

ولعله لم يكن فى طول مدينة فرانكفورت وعرضها بائع فى متجر بلغ من التجمل بالأدب والملاطفة المتحفظة والمظهر الكريم مابلغه الهر كلوبر . كان هندامه المتقن الحياكة يلائم تهذيبه المتحرز وأناقته — ولا نكران أن تلك الأناقة كانت تشوبها مسحة من التحفظ الإنجليزى (وكان قد قضى عامين فى إنجلترا بالفعل) ، إلا أن دقة سلوكه كانت خلابة ، وكان يبدو واضحاً من النظرة الأولى إلى ذلك الشاب الوسيم ، الصارم بعض الصرامة ، الجم الأدب ، المعتنى بنظافته — أنه اعتاد أن يخضع لرؤسائه ، وأن يصدر أوامره لمرؤوسيه ، وأن يبث الثقة ، وهو يقوم بعمله ، فى نفوس عملاء المتجر . أما نزاهته الخارقة للعادة فما لا يتطرق إليها أدنى شك ، وما عليك إلا أن تنظر إلى ياقته المقواة بالنشاء لتستوثق من ذلك . وأما صوته فهو ما يتوقع من رجل مثله ... صوت رخيم ، ذو رنين يدل على الثقة بالنفس ، هادىء غنى بالنبرات الرقيقة ، مكيف خير تكييف لمخاطبة المرؤوسين بمثل هذه العبارات : «أرجو أن تبسط ثوب القطيفة للعميل حتى يرى عرضه » أو « أحضر كرسيا للسيدة ! » .

بدأ هر كلوبر حديثه بتعريف نفسه. وانحنى وهو يذكر اسمه إنحناءة تشف عن نبل وحسن تهذيب ، فقد ضم كعبيه إذ ذاك كعبا إلى كعب على نحو بلغ من اللطف وقوة التأثير مبلغا لايملك المرء معه إلا أن يقول لنفسه « لا بد أن يكون معدن هذا الرجل وصفاته الروحية من الطراز الأول ! » وكانت يده اليمنى وهو يمدها إلى سانين فى تواضع وثقة (أما يده اليسرى فكانت مكسوة بقفاز سويدى ، وممسكة بقبعة من ذلك النوع الأسود العالى ، وكان سطح القبعة يلمع كالمرآة ، وفى جوفها تقبع الفردة اليمنى من القفاز) كان منظر يده اليمنى هذه أعجب مما يمكن تصوره ، كان كل ظفر من أظافرها يبدو فى زينته ولمعانه كأنه تحفة فنية .

طفق يقول فى لغة ألمانية مهذبة إنه يود أن يعبر عن شكره وتقديره لجميل السيد الأجنبى الذى أدى مثل تلك الخدمة الجليلة لأخى خطيبته الذى سيصبح نسيبه عما قريب . وعندما نطق بهذه العبارة الأخيرة أشار بيده الممسكة بالقبعة إلى ناحية إميل الذى ماكاد يسمع قوله حتى اتجه بنظره مرتبكا صوب النافذة ، واضعا إصبعه فى فمه . وأضاف هر كلوبر أنه يعد نفسه سعيداً فيما إذا استطاع تأدية أية خدمة للسيد الأجنبى . وأجاب سانين بلغته الألمانية المتعثرة أنه سعيد بمعرفته ، وأن الخدمة التى أداها للصبى العزيز لا تستحق الذكر ، ورجا الضيف أن يجلس . وشكر كلوبر ، ورفع ذيل سترته برشاقة وخفة ، وهبط فى الكرسى ، ولكنه جلس بتحفظ ، وظل ظاهر القلق إلى حد بدا معه أن هذا الرجل لم يجلس إلا تأدبا ، وأنه يوشك أن يهب واقفا لينصرف . ووقع ماكان متوقعا ، وهب كلوبر

واقفا ، وخطا خطوة أشبة بخطوات الرقص . وقال إنه لا يستطيع لسوء الحظ أن يمكث أكثر من ذلك إذ لا بد له من الذهاب إلى محل عمله « والعمل قبل كل شيء » . ولكن اليوم التالى ، وهو الأحد ، يوم عطلة ، ولذلك رتب الأمر ، بعد استئذان السيدة لينور والآنسة جيما ، للقيام برحلة قصيرة إلى « سودين » ، ويشرفه أن يدعو السيد الأجنبي . إلى الإنضمام إليهم فى تلك الرحلة ، ويطمع فى ألا يضمن السيد عليهم بأن يزين الرحلة بحضوره . وقبل سانين أن يزين الرحلة بحضوره ! ! ... وانسحب هر كلوبر من الغرفه ، مكثرا من الحركات المعبرة عن احترامه ، وكان سرواله الأخضر يخفق خفوقا لطيفا ، ونعل حذائه الجديد اللامع يصر صريرا لا يقل لطفا عن خفوق سرواله .

— ٩ —

ارتد إميل عن النافذة على أثر رحيل نسيبه المنتظر . وكان قد لزمها حتى بعد أن دعاه سانين إلى الجلوس . واستأذن فى البقاء بالغرفة قليلا وهو يحمر خجلا ويمط شفتيه كما يفعل الصغار . وغمغم مترددا :

— حالتى تحسنت كثيرا اليوم...ولكن الدكتور حرم علىّ العمل .

— تستطيع البقاء معى بكل تأكيد...فلن يعوقنى بقاؤك عن شىء...

قال سانين ذلك كأى روسى يسره أن يجيب الناس إلى ما يطلبون . وشكره إميل . ولم يمر وقت طويل إلا وكان الصبي قد ألف مضيفه ، كما

ألف غرفة مضيفه . وأخذ يفحص كل مايقع عليه بصره من حوائج سانين ، ويسأله عما يصلح له ، وعن المكان الذى اشتراه منه ثم ساعده على حلاقة ذقنه ، وأشار عليه أن يطلق شاربه . وانتهت به هذه الألفة إلى الإفضاء لسانين بتفاصيل خاصة بحياة أمه وأخته وپانتاليونى ، بل وخاصة بالجرو تارتا جليا أيضا . وتبددت دلائل خجله الماضى جميعها ، وشعر إلى سانين بميل لا يقاوم . ولم يرجع ذلك إلى أنه أنقذ حياته فى اليوم السابق ، ولكن إلى ظرفه وطيبته . وأفضى إليه بأخص أسراره دون أن يضيع وقتا . وتركز حديثه فى أن أمه تصر على تأهيله للتجارة حتى يصبح صاحب متجر ، ولكنه واثق من أنه ولد فنانا ، ولد موسيقارا ومغنيا ، وأن التمثيل الغنائى وحده هو الحرفة التى خلق لها . وقد شجعه حتى پانتاليونى على احتراف الغناء . ولكن هر كلوبر يساند أمه فى موقفها ، وكلمته عندها مسموعة ، وهو صاحب فكرة إعداد إميل للتجارة ، فهو لا يرى شيئا أعظم من أن يصبح الإنسان تاجرا فيبيع النسيج والسندس ، ويغش المشترين ، ويبتز منهم الأثمان الباهظة التى يدفع مثلها « المغفلون الروس ! » — هذه هى مثل هركلوبر .

وما أتم سانين ارتداء ملابسه ، وكتابة رسالة إلى صديقه المقيم ببرلين حتى صاح إميل :

— والآن ! ... حان الوقت لتأتى معى إلى المنزل .

فأجاب سانين :

— لا ، فالوقت ما زال مبكرا .

وأقبل عليه إميل ملاطفا وقال :

— بل لنذهب . وسنمر أولا بمكتب البريد لإيداع رسالتك ، ثم نتوجه منه إلى دارنا . وكم ستسر جيا لرؤيتك !! وهناك سنفطر معا... وستتاح الفرصة للتحدث إلى أمى عن مستقبلى .

— لا بأس ، ما دام الأمر كما تقول . وخرجا معا .

— ١٠ —

بدا السرور على جيا حقا عندما رأت سانين ، وحيته فراو لينور ببشاشة ومودة . وكان من الواضح أنه أحدث فى نفسيهما أثرا طيبا أثناء زيارته لهما فى اليوم السابق . وجرى إميل ليصدر أمره بإعداد طعام الإفطار بعد أن أسر فى أذن سانين :

— أرجو ألا تنسى ...

وقد أجاب سانين :

— لن أنسى .

لم تكن فراو لينور على حالتها الطبيعية . كانت تشكو الصداع ، فجلست مسترخية فى كرسى وثير ، معتزمة أن تظل فيه بلا حراك . وارتدت جيا حلة زرقاء وشدت وسطها بنطاق أسود من الجلد . وكانت تبدو هى الأخرى متعبة . فهناك مسحة من الشحوب كانت تشوب وجهها ، وخطوط

سود تمتد أسفل عينيها (ولو أنها لم تنل من بريقهما) بيد أن مسحة الشحوب حاطتها بغموض أكسب ملامحها الكلاسيكية الجادة رقة ولطافة ، أما الجديد الذى أدهش سانين فى ذلك اليوم فهو جمال يديها الرشيقتين ، فهو لم يستطع أن يبعد نظره عنهما حين رفعتهما إلى رأسها لتصلح دوائبها الملفوفة ، وظل يتأمل أصابعهما الطويلة الرخصة ، الدقيقة المفاصل ، الشبيهة بأصابع صورة « فورنارينا » التى رسمها رفائيل .

كان اليوم حارا . وقام سانين بعد الإفطار لينصرف ، ولكن قيل له أن خير ما يفعله الإنسان فى مثل هذا الجو أن يبقى حيث هو ، فوافق على هذا الرأى وبقى . والواقع أن غرفة الدكان الداخلية التى كان يجالس فيها مضيفتيه امتازت بجو لطيف رطب ، فنوافذها كانت تطل على حديقة صغيرة تظللها أشجار السنط . وتعالى طنين النحل والزنابير المتجمعة كالجوقة الموسيقية فوق الأغصان المورقة المرصعة بعيون الزهر الزمردية . وتسرب ذلك الطنين دون انقطاع إلى الغرفة من خلال نوافذها الضيقة الفتحات ، وكأنما كان يذكر الجالسين بالحر المتقد خارج الغرفة ، فيزيد جوها الرطب المظلل المريح إنعاشا .

وتحدث سانين طويلا مثلما فعل فى اليوم السابق ، ولكنه لم يتحدث هذه المرة عن روسيا والحياة الروسية . فقد أراد أن يحقق رغبة صديقه الصغير الذى أرسلته أمه بعد تناول الإفطار إلى هركوبر ليتمرن على عمل مكتبات البيع ... أراد أن يرضى ذلك الصديق الصغير لحول المناقشة

إلى موضوع الفن والتجارة ، والمقارنة بين ميزاتهما وعيوبهما . ولم يدهشه أن تقف فراو لينور موقف المؤيد لاحتراف التجارة فقد توقع منها ذلك ... ولكن چيا انحازت لأمها كذلك .

قالت الأم وهى تومىء بيدها فى قوة تأكيدا لرأيها :

— لا بد لك أن تصل إلى قمة الفن فيما إذا أردت أن تصبح فنانا ، أو بالأحرى مغنيا ، ولا نجاح بغير ذلك . فهل من ضمان للوصول إلى ذلك ؟

واشترك پانتاليونى فى المناقشة . (وكان طول خدمته للأسرة ، وتقدم سنه ، يبيحان له الجلوس فى حضرة سيدته ثم إن الإيطاليين لا يعيرون بطبعهم اهتماما للرسميات) وانحاز بكليته إلى جانب الفن . والحق إن الحجج التى أدلى بها تأييدا لوجهة نظره كانت ضعيفة . فقد بدأ حديثه مشيرا إلى أن أهم ما يتطلبه الفن أن تنطوى جوانح الفنان على « نوازع معينة تابعة من الإلهام » . وقد أجابته فراو لينور بأن جوانحه هو نفسه كانت لا بد منطوية على مثل تلك النوازع ... ومع ذلك ...

فأجاب پانتاليونى بخشونة :

— لقد كان لى أعداء .

— وكيف تثق « سيادتك » بأن إميل لن يكون له أعداء حتى فيما إذا ظهر أن جوانحه تنطوى فعلا على تلك النوازع التى ذكرتها ؟

وكانت كلمة « سيادتك » قد انزلقت من فم السيدة بالسهولة التى ينطق بها الإيطاليون .

وأجاب پانتاليونى غاضبا :

— حسنا ... اجعلى منه بائعا متجولا . ولكن جيوفان باتيستا ما كان ليوافق على مثل هذا التصرف لو أنه بقى على قيد الحياة ... مع أنه هو نفسه بائع حلوى ...

— كان زوجى رجلا معقولا — رغم أنه كان عنيدا فى صباه ...

ولكن الشيخ الهرم أبى أن ينصت إلى قولها وخرج من الغرفة وهو يكرر قوله فى لهجة عتاب :

— آه ، ياجيوفان باتستى ! ... ياجيوفان باتستى ! ...

وقالت چيما إنه لو كان أخوها يشعر بدافع وطنى يدفعه إلى تسخير جهوده فى تحرير إيطاليا من ربقتها لأصبحت تضحيته بمستقبله لتحقيق مثل هذه الغاية السامية مقبولة معقولة . أما التضحية بمستقبله فى سبيل المسرح فلا . وعند ذلك بدت على فراو لينور دلائل القلق والاضطراب وتوسلت إلى ابنتها ألا تضلل أخاها بمثل هذه الآراء . وعليها أن تكتفى هى باعتناقها ، وبالتحمس للنظام الجمهورى . وما كادت تنطق بهذه العبارات حتى أخذت تتأوه وتشكو الصداع الذى يوشك أن يفجر رأسها . وكانت تتحدث بالفرنسية ، رعاية للزائر الذى لا يجيد الإيطالية .

وأقبلت جيا على أمها تعتنى بها ، وتمسح جبينها بلطف (بعد أن بللته بماء الكولونيا) ، وتقبل وجنتيها ، وتمهد الوسادة تحت رأسها ، وتطلب إليها الامتناع عن الكلام ، ثم تعود فتقبلها . ثم التفتت إلى سانين ، وأخذت تحدثه عن أمها بصوت طروب ، ولو أنه ينم فى نفس الوقت عن انفعالها الحقيق ، وتشرح له أية أم مدهشة هى !! . وأى جمال كانت تتحلى به ! ! ... ثم استدركت قائلة :

— ولكن ، لماذا أقول : «كانت تتحلى به ؟ ؟ ... إنها جميلة الآن كما كانت من قبل ... انظر إليها . أنظر إلى عينيها ، فكم هما جميلتان ! ! ...

وأخرجت منديلا من جيبها بسرعة ، وحجبت به وجه أمها ثم أخذت تجذبه من طرفه إلى أسفل شيئا فشيئا فظهر جبين أمها ثم حاجباها ، ثم عيناها وسألت أمها بعد لحظة أن تفتح عينيها ففتحتهما . وأطلقت جيا عند ذاك شهقة إعجاب . (وكانت عينا فراو لينور جميلتين حقا) . وحسرت الفتاة المنديل فجأة عن الجزء الأسفل من وجة أمها ، وكان هو الجزء الأقل تناسقا ، وانكفأت عليها تقبلها من جديد . وقابلت فراو لينور ألاعيب ابنتها بالضحك ، ودفعتها عنها بعنف مصطنع ، وتصنعت جيا كذلك مقاومتها لأمها ، بيد أنها كانت فى نفس الوقت تداعبها ، لا على الطريقة الفرنسية الشبيهة بمداعبة القطط ، ولكن على الطريقة الإيطالية الرشيقة التى تنطوى على قوة العاطفة .

وأعلنت فراو لينور آخر الأمر أن التعب أنهكها . فنصحتها جيا أن

تغفو غفوة قصيرة وهى مستلقية على مقعدها ووعدت أن تظل هى و« السيد الروسى » صامتين ساكنين « كفأرين صغيرين » . وأجابت السيدة بابتسامة ، وأغمضت عينيها ، واستسلمت للنوم بعد أن تنهدت مرة و مرتين . وسقطت جيا فى كرسيها الملاصق لمقعد أمها ، وانكمشت فيه دون حراك — إلا إذا استثنينا وضعها لإصبعها على فمها حينا بعد حين ، إمساكها بيدها الأخرى الوسادة الموضوعة تحت رأس أمها ، وترديدها صوت التحذير : « شيش ... شيش » مصوبة نظراتها إلى سانين كلما هم بأية حركة . وأخذ سانين نفسه يهوم كذلك بعد أن طال جلوسه متخشبا كالمسحور ، محدقا بإعجاب فى اللوحة المعلقة أمامه ... وكانت الغرفة الضعيفة الضوء ، المشرقة بلألاء الورود الحمر المطلة ، وهى متفتحة الأكمام ، من أوعية خضر أثريه . وهذه السيدة المستسلمة للنوم وقد ثنت ساعديها فى تواضع ، وأشع وجهها الكريم المجهد فوق الوسادة الناصعة البياض التى كانت له بمثابة إطار ... وهذه الصبية اليقظة الحساسة ... لكم هى رقيقة حكيمة نقية خارقة الجمال ! ! . وعيناها الواسعتان ! ... ياعمقهما ! ! ويا لسوادهما ! ! ... كانتا تومضان رغم الظلال المحيطة بهما ... كان كل هذا غريبا ! ... أكان حلما ؟ ! ... أكان أسطورة ؟ ! ... وكيف وجد سانين نفسه هنا ؟ ؟ ! ...

— ١١ —

دق جرس الباب الخارجى ، ودخل الدكان فلاح شاب يرتدى سترة

حمراء ويغطى رأسه بقبعه من الفرو . ولم يكن قد جاء عميل قبله منذ الصباح . ولاحظت فراو لينور أثناء تناول طعام الإفطار ذلك الركود ، فقالت لسانين وهى تتنهد : « انظر أى نوع من التجارة نمارسه ؟ » وهى لم تشعر بدخول أول عميل إذ كانت مستسلمة لنوم هادىء . وعجزت جيما عن الحراك لأنها لم تتمكن من سحب يدها الموضوعة تحت وسادة أمها . فهمست فى أذن سانين :

— اذهب واقضى طلب العميل نيابة عنى .

وخرج سانين إلى الدكان على أطراف أصابعه . وطلب إليه الشاب ثلاث أوقيات من أقراص النعناع .

وسأل سانين بصوت أشبه بالهمس من خلال الباب :

— أى ثمن أتقاضاه ؟

فأجابته جيما بمثل صوته :

— خمسة كروتزات .

ووزن سانين ثلاث أوقيات من الأقراص المطلونة ، وبحث عن ورقة ، ولفها عندما وجدها على هيئة « قرطاس » ووضع فيها الأقراص فتبعثرت منه ، وجمعها ووضعها فى الورقة ثانية ، ولكنها تبعثرت من جديد . وأخيرا نجح فى مهمته . وأخذ النقود من الشاب الذى كان ينظر إليه أثناء ذلك فى دهشة وهو يضغط قبعته على صدره ... وكانت جيما الجالسة فى الغرفة الأخرى تضع يدها على فمها لتكتم الضحك .

وما كاد العميل الأول ينصرف حتى جاء عميل آخر . وقال سانين لنفسه : « لا بد أن وجودى قد جلب لهم الحظ » . وكان طلب العميل الثانى كوبا من عصير الفاكهة . وجاء عميل ثالث فطلب ست أوقيات من الحلوى . ولبى سانين طلبات العملاء فى غيرة على العمل . وتعالى رنين الملاعق والأطباق ، وهو يمسك بعضها ، وينقله من مكان إلى آخر ، ويدس أصابعه فى مختلف الأوعية . وظهر له وهو يراجع الحساب أنه تقاضى فى نظير كوب العصير ثمنا أقل من سعره . ولكنه فى مقابل ذلك تقاضى ثمنا أعلا فى نظير الحلوى . ولم تستطع جيما كتمان ابتهاجها وشعر سانين كذلك بسرور غير مألوف ، وبفيض عارم من الحيوية والانتعاش . وخيل إليه أنه يستطيع الوقوف إلى مالا نهاية وراء منصة البيع . ملبيا طلبات العملاء ، بينما ترعاه تلك المخلوقة الفاتنة وتسترق إليه النظر من وراء الباب بعينيها المتلألئتين سخرية صدوقة ، وبينما تتسلل خيوط شمس الصيف خلال أفرع الأشجار الكثيفة الملاصقة للنافذة ، وتعكس فى الغرفة أشعة الظهيرة ذهبية مخضوضرة ، وظلال الظهيرة خفيفة شفافة ... وأحس تراخيا معسولا يدب فى حناياه ، وفرحا لا يعكره وسواس ... أحس ثورة الشباب الأولى تغمره ...

وطلب العميل الرابع قدحا من القهوة ، ، واستدعت الحالة مجىء بانتاليونى ليتولى العمل (ولم يكن إميل قد عاد بعد من متجر هر كاوبر) وارتد سانين إلى الغرفة ، وجلس ثانية إلى جوار جيما التى كانت راضية

كل الرضا لاستغراق فراو لينور فى النوم . وقد قالت لجليسها : « إن النوم يتشرب صداع أمى » وكانت تتحدث همساً بالطبع ، وحدثها سانين همسا كذلك عن « صفقات البيع » التى عقدها . . . وأخذ يذكر أثمان الأصناف الموجودة بالمحل متخذا سيماء الجد ، وجارته هى فى ذلك وطفقت تسابقه فى ذكرها ، جادة كذلك ، واشترك كلاهما فى إخفاء ضحك باطنى ، وانهمكا فى ذلك كأنهما يمثلان دورين مضحكين فى ملهاة مسلية . وجلجلت فى الشارع على حين فجأة آلة موسيقية من ذلك النوع الذى يدار باليد ، ورددت مقطوعة « دورش دى فيلدر » من أوبرا « در فرايشوتس » ، وتصاعدت منهـا النغمات نائحة مولولة ، ومزقت هدأة الصمت المخيم . ففزعت جما وصاحت : «سيوقظون أمى» ، واندفع سانين على الأثر إلى الشارع ، ونفح الرجل الذى كان يدير تلك الآلة بضع درهمات ، وحمله على الكف عن العزف ، وعلى الابتعاد بآلته . وعندما عاد إلى جما شكرته بإيماءة خفيفة . . . ثم أخذت تهمهم — وعلى ثغرها ابتسامة حزينة — أغنية الموسيقار « ويبر » التى يصف فيها ، على لسان «ماكس» ، وهو القائم بدور العاشق ، أحاسيس الحب الأول العجيبة . وصمتت جما لتسأل سانين عما إذا كان يعرف تمثيلية « در فرايشوتس » الغنائية ويعجب بملحنها « ويبر » ؟ وأضافت أنها تفضل هذا النوع من الألحان على ما عداه ، رغم أنها إيطالية . . . وتدرج الحديث من « ويبر » إلى الشعر والرومانسية ، وإلى هوفمان الذى كانت كتبه واسعة الانتشار فى ذلك الحين .

وظلت فراو لينور نائمة ، بل لقد كانت تردد شخيراً خفيفا ، واخترق ضوء الشمس فتحات النوافذ الضيقة متسللا فى خيوط رفيعة لا ترى ، ولكنها لا تتقطع ، وانساب على الأرض والأثاث وثوب جما وأوراق الورود المطلة من أوعيتها .

(١٢)

كان واضحا أن جما لم تكن معجبة بالكاتب هوفمان ، بل إنها كانت تجده مملا . فطابع الأمم الشمالية الغالب على قصصه ، ذلك الطابع المغرق فى الغموض وضلال الأوهام ، كان غريبا على طبيعتها المشرقة كبلادها الجنوبية . وقد قالت عن قصصه هذه فى سخرية ظاهرة : « إنها حكايات خرافية ليس إلا . . . كتبها مؤلفها للأطفال » وكانت لديها كذلك فكرة عن خلو مؤلفات هوفمان من الروح الشعرية . إلا أن هناك قصة واحدة من قصصه مالت إليها ، وقد نسيت اسمها ، وعند ما فكرت فى موضوعها وجدت أنها لا تعرف إلا أوله ، وأنها لا تذكر ما إذا كانت نسيت آخره أو أنها لم تقرأه أصلا . أما ماتذكره من ذلك الموضوع فهو أن فتى التقى مرة بفتاة فى . . . نعم ، فى دكان لبيع الحلوى ... وكان هناك شيخ هرم غامض شرير يحوم حول الفتاة ، وعلق الفتى من أول نظرة بحب تلك الفاتنة التى ما فتئت ترمقه بنظرات مستعطفة ، متوسلة أن ينقذها من الشر المحدق بها ، ولكن الفتى تغيب بعض الوقت لأمر من الأمور ، وعند ما عاد إلى دكان الحلوى لم يجد الفتاة والشيخ الذى يلاحقهـا .

فاندفع إلى مختلف الجهات بحثا عن حبيبته وخاطفها وكثيراً ما كان يقف على أثرهما وهو يتعقبهما ، ولكنه لم يستطع ، رغم كل ما بذله من جهد ، أن يلحق بهما . لقد فقد حبيبته إلى الأبد ، ولكنه لم يستطع قط أن ينسى نظراتها التى كانت تناديه متوسلة ، وظل يعانى ألوان العذاب بفكرة أن السعادة كانت متاحة له فتركها تفلت من بين أصابعه .

لم تكن هذه هى النهاية التى وضعها هوفمان لقصته . ولكن هكذا تصورتها چيا ، أو هكذا رسخت فى ذهنها . وقد قالت بعد أن أتمت سردها :

— أعتقد أن مثل هذا اللقاء ومثل هذه الفرقة يتكرر وقوعهما فى الحياة أكثر مما نتصور .

وظل سانين صامتا لا يجيب ، ولكنه حول الحديث بعد حين إلى هر كاوبر ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتحدث فيها عنه ، والواقع أن هذا الرجل لم يخطر على باله حتى هذه اللحظة . وجاء دور چيا فى الركون إلى الصمت ، وأخذت تحدق فى ظفر إصبعها الوسطى ، مستغرقة فى التفكير ، متحاشية النظر إلى جليسها ، ولكنها سرعان ما اندفعت فجأة فى الكلام مقرظة خطيبها ، ذاكرة الرحلة التى أعدها لهم . . . واختلست نظرة سريعة إلى سانين ، ثم لاذت بصمتها العميق .

وأجهد سانين ذهنه ليجد قولا يقوله . وفى هذه اللحظة اقتحم إميل الغرفة ، فأيقظت جلبته فراو لينور . ووجد سانين فى مجيئه خلاصا من ورطته .

ونهضت السيدة من مقعدها — ودخل پانتاليونى ليخبر الحاضرين أن الغداء معد . لقد كان هذا الشيخ الذى تصله بتلك الأسرة صلة الصداقة ، والذى كان فيما مضى مغنيا بمسرح « الأوبرا » . ثم خادما للأسرة . . . كان هذا الشيخ يقوم بوظيفة طاهى الأسرة كذلك . . .

— ١٣ —

بقى سانين مع مضيفتيه بعد تناول الغداء . وكانت شدة الحر هى نفس الحجة التى لجأت إليها السيدتان لاستبقائه . وعندما أقبل العصر ، وتحسن الجو ، دعتاه إلى تناول القهوة معهما فى الحديقة تحت ظلال شجر الطلح .

وقبل الدعوة على الفور ، وشعر بنعمة السعادة . إن مجرى الحياة المتشابه المتراخى يشتمل دائما على فتنة قاهرة محتجبة بين طياته ، وقد وجد سانين تلك الفتنة فاستسلم لها مغتبطاً دون أن يتطلب منها فى يومه لبانات معينة ، ودون أن يفكر فى أمسه ، أو يهتم بغده . كان مجرد جلوسه إلى جانب فتاة مثل چيا مغنما كبيرا ... فهو لن يلبث أن يفارقها ، وأغلب الظن أنه لن يلتقى بها أبدا ، فظروفه أشبه بظروف قصة « أو هلاند » الشعرية . فقد جاء فى تلك القصة أن القارب السحرى حمل راكبيه إلى حيث هدأ مجرى الحياة ، وانساب كالنهر الهادىء ، فأصبح كل ما يحيط بالقارب جميلا فى نظر راكبيه السعداء .

عرضت فراو لينور على سانين أن يلعب معها « الورق » . وشرحت

له ال « تريسق » ، وهى لعبة إيطالية غير معقدة . وبلغ ربحها منه بعد الانتهاء من اللعبة بضعة دراهم ... وقد أثلج ذلك صدره . ووضع باتاليونى الجرو « تارتاجليا » بين ساقيه إذعانا لطلب إميل ، وأطلقه فقفز الجرو فوق عصا وضعت أمامه ، وطفق يتكلم (أى ينبح ويعطس محاكيا الكلام) ويغلق الباب بأنفه ، ويجلب حذاء سيده بين أسنانه . وأخيرا وضعت له فوق رأسه قبعة عسكرية محلاة بالريش ، وبدأ فى تمثيل دور الماريشال برنادوت وهو يواجه نابليون ، ويتلقى منه وابلا من اللوم والتقريع على خيانته . ومما لا يحتاج إلى ذكر أن باتاليونى هو الذى قام بتمثيل دور نابليون . وقد أداه فى الحق على خير وجه . كان يضع قبعة مثلثة الشكل على رأسه ، ويخفى بها جبهته إلى قرب حاجبيه ، ويصلب ذراعيه على صدره . ويغلظ فى القول للماريشال برنادوت متحدثا بالفرنسية ... وأى فرنسية تحدث بها ! ! ... وجلس الجرو القرفصاء أمام قدمى سيده . وأنصت له مرتبكا وقد انكمش ذنبه بين ساقيه ... ونظر إلى نابليون من تحت قبعته العسكرية المائلة فوق رأسه ، وطرفت عيناه الحاويتان شعورا منه بالذنب . وكان يغمى على أدباره كلما اشتط نابليون فى حملته عليه . وختم الإمبراطور شتائمه صائحا : « أيها الخائن النذل ! » وأفلتت منه هذه العبارة فى لغة إيطالية دارجة ، إذ أنسته حماسة الموقف أنه سيد فرنسا ، وأن من واجبه رعاية جنسيته الفرنسية إلى النهاية ... وجرى برنادوت فاختبأ تحت المقعد . ثم ظهر ثانية وهو ينبح طربا كأنما يريد أن يعلن للحاضرين أن التمثيل قد

انتهى ... وأغرق الحاضرون فى ضحك صادر من صميم القلب . إلا أن أحدا منهم لم يضحك مثل سانين .

كان لجيما ضحكة مستطيلة لطيفة يتخللها رنين شائق يعلو أحيانا ... آه ما أرق تلك الضحكة ! ! ... إن رنينها وحده كان يغرى سانين بتقبيل تلك المخلوقة الفاتنة ...

وحل المساء فى النهاية ، وحان وقت انصراف سانين . فكرر تحياته مرارا . وردد لكل فرد على حدة قوله « إلى الغد » ، (وقبل إميل بالطبع) وعاد إلى فندقه مصطحبا صورة الغادة الفتية التى تبدو ضاحكة ، فساكنة هادئة ، فمستغرقة فى التفكير على التوالى ... إلا أنها كانت فى جميع تلك الحالات جذابة فاتنة . أما عيناها اللتان كانتا فى بعض الأحيان تنفتحان واسعتين براقتين مرحتين كالصباح المشرق ... وتقبعان أحيانا أخرى فى ظل رموشهما ، عميقتين فى لون الليل القاتم ... كانت هاتان العينان تمثلان أمامه دون انقطاع ، وتحجبان عنه ماعداهما من الأخيلة والخواطر على نحو ممتع غريب ...

وأما عن هر كلوبر ، وعن دواعى بقائه فى فرنكفورت ، وعن كل ما كان يقلق باله فى اليوم السابق ، فإن شيئا من كل ذلك لم يعد يخطر له على بال ...

— ١٤ —

بيد أن الوقت قد حان لنقول كلمة أو كلمتين عن سانين نفسه .

كان قبل كل شيء فتى فى مقتبل العمر شديد الجاذبية . أما من ناحية شكله فكان فارع الطول ، لطيف الملامح (ولو أن ملامحه لم تكن محددة واضحة) ، أزرق العينين ، ذهبي الشعر ، أبيض اللون (كان بياضه مشربا بالحمرة) . وكان الأهم من كل ما تقدم تعبير وجهه . كان هذا التعبير يدل على البساطة وخلو البال ، والصراحة التى تبدو لأول وهلة بلهاً ... كان أشبه بالتعبير الذى تميز به أولاد الأسر الكبيرة فى الأيام الخوالى . فكنت لا ترى الواحد منهم حتى تميزه على الفور فتقول : هذا هو « الفتى المدلل» (دلوعة أبيه) . ومجمل القول أن سانين كان شابا يافعا ظريفا ، نما وترعرع فى ولاياتنا الشاسعة بين الغابات المتناثرة فى منحدرات ال «ستيبى» . كانت خطوته وئيدة ، ولسانه يلثغ فى نبرات عذبة، فإذا جلس إلى من يتفق معهم فى المشرب علت ثغره ابتسامة الأطفال ... ونختم ما تقدم بالإشارة إلى نضارته وحيويته وموفور صحته ، ثم إلى ما هو أهم من ذلك كله ... إلى عذوبة خلقه الطاغية على ما عداها ... وبذلك تكونون قد عرفتم سانين .

أما صفاته التى تأتى فى المرتبة الثانية فهى أنه لم يكن مغفلا ، وأنه نال قسطا غير يسير من المعرفة، واحتفظ بنضارته رغم كثرة حله وترحاله ، ولم يكابد إلا القليل من عذاب الهواجس التى لم يسلم منها حتى خيرة شباب هذه الأيام .

بذل كتابنا جهودهم سدى فى البحث عن طراز جديد من الشخصيات لقصصهم . وقد عمدوا أخيراً إلى تصوير الشباب الذى يبذل ما وسعه ليحتفظ بنضارته وجدته . ولكن جدة شباب قصصهم كانت لا تختلف عن

جدة الأصداف والأسماك التى تأتى إلينا من بطر سبورج ! ! بيد أن سانين لم يكن يشبه واحداً من هؤلاء الشباب . وما دمنا فى معرض المقارنة والتشبيه فنستطيع أن نشبهه بشجرة تفاح انبثقت من أرض روسيا الخصبة ، وبلغت أوج شبابها وقوتها ونضرتها — أو نشبهه بمهر فى سن ثلاث سنوات، نشأ وترعرع فى حظيرة قصر من قصور الأشراف ... مهر معتنى بتغذيته وتنشئته ، ضخم المفاصل ، ممتلىء الهيكل يوشك أن يصبح جواداً ...

وعندما رأى الناس سانين بعد أن عصفت به الأيام ، وذبل فيه ريعان الشباب ، رأوا رجلا مختلفا عن أصله كل الاختلاف .

* * *

وفى صباح اليوم التالى بينما كان سانين لا يزال فى فراشه ، اقتحم إميل عليه الغرفة وهو فى أتم زينته — كان يرتدى سترة أنيقة ، ويمسك بعصى. ولم يفته حتى أن يعتنى بشعره ، فلينه بالدهان ومشطه — قال وهو يلهث إن هركاوبر سيمر بالعربة بعد دقائق ، وإن الجميع أعدوا أنفسهم للرحلة ما عدا (ماما) التى تشعر اليوم كذلك بصداع . وقد استحث سانين على أن يعد نفسه هو أيضاً بسرعة ، مؤكداً أنه لم يبق أمامه أى متسع من الوقت لإضاعته هدراً . وحدث بالفعل أن وصل الهركلوبر بينما كان سانين لم يفرغ بعد من ارتداء ملابسه . لقد طرق الرجل الأنيق الباب طرقا خفيفا ، ودخل الغرفة ، وانحنى مطأطئاً رأسه ، وأظهر استعداده للبقاء ما شاء له سانين أن يبقى . وجلس فى أحد الكراسى متأدبا واضعاً

قبعته على ركبتيه . وكان موظف المتجر قد اعتنى بهندامه إلى حد مبالغ فيه ، وأسرف فى التطيب إلى درجة أن رائحة الطيب كانت تفوح قوية على أثر كل حركة يأتى بها . وكان قد جاء فى عربة مكشوفة من ذلك النوع الذى أطلق عليه اسم (لاندو) تقديرا له وتفخيما ولم يكن الجوادان المشدودان إلى العربة جميلى المنظر ، ولكنهما كانا طويلين شديدى البأس.
ولم يمض غير قليل حتى كان سانين وهركاوبر وإميل فى العربة وهى تتبختر بهم فى أبهة ، مخترقة الشوارع إلى دكان الحلوى . ورفضت فراو لينور بشدة أن تشاركهم فى الرحلة . وأرادت جيما أن تتخلف هى الأخرى لتبقى مع أمها ولكن هذه الأخيرة دفعتها إلى خارج الدكان قائلة :

— أنا لست فى حاجة إلى صحبة أحد لأنى سأستغرق فى النوم . ولم يكن هناك ما يمنع حتى ذهاب بانتاليونى معكم لولا حاجة الدكان إليه .

وسأل إميل أمه :

— أتسمحين أن نأخذ تارتاجليا معنا ؟ . .

— بالطبع .

وتسلق الجرو العربة على الأثر ، وجلس فى مقعدها الأمامى ، وطفق يلعق جنبيه طروبا . ولم يخف أنه كان معتادا مثل هذا النوع من الرحلات.
وكانت جيما تضع على رأسها قبعة كبيرة من القش حاشيتها مضفرة بشريط سنجابى اللون ، ومقدمتها مائلة إلى أسفل لتقى وجه الفتاة حرارة الشمس.
ووصل ظلها إلى شفتين حمراوين فى لون الورد الرقيق ، منفرجتين

عن أسنان بيض تومض فى حياء كحياء الأطفال ...

جلست جيما فى مقعد العربة الخلفى إلى جانب سانين ، وجلس كل من هركاوبر وإميل أمامهما . وظهر وجه فراو لينور الأبيض فى النافذة ، فدارت جيما صوب أمها ، ولوحت لها بمنديل ... وركض الجوادان خببا . .

— ١٥ —

« سودين » هذه بلدة صغيرة تبعد قليلا عن فرانكفورت ، وتقع على قمة جبال « تونوس » . وهى معروفة فى روسيا بمياهها المعدنية التى يقال إنها علاج مفيد لأمراض الصدر . أما سكان فرانكفورت فيقصدونها على الأغلب للتسلية . فهى تفاخر البلاد الأخرى بحدائقها الغناء المليئة بالمقاهى المنثورة فى الهواء الطلق، حيث ينعم روادها باحتساء الجعة والقهوة فى ظل أشجار الزيزفون المهدلة الأغصان . وتسير الطريق المؤدية إليها جنبا إلى جنب مع نهر « الماين » مزينة الجانبين بأشجار الفاكهة . وأخذ سانين يمتحن العلاقة بين جيما وخطيبها بينما كانت العربة تصعد بسهولة فى تلك الطريق البديعة . وكانت هذه أول مرة يتاح له فيها أن يرى الخطيبين مجتمعين . رأى جيما تلتزم الهدوء والاحتشام ، إلا أنها كانت أشد تحفظا وجدا من العادة . وكان خطيبها يلاحقها بنظرات الوصى المتساهل ، فيسمح لها ولنفسه بين وقت وآخر، بقدر يسير من الاستمتاع المؤدب الذى لا يضير . ولم يلاحظ سانين عليه أنه يحيط خطيبته برعاية خاصة أو

« بحرارة » على حد تعبير الفرنسيين . وكان واضحا أنه يرى ارتباطه بها أمرا مفروغا منه ، فلا داعى إذن للتحمس أو للتظاهر المصطنع ! . . بيد أنه لم يكن يكف لحظة عن تعطفه المعتاد ! ! . . بل إنه كان ينظر إلى الطبيعة أثناء تنزه الجميع بين المنحدرات والوديان المعشوشبة قبل الغداء ، واستمتاعهم بجمال المناظر المحيطة ببلدة « سودين » ... كان ينظر إلى الطبيعة بتلك النظرات المتحفظة !.. ويعاملها بذلك التعطف والتنازل!!.. بل إنه كثيرا ما كان يصاب وقتذاك بنوع من صرامة العمل الرسمى !!.. فيأخذ فى نقد مناظر الطبيعة ، ويقترح ما يجب إدخاله عليها من تعديل ! ! ومن أمثلة ذلك انتقاده لجدول رآه يجرى فى خط مستقيم بدل أن يتعرج فى جريانه فيكسب المناظر الطبيعية التى يمر بها رواء وحيوية ! ! . . وقد ضاق كذلك بعصفور يغرد لأن تغريده كان رتيبا مملا ! ! ... ولم تبد على جيما علامة من علامات التبرم بل كان يبدو عليها الانشراح . ولكن سانين لم يرها كما اعتاد أن يراها من قبل . وما ذلك لأن ملامحها تغيرت ، أو شابتها أية شائبة ، فإن جمالها كان فى عنفوان ازدهاره ... ولكن الذى بدا له أنها توارت كالقوقعة داخل نفسها ... كانت تسير بخطوات وئيدة ، وتمسك مظلتها بيدها المحتفظة بقفازها ، وتقتر فى الحديث ، وتومىء فى رزانة كما تفعل السيدات المهذبات . وبدا على إميل أنه كذلك مقيد الحرية ، وعانى سانين من وطأة تلك الحال فوق ما كانا يعانيان . وكان من بين أسباب عنائه تحدث الجميع بالألمانية . ولم يظل أحد على طبيعته غير الجرو تارتاجليا . فكان يهجم على العصافير الجاثمة فى طريقه

نابحا بكل قواه . وكان يجتاز الأخاديد وجذوع الأشجار وثبا . ويلقى بنفسه فى الماء ، ويلعق جرعات منه فى سرعة وخفة ، ثم يهز جسمه لينفض الماء عنه . ويمضى لينطلق بعد لحظة كالسهم المارق . ويمد لسانه الأحمر إلى كتفه .

ولجأ هركاوبر إلى كل وسيلة رآها ضرورية لتسلية ضيوفه . ففرض عليهم الجلوس إلى ظل شجرة بلوط نامية الفروع ، وأخرج من جيبه كتيبا بعنوان «صواريخ، أو يجب أن تضحك ، وستضحك فعلا » وأخذ يسمعهم منه نكات قاتلة ... قرأ ما يزيد على عشر نكات فلم يكد يحدث أية بهجة . وانفرد سانين ، مجاملة منه وتأدبا ، بمحاولة الضحك . أما هركاوبر فكان يتنازل فيرسل بعد انتهائه من قراءة كل نكتة ، ضحكة قصيرة كأنها من « أصول المهنة » . وعاد الجمع عندما انتصف النهار إلى سودين حيث قصدوا أفخر مطاعم البلدة .

وحان ميعاد الغداء ...

واقترح هركاوبر أن يتناولوا الطعام فى غرفة خاصة ، ذات حوائط زجاجية . ولكن جيما لم تسمع اقتراحه حتى فاجأت الجميع بتمردها عليه ، وقالت إنها لن تتناول غداءها إلا فى الهواء الطلق ، فى قلب الحديقة ، على إحدى تلك الموائد الصغيرة المجاورة للمقصف . فقد سئمت النظر إلى نفس الوجوه التى اعتادتها ، واشتاقت إلى مطالعة وجوه جديدة . وكان بعض الرواد قد احتلوا عددا من تلك المقاعد .

وتفضل هركلوبر فأذعن « لنزوة خطيبته » ، وتوجه إلى الساقى ليتفاهم معه على التفاصيل المتعلقة بإعداد الطعام . وظلت چيا فى مكانها بلا حراك ، مسبلة الجفنين ، مطبقة الشفتين . وشعرت بعينى سائحين مصوبتين إليها ... متسائلتين مستفسرتين ، وبدا أنها ضاقت بذلك .

وجاء هركلوبر فى النهاية معلنا أن الطعام سيقدم إليهم بعد نصف ساعة . واقترح على ضيوفه أن يزجوا الوقت بلعبة « الكرة والأوتاد » وأضاف أن انهماكهم فى اللعب سيضاعف شهيتهم للأكل ... وضحك ضحكة جافة مقتضبة ! وكان يجيد تلك اللعبة . كان وهو يتهيأ لقذف الكرة الخشبية يقف وقفة بطولية ، ثم يحرك ساعديه ، مبرزا عضلاته ، ويرفع يده برشاقة ، وهو يقف على قدم واحدة ، ويحاول حفظ توازنه ... كان رياضيا على طريقته ... وكان متين البنيان . بيد أن يديه كانتا غاية فى جمال التركيب ونقاء اللون ! .. وبلغ من عنايته بهما أنه كان يمسحهما كل حين بمنديل حريرى من واردات الهند، مزين برسوم شرقية .

وحان ميعاد الغداء . وسار الجمع فى طابور إلى المائدة ...

(١٦)

ومن ذا الذى يجهل الغداء الألمانى ؟ .. حساء أشبه بالماء العكر ، مملوء بمسحوق القرفة والزلابية ... ثم شرائح مسلوقة من اللحم البقرى ، جامدة كالفلين .. وحلقات رفيعة من البطاطس ...

وأخرى من البنجر المترهل ، والفجل المجعد .. ثم ثعبان البحر الشائه الشكل واللون ، الغارق فى الخل . ثم التحلية المعتادة ، وهى المربى والثريد المحلى بدبس قرمزى . ولم يكن هناك ما تطيب له النفس غير الجعة والنبيذ . بيد أن الساقى زعم أنه أتحف عملاءه بغداء فخم .

ومرت الأمور على نحو لا بأس به ، بيد أن البهجة كانت فى الواقع تنقص الحفلة . ولم يبد دليل على انشراح القوم حتى حين رفع هركلوبر كأسه وشرب نخب « من يخصهم بحبه » ... لكن كان كل ما يتعلق بالحفل متصفا بالحشمة والكمال !! ... ودارت على الجمع أقداح القهوة بعد الغداء ، وكانت هى الأخرى لا تختلف عن القهوة الألمانية المعتادة ، كانت أيضا كالماء العكر ... واستأذن هركلوبر خطيبته ، كما يفعل الرجل المهذب ، فى تدخين لفافة من التبغ ... ولكن حدث على حين فجأة حادث غير متوقع ، حادث ينغص الخاطر ... بل حادث معيب .

كان بعض ضباط حامية « المين » يجلسون حول مائدة مجاورة . وظهر من نظراتهم وهمساتهم أن جمال چيا أحدث أثره فى نفوسهم . وأطال أحدهم النظر إليها كما لو كان يعرفها من قبل ، ولعله من سكان فرانكفورت أصلا ، أو لعله مر بتلك المدينة . ولم يلبث أن هب من مقعده ، حاملا كأسه فى يده ، وقصد إلى حيث تجلس چيا — كان يبدو أنه ابتلع كمية كبيرة من الخمر ، فالزجاجات الفارغة كانت مصفوفة

فوق مائدته — ورغم أن السكر جمد وجهه ، وألهب عينيه ، وأزاغ بصره ، فإنه كان فى الواقع فتى فى ريعان الشباب ، أشقر الشعر ، حسن الوجه جذابا . وقد حاول ندماؤه أن يثنوه عما اعتزمه ، ولكنهم تركوه وشأنه آخر الأمر . وكانوا فى الحقيقة يتشوقون إلى ما سوف تسفر عنه مغامرته .

وقف بعد مشيته المترنحة أمام چيا ، وصاح قائلا بصوت عال تدل نبراته على أنه لم ينطلق إلا بعد صراع قام بين الفتى ونفسه : « أشرب نخب أجمل بائعات الحلوى فى فرانكفورت ... بل أجملهن فى العالم أجمع . » وابتلع بقية مافى كأسه ، ثم مد يده إلى المائدة قائلا : « وإنى أوثر نفسى بهذه الوردة التى اقتطفتها أناملها الروحانية . . . » والتقط وردة كانت موضوعة إلى جانب طبق چيا التى عرتها الدهشة فى أول الأمر ، ثم غلبها الأسى وامتقع لونها . . . وتحول قلقها إلى اشمئزاز ، وتصاعد الدم مرة أخرى إلى وجهها فصبغه عن آخره ، حتى جذور شعر رأسها . وصوبت إلى المتهجم عليها نظرات كانت تتجهم أحيانا ، وتتقد أحيانا أخرى ، ثم تمتلىء كآبة وأسى ، ثم تتوهج غيظا وغضبا . . . وظهر على الضابط أن هذه النظرات أربكته وأخجلته ، فلاك لسانه تمتمة غير مفهومة ، وانحنى للفتاة ، ثم عاد أدراجه إلى رفقائه ، لحيوه بالضحك والتهليل الساخر .

عند ذلك انتصب هر كلوبر واقفا ، ووضع قبعته على رأسه ، وهو

يقول بصوت جليل الوقع ، وإن كان « غير مرتفع » النبرات : « عمل مشين ! .. تهجم مشين ... » ثم نادى الساقى فى غلظة ، وطلب منه كشف الحساب ... ولم يكتف بذلك ، بل طلب كذلك إعداد العربة للرحيل . وأضاف قوله إنه لم يعد فى استطاعة من يحترمون أنفسهم أن يحضروا إلى هذا المكان ويعرضوا أنفسهم للاهانة — وما نطق بهذه العبارة الأخيرة حتى حولت چيا بصرها إليه ، وحدجته بمثل النظرات الطويلة القاسية التى حدجت بها الضابط الذى أهانها . . . أما إميل فكان ينتفض حنقاً .

وقال هر كلوبر بنفس لهجته الخشنة السابقة :

— انهضى يا آنسة ، فهذا المكان لا يليق ببقائك فيه . لنتوجه إلى داخل المطعم .

قامت چيا مطبقة الفم ، وثنى لها ذراعه فتأبطتها ، وسار معها فى عظمة إلى داخل المطعم . وكان كلما ابتعد عن مائدة الضباط إزداد إنتفاخا وتعاظما ، وصار فى شكله وحركاته أشد عجرفة وتحديا ... وسار إميل المسكين فى أعقابهما .

وفى الوقت الذى كان هر كلوبر يحاسب فيه الساقى (وقد أبى أن ينقده حلوانا عقابا له على ما حدث ! . .) أسرع سانين إلى حيث يجلس الضباط ، ووقف أمام الضابط الذى أهان چيا ، (وكان هذا الأخير يدير الوردة فى تلك الأثناء على زملائه ليستنشقها كل منهم بدوره) وقال بلسان فرنسى مبين :

— إن ما أقدمت عليه الآن أيها السيد لا يليق بإنسان شريف ، بل لا يليق بزيك العسكرى . وقد جئت إليك لأصارحك بأنك غير مهذب.».

وقفز الضابط من كرسيه ، ولكن زميلا له يكبره سنا مد إليه يده ، وأعاده إلى مكانه ، ثم سأل سانين بالفرنسية كذلك :

— ولكن ما شأنك فيما حدث ؟ أأنت أحد أقربائها ؟ أم أنت أخوها ؟ أم لعلك خطيبها ؟ . . .

فصاح سانين :

— أنا لست إلا واحدا من معارفها . أنا روسى غريب ، بيد أنى لا أستطيع أن أقف مكتوف الأيدى إزاء مثل هذا العدوان .. . هاهى ذى بطاقتى ، وهى تشتمل على اسمى وعنوانى . ويستطيع حضرة الضابط أن يتوسل بها للقائى . . .

ورمى بطاقته على المائدة وهو يفوه بهذه الكلمات . وانتزع على الأثر وردة جيما من طبق أحد الجالسين . وحاول الضابط الشاب أن يتهجم مرة أخرى على سانين ، ولكن زميله عاد فأمسك ، وهو يقول :

— اهدأ يا دونهوف .

ووقف وحيا سانين بخشونة ، وقال له بصوت ليس فيه مسحة من الرعاية والأدب، إن أحد الضباط سيوافيه بمنزله فى صباح اليوم التالى . وأجاب سانين على قوله بانحناءة قصيرة ، وعاد مسرعا إلى رفقائه .

* * *

وتظاهر هركلوبر بانه لم يلحظ توجه سانين إلى الضباط وتحديه إليهم. وأخذ يستحث الحوذى على سرعة شد الجوادين إلى العربة ، ويبدى غضبه لبطئه فى أداء مهمته . ولاذت جيما كذلك بالصمت ، فلم توجه كلمة إلى سانين ، واكتفت بنظرة وجهتها إليه . ولكن حاجبيها المقطبين ، ووجهها المكفهر ، وشفتيها المطبقتين ، ووقفتها الجامدة دلت على مدى ما تعانى من اضطراب . وانفرد إميل بالرغبة فى التحدث إلى سانين ، والاستفسار منه على ما فعله . فقد رآه يتوجه إلى مائدة الضباط ، ويقدم لهم ورقة بيضاء ... لعلها بطاقة ! ... وترنح قلب الفتى بعنف بين جنبيه ، واشتعلت وجنتاه . وشعر برغبة فى أن يرتمى على عنق سانين وينفجر باكيا ... أو أن يذهب معه إلى أولئك الضباط المتوحشين فيمزقهم إربا ... ولكنه هيمن على أعصابه ، واكتفى بملاحظة كل حركة تصدر من صديقه الروسى النبيل .

وتم أخيرا إعداد العربة ، وركبها الجميع ، وقفز إميل إلى الكرسى الأمامى لا حقا بالجرو تارتاجليا ، وجلس إلى جوار الحوذى . وشعر فى ذلك المكان بشىء من هدوء البال لأن هركلوبر كان بعيداً عن مرمى نظره ... لقد أحس لذلك الرجل بكراهية منبعثة من صميم قلبه .

* * *

سيطر هركلوبر على الركب، وظل كذلك طوال الطريق . ولم يعارضه أحد فيما قال ، ولكن أحدا لم يوافقه عليه كذلك ، وقد بذل جهده للتدليل

على أن الخطأ الذى وقع يرجع إلى عدم الأخذ بما أشار به ، وهو تناول الغداء فى غرفة خاصة .فلو أنه نفذ رأيه لما حدثت تلك المضايقات .ثم أخذ يوجه النقد القاسى للحكومة الألمانية مستبيحا لنفسه شيئا من حرية القول. فقد أخذ عليها تسامحها مع بعض الضباط الألمان الذين يعتدون على النظام فى الوقت الذى لا تحيط فيه المدنيين برعايتها وهذا هو سبب تذمر المدنيين. بيد أنه تدارك هذا الإسراف فى نقد الحكومة، فأكد أنه يحترم النظام ، ويحترم القائمين على الحكم ، ولا تجرى فى عروقه قطرة دم ثورية ... ولكن ذلك لا يمنعه من استنكار ما لا يروقه ... ومثال ذلك ما حدث فى هذا اليوم — وطفق يردد بعد ذلك تلك العبارات المألوفة عن حسن الخلق وسوء الخلق ، وعن الشعور بالكرامة والمحافظة على الكرامة ...

وظهرت على چيما أثناء هذه الثرثرة أمارات تدل على عدم رضاها عن خطيبها . وكانت مثل هذه الأمارات تبدو عليها كذلك من قبل أثناء تجولها معه بين الوديان قبل الغداء . وهذا هو السبب الذى دعاها إلى التباعد عن سانين ، وإلى شعورها بالارتباك عند نظره إليها . كان كل ما يبدو من خطيبها يخجلها ، وقامت شواهد عدة على تمكن ذلك الخجل منها . واجتاحها عذاب نفسانى شديد الوطأة قرب نهاية الرحلة ، وظلت محجمة عن سانين لا توجه إليه كلمة واحدة . إلا أنها صوبت إليه على حين فجأة نظرة توسل واستعطاف ... أما هو فكان إشفاقه عليها يغلب على امتعاضه من هركاوبر . وكان يشعر فى قرارة نفسه ببهجة واغتباط

بكل ما حدث فى هذا اليوم رغم المبارزة التى تنتظره فى الصباح التالى .

وأشرفت « رحلة السرور » على نهايتها ، وعندما وقفت العربة بباب الدكان أعان سانين چيما على النزول منها . ووضع الوردة التى استردها من الضباط فى يدها دون أن ينبس بكلمة ، فاصطبغت وجنتاها بحمرة قانية ، وضغطت يده ، وألقت بالوردة حيثما اتفق . ولم يشأ أن يدخل معها الدار رغم أن المساء كان فى أولياته . وهى لم تعرض عليه الدخول كذلك . ثم إن پانتاليونى ظهر فى هذه اللحظة وأعلن أن فراو لينور أوت إلى فراشها، وودع إميليو سانين فى حياء ظاهر ، وبدا كأنه يتجنبه . وكان عجبه من مسلكه شديدا ... وأوصل هركلوبر سانين إلى فندقه ، وحياه دون أن ينسى مجاملاته الرسمية . ولم يستطع هذا الألمانى المتزن الشديد الثقة بنفسه أن يتغلب على قلقه وارتباكه ، وفى الحق إن الجميع كانوا فريسة القلق والارتباك .

بيد أن سانين لم يلبث أن تخلص من ذلك الشعور الذى سرعان ما حلت محله حالة من البهجة الغامضة اللذيذة ... وشرع يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ويصفر بعد أن استرد خلو باله ... لقد كان راضيا عن نفسه .

— ١٧ —

قال سانين لنفسه فى الصباح التالى وهو يرتدى ملابسه : « سأنتظر الضابط حتى العاشرة لأستمع إلى ما قرره ، فإذا تأخر عن هذا الميعاد فعليه

هو فى هذه الحالة أن يبحث عنى » ولـكن الألمان يستيقظون فى الصباح مبكرين فما كادت الساعة تدق تسع دقات حتى دخل الخادم الغرفة ليخبر سانين أن الملازم الثانى ڤون ريختر يريد مقابلته . وعندما وقعت عين سانين على ذلك الضابط دهش لصغر سنه، كان فون ريختر يبدو فى هيأة غلام ، وقد أراد أن يخلع على وجهه الصغير الذى لم ينبت فيه الشعر بعد، مظهر الوقار ، ولـكنه أخفق فيما أراد كل الإخفاق ، بل إنه لم يستطع مداراة ارتباكه . وعندما حاول الجلوس تعثر فى سيفه وكاد يقع ... تعلثم وهو يخبر سانين بلغة فرنسية ركيكة أن صديقه البارون فون دونهوف كلفه بأن يطلب إلى « الهرفون زانين » تقديم اعتذار عن الإهانة التى وجهها إليه أمس ، فإذا أبى ذلك فعليه أن يقدم الترضية المطلوبة . وأجاب سانين بأنه لاينوى تقديم أى اعتذار عما بدر منه ، ولـكنه مستعد لتقديم الترضية ... وسأله فون ريختر عندئذ عن إسم شاهده الذى يمكن أن يتم معه الاتفاق على مكان المبازة وشروطها . فطلب إليه سانين أن يعود بعد ساعتين حتى تتاح فرصة العثور على مثل هذا الشاهد ، وسأل نفسه : « ومن أين لى بالشاهد المطلوب ؟ ! ! » ووقف هرفون ريختر متهيئا للانصراف . ولـكنه تلكأ كأنما غلب عليه تأنيب الضمير ، والتفت إلى سانين وتمتم قائلا إن صديقه البارون فون دونهوف مضطر إلى أن يسلم بأن سلوكه أمس ... كان ... إلى حد ما ... جديرا بالمؤاخذة ، ولذلك فإن كلمة اعتذار رقيقة عما لحقه من إهانة تـكفيه . وأجاب سانين مرة أخرى

أنه لم يرتـكب ما يستحق اللوم ، ولذلك فهو لاينوى تقديم أى اعتذار سـواء أ كان فى صورة كلمة رقيقة أو غير رقيقة . فغمغم الضابط وهو يحمر خجلا :

— أرجو فى هذه الحالة أن تتبادلا طلقات النار بصفة ودية ...

ورد سانين :

— أخشى أن أكون عاجزاً عن فهم قصدك . أتريد أن نطلق النار فى الهواء ؟

وتلعثم الضابط وقد غلبه الخجل :

— لا ، لا ... أنا لم أقصد ذلك ... إلا أنه ... ما دمتما شريفين ... ولـكن يحسن أن أتفاهم على مثل هذه الأمور مع شاهدك ...

وتوقف عن الـكلام وخرج .

وارتمى سانين فى أحد المقاعد على أثر انصراف الضابط ، ورشق الأرض بنظراته وهو يناجى نفسه « فيم كل هـذا ؟ ! ... وأية هاوية يتجه إليها مجرى حياتى ؟ ! لقد فقدت أيامى الماضية وأيامى المستقبلة معناها فجأة ، ولم يبق ماثلا فى ذهنى إلا مبارزة سوف أقـدم عليها فى فرانـكفورت ! ! » ... وتذكر عمة مخبولة من عماته كانت تحب أن ترقص على نغمات أغنية هذه كلماتها :

أقبل ... أقبل ...

أيها الملازم العزيز ! . .

أقبل أيها الفارس ... كن فارسى ...

وجلجلت ضحكاته ، وأخذ يترنم على نحو ما كانت تفعل عمته المخبولة :

أيها الملازم العزيز !

ارقص معى ...

كن فارسى الصغير ...

وقفز من مقعده وهو يقول لنفسه بصوت مسموع :

— ولكن لابد لى من مخرج .. لابد من أن أجد الشاهد المطلوب .

وفى هذه اللحظة وجد بانتاليونى واقفا أمامه ، ممسكا بورقة مطوية ، وقبل أن يسأله عما أتى به تقدم إليه الشيخ ، وتمتم وهو يقدم إليه الورقة .

— طرقت الباب عدة مرات دون أن يجيبنى أحد ، فخيل إلى أنك خرجت ... هذه رسالة من الآنسة چيا .

تناول سانين الورقة بحركة آلية ، وفض غلافها ، وأجرى عينيه على أسطرها . لقد قالت له چيا فى الرسالة إن المسألة التى لايجهلها تقلقها قلقاً شديداً ، وإنها لذلك تريد أن تراه على الفور .

وطفق بنتاليونى يقول ، وقد ظهر أنه لايجهل فحوى الرسالة :

— إن الآنسة ... الـ « سنيوريتا » مضطربة مهمومة . وقد طلبت إلى أن أحضر لأرى ما أنت صانع ، ولأعود بك إليها .

ونظر سانين إلى الشيخ الإيطالى ، مستغرقاً فى التفكير . . وأومض

فى ذهنه خاطر فجائى بدا له فى أول الأمر مستحيل التحقيق . ولكنه عاد فساءل نفسه :

— ولكن ... لم لا ؟ ؟ . .

ثم خاطب الشيخ بصوت عال :

— أيها السيد بانتاليونى !

وجفل الرجل ، وغرس ذقنه فى رباط عنقه ، وحملق فى سانين الذى واصل قوله :

— لابد أنك تعلم ماحدث أمس ..

وتحركت شفتا الشيخ ، وضرب جبهته العريضة بيده وتمتم :

— نعم ...

وكان إميل قد أفضى إليه بكل ما حدث على أثر عودته من الرحلة .

واستطرد سانين

— آه ! أتعلم ذلك ... حسناً . . لقد حضر ضابط اليوم ودعانى إلى المبارزة ، وقبلت تحديه ... ولكن المبارزة تحتاج إلى شاهد كما تعلم ... أتقبل أن تكون شاهدى ؟

وأخذ بانتاليونى بهذا العرض . وارتفع حاجباه حتى تواريا وراء طرته المتدلية من ناصيته العريضة . وبعد برهة ذهول استطاع أن يقول بالإيطالية (وكان قبل ذلك يتحدث بالفرنسية ... وأية فرنسية ! !) :

— ألا مفر من أن تقاتله ؟ ...

— لا مفر . إذ لو أحجمت عن مقاتلته للحقنى عار لا يمحى .

— هيه ... وهل ستبحث عن شاهد آخر فيما إذا رفضت طلبك ؟...

— لا بد لى من ذلك ... بالطبع .

وخفض باتاليونى بصره وهو يقول :

— اسمح لى يا سيد سانين « سنيور زانينى » أن أسألك عن عقبى هذه المبارزة ... ألا تظن أنها ستنال من سمعة فتاة ... معينة ؟ ...

— لا أظن ذلك ... ومهما يكن الأمر ، فلا مفر من هذه المبارزة كما قلت لك .

— هيه .

وازدادت ذقن الشيخ غوصا فى رباط عنقه وأردف :

— وأين ذلك الألمانى النذل ؟ « فيروفلوكتوكلوبيريو » ماذا عنه ؟...

— هو ؟ ... لا شىء .

وهز باتاليونى كتفيه باحتقار :

— ماذا ؟ ! ... على أية حال فأنا أشعر بأن من واجبى أن أشكرك .

وصمت قليلا ، ثم أردف بصوت مضطرب :

— نعم أشكرك على معاملتك لى ، وأنا فى وضعى الراهن المهين ، كما لو كنت سيدا محترما . « أونو جالانتومو » . وهذه اللفتة منك تدل على أنك أنت السيد المحترم بحق — غير أنى رغم ذلك مضطر إلى التفكير فيما عرضته على قبل إبداء رأيى فيه .

— ولكن الوقت لايتسع للتفكير يا سيد باتاليونى سيد ... سيبا .

وأكمل الشيخ اسمه .

— تولا ... سيبا تولا . بيد أن المهلة التى أطلبها لا تتعدى ساعة أو بعض ساعة ... فإن الأمر يمس ابنة أولياء نعمتى ولا بد لذلك من أن أطيل التفكير ... أنا مضطر ... بيد أنك ستقف على رأيى فى مدى ساعة ، أو ثلاثة أرباع الساعة .

— حسنا . سأنتظر .

— والآن ؟ أى ردسأحمله للسينيوريتا جيما ؟ ...

والتقط سانين صفحة من الورق وخط فيها الكلمات الآتية :

« لا تقلقى يا صديقتى العزيزة . سأوافيك بعد ثلاث ساعات ، وسأفضى إليك وقتئذ بأخبار ما حدث . وأشكرك على عطفك » . وبعد انتهائه من كتابة هذه الرسالة سلمها لباتاليونى الذى أطبقها بحرص ، ووضعها فى جيبه الجانبى ، وتوجه إلى باب الغرفة وهو يقول :

— فى مدى ساعة .

ولكنه ارتد فجأة ، واتجه مسرعا إلى سانين ، وأمسك بيده ، وشد عليها فى حرارة وصاح :

— أيها الشاب النبيل ! أيها القلب الكبير ! اسمح لرجل ضعيف هرم . « آ أون فيكيوتو » أن يشد على يدك الجبارة : « لافورتا فالوروزا ديسترا » .

وقفز خطوة إلى الوراء ، ورفع يديه إلى أعلى . ثم توارى خلف الباب .

وتبعه سانين بنظره. ثم عاد فالتقط إحدى الصحف وحاول تصفحها ، ولكن عينيه جرتا فوق الأسطر عبثا ، فهو لم يفهم كلمة مما قرأ .

— ١٨ —

دخل الخادم على سانين بعد ساعة . وناوله هذه المرة بطاقة قديمة غير نظيفة كتب عليها : « بانتاليونى سيباتولا — من بلدة ڤاريزى — مغنى بلاط صاحب السمو دوق مودينا » . وظهر بانتاليونى فى أعقاب الخادم ... ظهر فى زى يختلف كل الاختلاف عن زيه العادى . فقد كان يرتدى سترة سوداء طويلة الذيل ، وصدارا أبيض تتدلى من جيبه سلسلة نحاسية متقنة الطلاء ، وسروالا أسود مشدودا بنطاق ذى قفل من عقيق . وكان يمسك بيده اليمنى قبعة مكسوة بوبر الأرانب ، وبيده اليسرى قفازا من صنع السويد ، وقد اختار رباطا لعنقه أطول وأعرض من سابقه ، وثبته بدبوس،فى رأسه حلية كعين القط ، وزين إصبعه الوسطى بخاتم على هيئة يدين ممسكتين بقلب طعين . وكانت ملابسه هذه تفوح برائحة كريهة كرائحة مزيج من الكافور والمسك . فياله من وقار مضطرب لا يستطيع من ينظر إليه أن يمنع نفسه من الدهشة ... وقام سانين لاستقبال زائره العجيب .

قال بانتاليونى بالفرنسية :

أنا شاهدك .

وانحنى بجسمه الأعلى حتى وسطه ، وانفرجت قدماه من أمام كما يفعل الراقصون ، وأردف بلهجة جادة .

— جئت أتلقى تعليماتك . أتنوى مواصلة القتال حتى الموت ؟ . . .

— ولم أواصلة حتى هذه النهاية المريرة يا سيد سيباتولا ؟ أنا لا أنوى أن أسحب ما قلته لذلك الضابط ، ولكنى لست مع ذلك سفاحا . صبرا ياسيدى ، فسيأتى شاهد خصمى عما قريب . وسأخلى لكما هذه الغرفة حتى تتفقا على شروط المبارزة . وثق أننى لن أنسى خدماتك أبدا ، وشكرا لك من صميم قلبى .

وأجاب بانتاليونى

— الشرف فوق كل شىء .

وجلس فى المقعد الوثير دون أن ينتظر من سانين أن يعرض عليه ذلك وأردف وهو يمزج فى حديثه بين الفرنسية والإيطالية :

— إذا كان هذا الألمانى النذل : « الفيروفلوكتو سپيكيوبيو » ... إذا كان هذا الألعبان لا يعرف واجبه ، أو إذا كان جبانا ، فالذنب ذنبه ، والعقبى السيئة له . إنه مخلوق عاطل من كل ميزة أو قيمة ... هذا كل ما فى الأمر ... أما عن شروط المبارزة فمن واجبى ، بصفتى شاهدك ، أن أعد مصلحتك مقدسة ... وأذكر أننى عندما كنت أقيم فى پادوا نشأت ألفة بينى وبين بعض ضباط فرقة عسكرية كانت مرابطة هناك . وقد عرفت منهم قواعد الشرف فى المبارزات ... وكثيرا ما ناقشت الأمير تاربوسكى : « پرنسيپ تاربوسكى » فى هذا الموضوع ... متى سيحضر ذلك الشاهد ؟ ...

— أنا أتوقع مجيئه بين لحظة وأخرى .

ثم أردف وهو يطل من النافذة :

— ها هو ذا آت .

ووقف باتاليونى ، ونظر فى ساعته ، وشد صداره . ورفع بسرعة رباط جوربه الذى كان قد تدلى إلى قدمه . ودخل الضابط الشاب « ڤون رغتر » وكان لا يزال محتقن الوجه مرتبكا ، وقدم سانين الاثنين أحدهما للاخر قائلا بالفرنسية :

— مسيو رغتر الملازم الثانى ، والسنيور زياتولا الفنان ...

وظهرت الدهشة على وجه الملازم الثانى عندما وقع بصره على باتاليونى وكم كانت هذه الدهشة تتضاعف لو أن أحدا من الناس همس فى أذن ذلك الضابط أن الفنان الذى قدم إليه يجيد كذلك فن الطبخ ! ! بيد أن باتاليونى حاول أن يظهر بمظهر من اعتاد المبارزات . ولا شك أن ذكريات خبرته القديمة على المسرح أسعفته ، فقام بتمثيل دور الشاهد كما لو كان على خشبة المسرح فعلا . وساد الصمت برهة حتى قطعه باتاليونى وهو يلعب بطرف حزامه .

— هلا بدأنا ؟ ...

وأجاب الملازم الثانى :

— بالتأكيد ... ولكن ... إن وجود أحد المتبارزين ...

وصاح سانين :

— سأترككم وحدكم أيها السادة ...

وانحنى ، ثم انسحب إلى الغرفة الداخلية وأغلق وراءه الباب . وتمدد فى فراشه مفكرا فى جيما . ولكن الحديث الذى كان يدور فى الغرفة الأخرى تسرب إليه من خلال الباب المغلق . كان الشاهدان يتحدثان الفرنسية ، واشترك كلاهما فى قتل تلك اللغة المذبة ، وإن كان كل منهما قد قتلها على طريقته . وأقحم باتاليونى من جديد حكاية ضباط الحامية بمعسكرة فى پادوا ، والأمير تاربوسكى . وتحدث الملازم الثانى عن كلمة الاعتذار الرقيقة » و « تبادل النار بطريقة ودية » . ولكن الشيخ المحرم رفض فكرة « الاعتذار » . وهال سانين أن يجده قد تدرج فى حديثه على موضوع الشرف ، وعلى الغادة البريئة المعرضة للفضيحة . وعن الغادة التى يساوى ظفر إصبعها رجال العالم أجمعين . وظل يكرر هذا القول ويصيح : « ياللعار ! ... ياللعار ! ... « أونا أونتا ! . . أونا أونتا ! » ولم يعر الضابط هذه العبارات فى أول الأمر انتباها ، ولكن نبرات صوته دلت بعد ذلك على أن الغضب أخذ يتمكن منه . قال فى النهاية مغضبا إنه لم يأت ليستمع إلى مواعظ باتاليونى

فأجاب الشيخ :

— ولكن من كان فى مثل سنك يستفيد من سماع كلمة حق .

وظل الحديث الدائر بين الشاهدين المحترمين يتقد حماسة بين حين وآخر ، وطال أكثر من ساعة ثم اتفق الطرفان على الشروط الآتية : ان يتقابل البارون ڤون دونهوف ومسيو دى سانين فى الساعة العاشرة

من الصباح التالى فى الغابة الصغيرة المجاورة لبلدة هانو . ويقف كل منهما عند إطلاق النار على بعد عشرين قدما من الآخر . ولكل منهما أن يطلق طلقتين من غدارته على أن تكون الغدارة ذات زناد واحد » .

وانصرف فون رغتز . ودخل باتاليونى على سانين غرفة نومه ليبلغه نتيجة ذلك النقاش . وصاح إذ وقعت عينه عليه :

— مرحى أيها الروسى ! . . مرحى أيها السيد الكريم ! سيكتب النصر لك أنت !

وبعد لحظات اتخذا الطريق إلى دكان روزيللى . وطلب سانين إلى باتاليونى أن يعده بكتمان أمر المبارزة على الجميع . وانحصرت إجابة الشيخ فى رفع إصبعه إلى فمه مكررا كلمة : « سر ! ! . سر ! » . « سجردزا ... سجردزا » . وبدا كأنه أصبح أصغر سنا ، إذ نشطت حركته ، وخفت خطواته .

لقد أحيت له هذه الأحداث الغريبة ذكريات الماضى ، وأرجعته إلى تلك الأيام التى كان يتحدى فيها الخصوم ، ويشتبك معهم فى أعنف المبارزات — على خشبة المسرح طبعا ... إن أولئك المغنين مغرمون دائما بالتظاهر ... والزهو والخيلاء .

— ١٩ —

خرج إميل إلى الشارع عدوا لاستقبال سانين ، وكان يترقب وصوله منذ مدة ، وهمس فى أذنه لاهثا أن أمه لا تدرى شيئا مما حدث ، وأنه يجب ألا تقال كلمة أمامها تكشف الستر عنه . ثم قال إنهم أرسلوه اليوم

كذلك إلى المتجر للمرانة على البيع ... ولكنه لاينوى الذهاب ، وإن كان سيتظاهر بالإذعان ، وسيحتجب لذلك بعض الوقت . قال ذلك كله فى لحظة ، ثم شب والتصق بكتف سانين ، وقبله بحرارة قبل أن ينطلق فى الشارع .

كانت جيما داخل الدكان فى استقبال سانين . وأرادت أن تقول شيئا ولكن لسانها خانها ... كانت شفتاها ترتجفان ، وعيناها تدوران يمنة ويسرة بين جفنين ضيقين . وبادر سانين إلى تهدئة روعها ، وأكد أن المسألة هينة ، وأنها انتهت إلى ... لا شىء . فسألته عندئذ :

— ألم يطرق بابك أحد اليوم ؟

— نعم ، جاءنى زائر ، ودارت بيننا مناقشة حول ذلك الموضوع ... وتمكننا من تسوية المشكل على خير وجه .

وانثنت جيما ووقفت وراء المنصة . وقال سانين لنفسه :

— يبدو أنها لم تصدقنى .

ولكنه تركها مع ذلك وانتقل إلى الغرفة الداخلية حيث وجد فراو لينور .

كان صداعها أخف وطأة من أمس ولكنها بدت كاسفة البال . وابتسمت لسانين ابتسامة ودية ، وحذرته فى نفس الوقت من أن صحبتها لن تكون سارة فى ذلك اليوم ، وأنها لن تستطيع إيناسه ، ولاحظ وهو يجلس إلى جانبها أن جفنيها محمران ومتنفخان فسألها :

— ماذا بك ياسيدتى ؟ ... لا أحسب أنك كنت تبكين !!

فهمست وهى تشير إلى الباب الذى يفصلهما عن جيا :

— صه ... لا تقل هذا ... بمثل ذلك الصوت العالى .

— ولكن ، ما داعى البكاء ؟ ..

— آه ياسيد سانين ... أنا نفسى أجهل ذلك .

— أجرح أحد شعورك ؟

— لا ، لا ... لقد باغتتنى الكآبة ... لقد تذكرت جوفان باتيستا ... وشبابى .. وارتعبت لسرعة مرور الزمن . لقد تقدمت بى السن ياصديقى ولم أستطع قط أن أتعود هذه الفكرة . فأنا أشعر بأنى لا أزال كما كنت فيما مضى .. مع أن السن قد تقدمت بى .. هذا ما فى الأمر ..

وطفرت الدموع من عينى السيدة وهى تستطرد :

— أرى أنك تنظر إلى مندهشا ! .. ولكن السن ستتقدم بك سريعا أنت أيضا .. وستعرف عندئذ أية مرارة يعانيها الإنسان فى هذه الحالة .

وحاول سانين أن يواسيها ، فلفت نظرها إلى ولديها ، وقال إنها تجدد شبابها فيهما . ثم حاول كذلك أن يفاكهها فزعم أنها تدعى تقدم السن لتستدرجه إلى امتداح جمالها . ولكنها استوقفته فى جد ، طالبة منه أن يكف عن مثل هذا القول . وأدرك لأول مرة فى حياته مدى البؤس الذى يعانيه من يشعر بتقدم سنه . وأدرك كذلك أن مثل هذا

البؤس يستعصى على كل تطييب خاطر ومواساة ، وأن علاجه الوحيد هو تركه للزمن السخى بالنسيان :

اقترح عليها أن يلعبا الورق بعد أن أعيته أية حيلة أخرى ، فرحبت باقتراحه ، وظهرت عليها بوادر الانتعاش .

لاعبها سانين الورق حتى أوان الغذاء ، ثم استأنفا اللعب كذلك بعد الغداء ، واشترك پانتاليونى معهما فيه . ولم تتدل طرته على غرته مثلما تدلت فى ذلك اليوم ، ولم تنكمش ذقنه كذلك وراء رباط عنقه مثلما انكمشت حينذاك : وكانت الصرامة تشوب كل حركة من حركاته المتوترة إلى حد يدعو من يراه إلى التساؤل « أى سر تنطوى عليه جوانح هذا الرجل ؟ ! » .

ولكن — السر ! ... السر ! ... « سيجريدزا ! ... سيجريدزا ! .. »

ولجأ طوال نهاره إلى كل وسيلة ليؤكد احترامه العميق لسانين ، فأقبل عليه فى رزانة والجمع حول مائدة الغداء ، وقدم إليه الطعام قبل السيدتين . وحاباه أثناء لعب الورق : وظل يردد قوله « إن الروس أشد أهل الأرض عزيمة وبأسا وفروسية » .

وقال سانين لنفسه :

— بل أشدهم مواربة ! ...

ولم يدهش سانين لحالة السيدة روزيللى المعنوية غير المتوقعة بقدر ما دهش للمعاملة الغريبة التى كانت ابنتها تعامله بها . ولا يرجع ذلك إلى

أنها كانت تتحاشاه ... لا ، فإن الذى حدث كان على عكس ذلك تماما . فقد حرصت على الجلوس إلى جانبه أغلب الوقت . وكانت تهتم بحديثه . ولم تحول نظرها عنه أثناء كلامه . ولكنها كانت تتحاشى الخوض معه فى أية مناقشة . بل إنها كانت تغادر مكانها ، وتتغيب لبضع دقائق كلما وجه إليها الحديث ، وتعود ثانية ، وتنزوى فى ركن من الغرفة ، وتبدو كأنها تفكر وتتعجب ... وأغلب الظن أنها كانت تتعجب . ولاحظت فراو لينور فى النهاية تصرف ابنتها ، وسألتها مرة أو مرتين عما بها . فأجابتها ابنتها :

— لا شىء ... وأنت أدرى بأن مثل هذه الحالة تنتابنى كثيرا .

ووافقتها أمها قائلة :

— هذا صحيح .

وطال اليوم وهو يمر على هذا المنوال . فالنشاط لم يدب فيه ، ولكنه لم يكن مع ذلك فاترا ... ولو أن جيما لم تعامل سانين مثل تلك المعاملة لما استطاع أن يقاوم ميله إلى التباهى بنفسه ، أو لاستسلم لتلك الكآبة التى تخيم على إلمة الوداع التى قد لا يعقبها لقاء ... ولكنه عندما تعذر عليه التحدث إلى جيما انتهز فرصة الفترة السابقة على تقديم القهوة ، وقام إلى البيانو ، وعزف عليه بعض المقطوعات .

وعاد إميل فى ساعة متأخرة ، وانسحب مسرعا إلى غرفته ليتحاشى الأسئلة التى يمكن أن توجه اليه عن هركلوبر . وحان وقت رحيل سانين .

وأقبل على جيما يودعها — ولأمر ما تذكر وداع لينسكى للفتاة أولجا فى قصة أوجين أونجن . (تأليف بوشكين) وضغط يدها وهو يحاول أن ينظر فى عينيها ، ولكنها أشاحت عنه بلطف ، ، وتملصت يدها من يده .

— ٢٠ —

عندما وصل سانين إلى عتبة الباب الخارجى كانت النجوم قد أشرقت جميعها ... ويا لها من مجموعة لا عداد لها ! ... بعضها كبير والآخر صغير ! ... وبعضها أزرق ... وبعضها أحمر أو أصفر أو أبيض ! ! ... بيد أنها كانت جميعها تلمع وتتألق وتومض دون انقطاع . ولم يظهر القمر ، ولكن كل شىء كان يبدو ، رغم غيابه ، واضحا فى غبش المساء . وواصل سانين سيره حتى وصل إلى آخر الشارع ، فلم يكن يشعر برغبة فى العودة إلى داره ، وكل ما كان يرغب فيه أن يهيم على وجهه بغير هدف ، مستمتعا بعبير الهواء النقى .

وعاد أدراجه بعد طول التجوال ، ولكنه ما كاد يمر بحانوت الحلوى حتى انفتحت منه نافذة تطل على الشارع محدثة صوتا امتد حتى الميدان الصغير المقفر . وظهر من خلفها وجه سيدة غير واضح القسمات لأن غرفة النافذة كانت مظلمة . وتردد صوت ينادى :

— مسيو ديمترى ! ...

وجرى صوب النافذة محدقا فيها ... لقد كانت جيما تناديه ...

وجدها حينذاك مرتكنة إلى قاعدة النافذة ، مائلة إلى خارجها ، وقالت فى احتراس عندما اقترب منها :

— يا مسيو ديمترى ... حاولت طول النهار أن أعطيك شيئا حفظته لك... ولـكن ترددى حال دون ذلك . أما وقد رأيتك الآن أمامى فجأة فلا بد أن القدر قضى أن أعطيك هذا الشيء ...

واضطرت جيا فى هذه اللحظة أن تتوقف عن الـكلام . لقد وقع ما حال دون استمرارها فيه ... حدث ما يندر حدوثه، .. فمن أعماق السكون ، وتحت سماء هادئة صـافية ، هبت على غرة عاصفة هوجاء بلغ من عنفها أن الأرض كادت تتزلزل ... اصفرت النجوم وارتجفت ، ودار الهواء فى دوامات متلاحقة ساخنة لافحة تصدم الأشجار وجدران البيوت وأسطحها .. وقد أطاحت بقبعة سانين فيما أطاحت به ، وعبثت بشعر جيا حتى أشاعت فيه الفوضى . وكان رأس سانين يـكاد يلامس أسفل النافذة الوطيئة ، فقد التصق وتذاك بالحائط محتميا فيها، فانحنت عليه جيا وقد تملكها الرعب ، وأمسكت كتفيه بكلتا يديها ، والتصق صدرها بناصيته ، ولـكن العاصفة لم تستمر إلا دقيقة واحدة انقشعت بعدها كأنها سرب هائل من الطير مر بالمـكان مرورا .. لقد استنفدت قوتها المركزة دفعة واحدة ... وعاد السكون يرنق على المـكان مرة أخرى .

رفع سانين عينيه ، وتطلع إلى وجه ما أجمله ! ... وما أنفذ وقع الألم والانزعاج البادين عليه ! ! .. تطلع إلى عينين ما أوسعهما ! .. وما أبدعهما ! .. وما أنفذ الشجن الذى تبثانه ! ! ... تجلى له هـذا الحسن خلابا ياساحرا إلى حد أن قلبه كاد يكف برهة عن خفقانه. وأمسك

خصلة من شعرها الحريرى تدلت على صـدره . فضمها إلى ثغره وقبلها ، وكان على وشك أن يصيح :

— آه ياجيما ! ...

وسـألت الفتاة وهى تسرح بصرها فى الفضاء تاركة يديها على كتفيه :

— ماذا حدث ؟... أكان وميض برق ؟...

فصاح سانين عندئذ :

— جيا !...

فصعدت زفرة طويلة ، ودارت إلى داخل الغرفة . ثم عادت فانتزعت فى سرعة خاطفة وردة ذابلة كانت مشبوكة فى ثوبها ، وألقت بها إليه قائلة :

— كنت أريد أن أعطيك هذه الوردة .

وعرف سانين الوردة التى استردها من الضابط فى اليوم السابق .

وانصفق مصراعا النافذة على الفور . ولم يظهر شيء وراءهما ، بل لم ينعكس على زجاجهما حتى لون رداء جيا الأبيض .

وعاد سانين إلى فندقه عارى الرأس ... ولم يلحظ أنه فقد قبعته .

(٢١)

لم يستسلم للنوم إلا قرب الصباح ، ولا عجب ! فإنه لم يشعر ، وهو لا يزال متأثراً بهول العاصفة الصيفية المفاجئة ، بأن جيا جميـلة ؛ وبأن

جاذبيتها خارقة للعادة — لم يشعر بذلك ، لأنه كان على علم سابق به ... ولكن الجديد الذى شعر به هو ... أنه وقع فى حبائل حبها ... لقد دهمه الحب فجأة كما دهمته تلك العاصفة المفاجئة ... والآن ، تلك المبارزة السخيفة ! ...

واستبدت به هواجس ملؤها التشاؤم . وظل يسائل نفسه عما سينتهى إليه أمر حبه لهذه الفتاة فيما إذا نجا من المبـــارزة ! .. أليست مخطوبة لغيره ؟ .. وفى الحقيقة إن هذا الخطيب ليس منافسا خطيرا فى حبها ، فقد تتحول عنـه إليه هو . (أى إلى سانين) بل قد يكون حبه تمكن منها بالفعل ! ! . ولـكن ... وماذا بعد كل ذلك ؟ .. ما هى النتيجة ؟ ! .. يا له من سـؤال ؟ ! ألا تتميز الفتـاة بذلك الحسن الرائع ! ! ..

سار فى غرفته طولا وعرضا ، ثم جلس إلى المائدة ، وتناول ورقة خط بها بضعة أسطر ووضعها فى غلاف ... وعاد يفـكر فى جما ... فى وجهها المتجلى فى إطار النافذة المظلمة عاكسا ضوء النجوم المتلألئة ... وفى ذراعيها الشبيهتين بذراعى تمثال إلهـة إغريقية ... وشعر بهما تتكئان بخفة على كتفيه ... ثم تناول الوردة التى ألقت جما بها إليه من نافذتها . وخيل إليه أن أوراقها الذابلة تفوح برائحة أرق من الوردة اليانعة وسأل نفسه :

«وما ذا لو قتلت غدا ... أو كسر أحد أضلاعى ؟ ! » .

ولم يأو إلى فراشه . ولـكن النوم فاجاه وهو جالس على المقعد فى كامل كسوته .

* * *

وشعر بيد تهز كتفه ..

وفتح عينيه فوجد بانتاليونى أمامه ، وسمعه يقول :

— إنه ينـام نومة الإسكندر الأكبر فى الليـلة السابقة على معركة بابل ...

وسأله سانين :

— ولـكن كم الساعة الآن ؟

— تقترب من السابعة، والانتقال إلى هانو يستغرق ساعتين. ولابد لنا أن نصل إلى هناك قبلهم . إن الروس يسبقون أعداءهم إلى المعركة دائما ، وقد جئت لك بأحسن عربة فى فرانكفورت كلها.

وشرع سانين فى الاغتسال وهو يسأل :

— وأين الغدارة ؟

— سيأتى بها ذلك الألمانى النـذل « فيروفلوكتو تيديمسكو » . وسيأتى بطبيب كذلك .

وظهر فى وضوح أن بانتاليونى حاول أن يحتفظ بالحيوية التى ظهر بها أمس . ولـكنه ما كاد يجلس فى العربة إلى جانب سانين ، وما ألهب السائق ظهر الجوادين، فانطلقا خببا ، حتى طرأ تغير واضح على « صديق

الضباط فى حامية بادوا » ! لقد ظهر عليه الانزعاج والانفعال حتى لكأن شيئا بداخله قد انهار كما تنهار الحائط المتآكلة . وظل يردد قوله بصوت مرتجف .

— ما هذا الذى نفعله ؟ ... يا إلهى ! ... « سانتسيما مادونا ! » ..

ووشج أصابعه فى جذور شعره وأردف :

— ما هذا الذى أفعله ؟ ... ما أنا إلا هرم مجنون « فرينتيكو » .

وفوجىء سانين بهذا القول وطفق يضحك ، ثم طوق خصر الشيخ بذراعه وقال بالفرنسية :

— ما دمنا فتحنا زجاجة النبيذ فلا بد أن نشربها .

وأجاب الشيخ :

— نعم ، نعم . . سيشرب كل منا الكأس حتى الثمالة ، ولكنى مع ذلك مجنون ... نعم . أنا مجنون ... كم كانت الحياة من قبل جميلة هادئة ! ! . . والآن ... « تا — تا — تا — ترا — تا — تا ! » .

وعلق سانين على ذلك بقوله :

— تماما كما تعزف الأوركسترا مقطوعة « توتى » .

وضحك ضحكة مغتصبة وأردف :

— ولكن الذنب ليس ذنبك .

— أعرف ذلك . بل أرجوه . ولكن الأمر وقع مع ذلك فى سرعة وتهور ... الشيطان ! .. الشيطان ! .. « دياڤولو ! .. دياڤولو ! .. »

وأخذ الشيخ يلطم جبهته بيده ويتنهد . وظلت العربة تطوى الطريق ... وتطويه .

* * *

كان اليوم رائعا . وبدت الشوارع أنيقة نظيفة قبل أن تستيقظ المدينة ، وأومضت نوافذ البيوت كالورق المفضض . وعندما تجاوزت العربة أبواب المدينة ترددت زقزقة الطيور فى عرض السماء التى كان لونها لايزال أزرق باهتا . وفى منعطف من منعطفات الطريق ظهر لسانين من وراء الشجر وجه مألوف لديه . وتقدم صاحب هذا الوجه صوب العربة ، ووقف أمام سانين ... رباه ! ! .. إنه إميل .

والتفت سانين إلى بانتاليونى وسأله :

— ما هذا ؟ .. أهو ملم بما يحدث ؟

وتأوه الإيطالى المسكين ، وقال بصوت مرتجف تتخلله ولولة القنوط :

— ألم أقل لك إنى مجنون ؟ لقد ظل ذلك الشقى يعكر صفوى طوال الليل . وفى الصباح انطلق لسانى ...

وقال سانين لنفسه :

— أهكذا يكتم السر ؟ « سيجريدزا ؟ » .

وأمر سانين السائق أن يوقف العربة عندما وصلت إلى إميل . وطلب إلى « ذلك الشقى » أن يقترب ، وتقدم إميل بخطوات مترنحة ، وكان ممتقع الوجه على نحو ما كان عليه يوم أصيب بالنوبة القلبية . ولم يكد يقوى على الوقوف .

وسأله سانين مقطبا :

— ماذا تفعل هنا ؟ ... لماذا غادرت دارك ؟

وأجاب إميل مستعطفا :

— دعنى أذهب معك .

ثم أضاف بصوت مرتجف وقد اشتبكت يداه على هيئة توسل ، واصطكت أسنانه كما لو كان مصابا بالحمى :

— لن أتدخل فيما سيحدث ... خذنى معك . . لا مطلب لى إلا أن تأخذنى معك .

فقال سانين :

— إذا كنت تكن لى أقل حب وتقدير فعد إلى دارك فى الحال ، أو اذهب إلى المركاوبر ، والزم الصمت فلا تبح بكلمة لأحد ، وانتظر عودتى .

وأجاب الصبى بصوت متهدج يشبه الحشرجة ،

— عودتك !.. وإذا كنت لن ...

وقال سانين وهو يشير إلى السائق بالاستعداد لمواصلة السير :

— إميل ! . . تمالك جأشك . . عد إلى الدار يا إميل ... أتوسل إليك ... اسمع ياصديق ... أنت لاتفتأ تقول إنك تحبنى ، فإن كنت صادقا فيما تقول فعد أدراجك إرضاء لى .

ومد إلى إميل يده ليحييه ، فقفز الصبى إلى الأمام وهو يصعد الزفير ، ومال على اليد الممدودة فقبلها . ثم أخلى الطريق وجرى مخترقا الحقول

إلى فرانكفورت . وشيعه الشيخ الهرم بعينه وهو يغمغم .

— قلب نبيل آخر ...

ولكن سانين رمقه بنظره عابسا ، فانزوى الشيخ فى ركن المقعد شاعراً بخطئه ... ولم يلبث أن استغرق فى التفكير . وتزايد عجبه لحظة بعد أخرى — أيمكن أن يكون هو ... القائم « فعلا » بدور شاهد فى مبارزة ؟ وهو الذى استأجر العربة ؟ ... وأعد كل شىء ؟ ... وفارق فراشه الهادىء المريح فى السادسة صباحا ؟ ! ... والأنكى من كل هذا أن ساقيه تؤلمانه أشد الألم !..

وعاد سانين فأشفق عليه ، وشعر بضرورة الترفيه عنه ، وبحث عن العبارات التى تضرب على الوتر الحساس ، فوجدها مواتية مطواعة ... قال له :

— أين روحك المعنوية السالفة ياسيد سيباتولا النبيل ؟ ! ... أين البأس القديم ؟ ! . . .

واعتدل السنيور سيبانولا ، وصاح بصوت عميق :

— البأس القديم ... ؟ إنه لم يتبدد عن آخره ، فما زالت منه بقية . « إل أنتيكوفالور » .

ونصب جسمه ثانية ، وتدفق حديثه عن حرفته ... عن الأوبرا ... وجارسيا العظيم . وعندما وصلت العربة إلى هانو كان الشيخ قد تحول إلى رجل آخر . ويستطيع من يفكر فى هذا أن يدرك مدى مفعول « الكلمة » . فما من قوة فى الأرض أخطر منها أثرا ... وما من شىء فى الأرض أضعف منها وأهون ! ...

— ٢٢ —

كانت الغابة التى ستجرى فيها المبارزة على بعد ثلاثة أرباع الميل من هانو . ووصل سانين وبانتاليونى قبل غيرهما كما توقع هذا الأخير . وطلبا إلى سائق العربة أن ينتظرهما على حدود الغابة ، وغاصا فى ظل شجر ظليل . وانتظرا مجىء الآخرين حوالى ساعة .

لم يجد سانين الانتظار مملا . فقد أزجى الوقت فى قطع طريق الغابة الضيق ذهابا وإيابا منصتا إلى تغريد الطيور ، ومتتبعا طيرانها . وحاول كغيره من الروس الذين يواجهون مثل موقفه ، ألا يفكر فى الأمر . ولكنه وقع فى هذا المحظور إذا صادف فى طريقه شجرة زيزفون صغيرة اقتلعتها عاصفة أمس ، ودب فيها الفناء وأنضب عودها ، وأذبل أوراقها . وأومض حينذاك فى ذهن سانين خاطر مشئوم : « ما هذا ؟ . . أيكون فألا سيئا ؟ . . » ولكن لم تمر دقيقة على ذلك الخاطر حتى عاود الشاب مرحه ، وواصل تمشيه ، ولم يحجم عن تخطى الشجرة المقتلعة كلما اعترضت طريقه فى ذهابه وإيابه ، أما بانتاليونى فكان على عكس زميله ، لا يكف عن التأفف ، وسب الألمان اللاعبين ، والسعال وحك ظهره وركبتيه . وكان لشدة انفعاله يتثاءب على التوالى فيرسم تثاؤبه على وجهه الصغير أشكالا مضحكة . رآه سانين على تلك الحال فكاد ينفجر ضاحكا .

ووصل إلى آذانهما أخيراً صوت عجلات تدور على الطريق الناعم . وصاح بانتاليونى :

— هاهم أولاء قادمون .

وانتصب واقفاً مرهفا السمع ، شاعراً بانفعال عصبى بادر إلى إخفائه برعشة مفتعلة عبر عنها بذلك الصوت « ب — ر — ر — ر — » . وزعم أن برد الصباح قارس . وفى الحق أن الندى كان يبلل الحشائش وأوراق الشجر وتشذاك ، ولكن لفحة من حر الصيف كانت قد أخذت تتغلغل إلى صميم الغابة .

وظهر ضابطان فى ظل الشجر مقبلين عن بعد ، يرافقهما رجل ربع القامة ، متراخى الحركة ، كأن النعاس يداعبه — تبين أنه طبيب الفرقة — وكان يحمل إناء يطفح ماء ، وحقيبة متدلية على كتفه اليسرى تحوى أدوات الجراحة وحوائجها ، ولم يخف أنه اعتاد مثل هذه المغامرات التى كانت من أهم موارد دخله — فإن كلا من المتبارزين كان عليه أن ينقده قدرا معينا من المال — واضطلع هرفون ريختر بحمل صندوق السلاح ، أما البارون فون دونهوف فكان يعبث أثناء سيره ببعض طيور صادها — ولا شك أنه كان يعد ذلك غاية فى الأناقة ! ! . .

وهمس سانين فى أذن الشيخ الهرم :

— بانتاليونى !! . . إذا واتتنى منيتى، ولا شىء مستحيل الحدوث ، فستجد فى جيب سترتى وردة ملفوفة فى ورقة ، ورجائى أن تحملها إلى الآنسة جما ... أتسمعنى ؟ ... أتعدنى بتنفيذ رغبتى هذه ؟

وألقى الشيخ على سانين نظرة حزينة ، وأومأ إيماءة تفيد

الموافقة ... ولكن الله وحده يعلم ما إذا كان قد فهم شيئا مما طلبه سانين .

انحنى فريقا المبارزة كل للآخر طبقا للتقليد المعروف . ولم يظل جامدا في هذه الحالة التي توترت فيها الأعصاب إلا الطبيب الذي تمدد على الحشائش وواصل تثاؤبه كأنما يقصد أن يقول : « لا داعي للتظاهر بالعواطف الكريمة » . وطلب هرڤون ريختر إلى هر « تشيبا دولا » (يقصد بانتاليوني سيباتولا) أن يختار مكان تبادل النار . وجفل هذا الآخر — وقد انهارت بين جوانحه الحائط المتآكلة من جديد — وأجاب بصوت يشوبه الانفعال :

— افعل ما بدا لك يا سيدي العزيز ، وسأتتبع ما يحدث .

وباشر ڤون ريختر العمل ، ووجد بعد البحث ممرا واسعا بين الأشجار تزينه زهور محيطة به من كل ناحية . فشرع يقيسه ، ويحدد مكان وقوف المتبارزين بطرف عصاه المدبب . ثم أخرج الغدارتين من صندوقهما . وجلس القرفصاء ليحشوهما — ومجمل القول إنه بذل قصاراه ليؤدي عمله على خير وجه ، وكان لا يكف عن تجفيف عرقه المتساقط بمنديل أبيض . وتتبع بانتاليوني كل حركة من حركاته عن قرب ، وكان يبدو متخاذلا كمن أصيب «بنزلة شعبية » . ووقف الخصمان في مكانين متباعدين. وكانا أشبه بتلميذين وقع عليهما أستاذهما عقابا فأخذا ينظران إليه شزرا .

وحانت الساعة الفاصلة ...

وتناول كل من الخصمين غدارته ...

ولكن هرڤون ريختر سارع فلفت نظر بانتاليوني إلى أن قواعد المبارزة تقتضي إسداء كلمة نصح أخيرة للمتبارزين ، وحث لهما على إنهاء خلافهم قبل النطق بهذه الكلمات الثلاث المشئومة — « واحد ... اثنان ... ثلاثة ! ... » ورغم أن النصح في هذه الحالة ليس إلا إجراء شكليا ، فإنه يزيح عن كاهل السيد « تشيبا دولا » بعض المسئولية . وإذا كان شاهدا المتخاصمين لا يكلفان به ، وإنما يكلف به واحد من الحاضرين غير متحيز لأحد الطرفين المتنازعين ، فإن عدم حضور أحد لمشاهدة المبارزة حداه (أي ڤون ريختر) إلى الرضا بأن يتولى «هر تشيبا دولا» زميله الأكبر سنا هذا الواجب .وكان بانتاليوني يحاول في تلك الآونة الاختباء وراء الأعشاب ليتحاشى رؤية اعتداء الضابط على سانين . فلما وجه إليه ڤون ريختر قوله المتقدم لم يفهم منه شيئا أول الأمر (لا سيما وأن ذلك الضابط كان يتحدث بصوت خارج من أنفه) . بيد أنه انتفض بعد برهة ، وتقدم في حماسة ، وضرب صدره بقبضة يده . وصاح خشن الصوت ، معبرا بلغته المختلطة المضحكة :

— « آلا — لا — لا ما هذه الوحشية ؟ « كي بيستياليق ! » » أيتقاتل هكذا شابان في مثل هذا الصبا ؟ ... يا للشيطان ! ... عودا إلى داركما ... «أنداتي آكازا» .

وسارع سانين إلى القول :

— أنا أرفض الصلح .

وتلاه خصمه قائلا .

— وأنا أرفضه كذلك .

وطلب ڤون ريختر إلى پانتاليونى أن ينادى معلنا بدء القتال : واحد — اثنان — ثلاثة . » وتقهقر الشيخ مذهولا ، وغاص بين الأعشاب متشنج الأطراف ، زائغ البصر ، مشيحا بوجهه ... ولكنه صرخ بأعلى صوته : « أونا — دووى — ترى ! ! . . »

وأطلق سانين غدارته أولا ، ولكنه أخطأ الرمية . وأصابت رصاصته جذع شجرة قريبة من قدمى خصمه محدثة دويا . وأعقبه البارون ڤون دونهوف بإطلاق غدارته بدوره ، ولكنه أنحرف بها وصوبها إلى الفضاء قصدا .

وخيم صمت توترت فيه الأعصاب ... وجمد كل فى مكانه . وانطلقت من صدر پانتاليونى زفرة مكتومة

وسأل دونهوف خصمه :

— أترغب فى مواصلة القتال ؟ . .

وأجاب سانين :

— لم صوبت طلقتك إلى الفضاء ؟ ؟

— وما شأنك فى هذا ؟ ...

— أتنوى تكرار ذلك فى الطلقة التالية ؟ ..

— ربما ... فأنا لم أستقر بعد على رأى.

وصاح ڤون ريختر :

— أيها السادة! ... أيها السادة! ... تقضى أصول المبارزة ألا يتبادل الخصمان الكلام . لقد ارتكبتما خطأ فاحشا ...

قال سانين :

— أنا متنازل عن حقى فى إطلاق النار .

وألقى بغدارته على الأرض .

وصاح ڤون دونهوف وهو يلقى بغدارته على الأرض كذلك :

— وأنا كذلك أود ألا أواصل المبارزة . وأضيف إلى ذلك أنى مستعد الآن للاعتراف بما ارتكبته من خطأ ... فى ذلك اليوم السالف .

ووقف برهة من الزمن مترددا . ثم مد يده فى غير ثقة ... ولكن سانين جرى إليه فصافحه . وتبادل الشابان النظر والابتسام ، واصطبغت وجنتاهما بحمرة قانية .

وصاح پانتاليونى باندفاع جنونى .

— براڤى ... براڤى ...

وصفق بيديه وهو يخرج من بين العشب مندفعا كالحمامة المتعثرة . ووقف الطبيب الذى كان جالسا على جذع شجرة مقطوعة . وأفرغ إناءه الممتلىء ماء ؛ وتوجه فى كسل إلى خارج الغابة .

وصاح ڤون ريختر .

— لقد سلم الشرف ... وانتهت المبارزة...

وصرخ پانتاليونى كأنه على المسرح :

— مرحى ! ... مرحى ..

وعادت به الذاكرة إلى الماضى السحيق...

* * *

بعد أن بادل سانين الضابطين التحية والانحناء، وجلس فى العربة، شعر (دون مراء) بعاطفة تنفذ إلى أعماق كيانه ... عاطفة ليست كلها اغتباطا وجذلا، بل هى أشبه بالراحة التى تعقب إجراء عملية جراحية، ولكن عاطفة أخرى كانت تخالجه كذلك...عاطفة أشبه بشعور الخجل.. فقد أحس أن التقاءه بخصمه فى ساحة المبارزة كان مفتعلا زائفا.. كان أشبه بعمل تقليدى رسمى، أو بإجراء شكلى اعتاده طلبة الكليات الحربية. تذكر الطبيب الحائر العزيمة .. تذكر ابتسامته (أو التواء أنفه) حين شاهده (أى شاهد سانين) أثناء مغادرته الغابة، بعد المبارزة، وهو يسير جنبا إلى جنب مع خصمه. ثم تذكر بانتاليونى وهو ينقد ذلك الطبيب أجره نظير الدور الذى مثله ... أج ... أج ... إن هذا كله لايستريح له الضمير.

نعم، كان سانين يشعر بالخجل ... ويكاد يشعر بالإثم .. ولكن بصرف النظر عن هذا ... أكان يستطيع شيئا غير الذى فعله ؟ ... أكان يستطيع التغاضى عن الضابط المعتدى وتركه ينجو دون أن يعاقبه على فعلته ؟ أكان من الممكن أن يتصرف كالهركاوبر ؟ ... صحيح أنه فعل ما فعل دفاعا عن جيما، غير أن ضميره لم يكن مع ذلك مستريحا... كان يشعر بالخجل ... بل يكاد يشعر بالإثم.

أما بانتاليونى فلم يشعر إلا بأنه انتصر ... لقد تملكه الزهو على حين فجأة، فهو جنرال عائد من ميدان معركة حطم فيها الأعداء. ووجهه الطافح بالبشر يدل أبلغ دلالة على رضاه عن نفسه. كان سلوك سانين أثناء المبارزة يثير حماسته، ولذلك نادى به بطلا، وأبى أن ينصت إلى أى اعتراض أو رجاء. وشبهه بتمثال من المرمر أو البرنز — شبهه على وجه التحديد بتمثال « القائد » فى قصة دون جوان — واعترف بأنه وقع فريسة للفزع، ولكنه قال متعللا :

— ولكنى فنان كما ترى ... فنان عصبى المزاج. أما أنت فابن الثلوج وجبال الجرانيت. ولم يكن سانين فى حالة معنوية تمكنه من تهدئة الفنان المهتاج.

* * *

وحيث تركا إميل منذ ساعتين وجداه منتظرا أوبتهما فى نفس المكان. وقد اندفع من وراء شجرة كالمرة السابقة، مرددا صيحات الفرح، وملوحا بقبعته فى الفضاء، وقافزا كالطير فى الهواء. ومرق صوب العربة حتى كاد يسقط تحت عجلاتها، وتعلق ببابها قبل أن يشد السائق لجام الخيل، وارتمى على سانين مرددا :

— أأنت على قيد الحياة ؟ ... ألم تصب بمكروه ؟ .. اغفر لى عدم الإذعان لأمرك والعودة إلى فرانكفورت، فقد كان الأمر فوق طاقتى ... ولم أستطع إلا انتظارك هنا ... خبرنى عما حدث ... أقتلته ؟

وعانى سانين صعوبة شديدة فى تهدئة بال الصبى وحمله على الجلوس .

وطفق بانتاليونى يحكى للصبى تفاصيل ما حدث ، ويحشو حكايته وهو يتهدج طربا بألوان الثرثرة الجوفاء ولم يفته أن يعيد ذكر تمثال «القائد» البرنزى ، ووقف يحاكى « القائد » سانين فى ساحة المبارزة — وقف منتصب القامة ، طاوياً ذراعيه على صدره ، ناظرا من فوق كتفه إلى الخصم الذى تخيله . وكان يباعد ما بين قدميه حتى لا يختل توازنه بفعل رجرجة العربة . وأنصت إميل إليه واجف القلب ، ولم يقاطعه إلا لينفس عن انفعاله بصيحات الإعجاب ، أو ليغمر صديقه البطل بقبلاته .

وبدأت عجلات العربة تصطدم ببلاط شوارع فرانكفورت ، ثم وقفت أمام فندق سانين .

وفى أثناء صعود سانين إلى غرفته بالدور الثانى وبرفقته بانتاليونى والصبى مرقت سيدة محجوبة الوجه من الظلمة المخيمة فى الممر ، وتريثت أمام سانين ، وأشارت إليه إشارة خفيفة وهى تلهث ، ثم انحدرت فى الدرج ركضا واندفعت إلى الشارع حيث توارت عن الأنظار .

ولم يدهش أحد لما حدث مثل خادم الفندق الذى أخبر سانين أن تلك السيدة سألت عن « السيد الغريب » ، وانتظرت عودته أكثر من ساعة ، فما إن وقعت عينها عليه حتى ولت هاربة ! ! ... واستطاع سانين أن يتبين جيما خلال اللحظة التى مرت فيها من أمامه . لقد رأى عينيها الواسعتين تنفذان من الستر الحريرى السميك المنسدل على وجهها .

وتمتم بصوت ينم عن الغيظ .

— والآنسة جيما تعلم بالأمر كذلك ؟ . .

قال هذا بالألمانية ملتفتا إلى مرافقيه اللذين كانا يسيران فى أعقابه .

واصطبغ وجه إميل حياء ، وبدت عليه دلائل الارتباك وهو يتمتم :

— اضطررت أن أبوح لها بالأمر . . . فقدحذرته من تلقاء نفسها ، ولم أستطع إزاء قلقها أن أكتم عنها شيئا . . . ثم إن ذلك لم تعد له أهمية الآن .

وأردف ، وقد انتابته حماسة مفاجئة :

— لقد انتهت الأمور إلى تلك النهاية السعيدة ، واطمأنت جيما على نجاتك وعافيتك .

وأشاح سانين بوجهه عنه وغمغم متضايقا :

— يالهما من ثرثارين لا يكتمان سرا !

ودخل غرفته حيث جلس فى أحد الكراسى .

وتوسل إليه إميل :

— لا تغضب على .

— حسنا ... سأتحاشى ذلك.

ولم يكن سانين غاضبا بالفعل . (فهو لم يكن يود حقا أن تجهل جيما « كل شىء » عما حدث) . وواصل قوله لإميل بعد فترة صمت :

— ولكن كفى قبلات وانفعالات .. انصرف الآن ، فأنا فى حاجة

إلى أن أخلو بنفسي ... أنا متعب ، وأود أن أنام .

فصاح بانتاليوني :

— فكرة صائبة . فأنت في أشد الحاجة إلى الراحة ، ثم إنك تستحقها بالفعل أيها السيد النبيل .. تعال ياإميل .. سر على أطراف أصابع قدميك شه — شش — شش .

غير أن سانين لم يقصد أن ينام ، بل قال لهما ذلك ليتخلص منهما . فلما اختلى بنفسه حتى شعر بثقل التعب يدب بالفعل في مفاصله ، فهو لم ينم في الليلة السابقة إلا لماما . وعندما ألقى بنفسه في فراشه ، غرق على التو في سبات عميق .

* * *

ظل مستغرقا في النوم عدة ساعات . ورأى في المنام أنه مشتبك في مبارزة ، ولكنه كان هذه المرة يبارز هر كلوبر . وأطلت عليه ببغاء تجثم في أعلا شجرة تنوب ... ولم تكن تلك الببغاء سوى بانتاليوني الذي أخذ يكرر نداءه : « واحد — اثنان — ثلاثة » . واستمر يصيح بصوت صادر من منقاره : « ثلاثة — ثلاثة — ثلاثة ... » ولكن الصوت تعالى حتى لم يصبح صوت حلم ... وفتح سانين عينيه ، ورفع رأسه عن الوسادة ، وسمع طرقا على الباب فقال :

— ادخل ؟

وظهر الخادم ، وأخبره أن سيدة بالباب حريصة على مقابلته . وخطر

ببال سانين أن هذه السيدة لا بد أن تكون جيما . ولكن ظهر أنها لم تكن إلا والدة جيما ... فراو لينور .

وما دخلت الغرفة حتى سقطت على أحد المقاعد وانفجرت باكية .

وجاء سانين فجلس إلى جانبها ، ولمس كتفها برفق وعطف ، وسألها :

— ماذا حدث ياسيدتي العزيزة الطيبة ؟ ما الخطب ؟ هدئي من روعك ... بالله عليك ...

— آه ! ياسيد ديمتري ! كم أنا شقية ! ...

— أنت شقية ؟ ...

— آه ... جداً ، جداً . من كان يتصور حدوث ذلك ؟ ! لقد وقع وقوع الصاعقة .

كانت تتنفس بصعوبة ، وواصل سانين استفساره :

— ولكن ، ما الذي حدث ؟ أوضحي الأمر ... أأحضر لك كوبة ماء ؟ ...

— لا ... شكراً لك

وأخرجت منديلا جففت به دموعها . ولكنها عادت تبكي على نحو أعنف من قبل . وقالت على حين فجأة :

— أنا أعلم كل شيء ... كل شيء .

— ماذا تقصدين بعبارة « كل شيء » .

— كل ما حدث اليوم — وأعلم كذلك أسبابه . وفي الحق إنك تصرفت تصرف الرجل الشريف ... ولكن أية حالة تعسة نشأت

من جراء ذلك ؟ ! ... إن معارضتى لقيامكم برحلة « سودين » لم تكن من غير سبب . (لم تعارض فراو لينور فى القيام بتلك الرحلة كما تزعم ، ولكنها أصبحت تؤمن الآن بأنها توقعت منها السوء .) وقد قصدتك بحسبانك رجلا شريفا .. بحسبانك صديقا ، وإن كنت لم أعرفك إلا منذ أيام . بيد أنى أرمل كما تعلم ... أرمل وحيدة ... وها هى ذى ابنتى .

واختنقت السيدة بدموعها ! وحار سانين فى قولها ... فردد آخر كلمة سمعها .

— ابنتك ؟.. ابنتك !! ...

وخرج صوت السيدة من وراء المنديل المبلل بدموعها كأنه الأنين :

— ابنتى جما ... أخبرتنى اليوم أنها عدلت عن فكرة الزواج بالهركلوبر ، وكلفتنى أن أخطره بذلك أ

عرت سانين رجفة خفيفة ، فهو لم يكن يتوقع هذه النتيجة . واستأنفت السيدة قولها .

— ولندع الفضيحة جانبا — رغم أن أحدا لم يسمع عن فتاة شريفة تهجر خطيبها — ولننظر إلى النتائج : إن فسخ هذه الخطبة لن يجر علينا إلا الخراب :

ولفت السيدة منديلها وكورته بانفعال . وكأنما اعتزمت وهى تضغطه أن تضغط فيه أحزانها . ثم استأنفت كلامها .

— إننا لم نعد نستطيع أن نعيش على إيراد دكاننا المتناقص . والهركلوبر غنى يا سيد ديمترى . وهو يزداد غنى يوما بعد يوم ... ثم ما سبب رفضها له ؟ ! ألأنه لم يدافع عنها ؟ ... إنى أسلم بأنه لم يحسن التصرف . ولكن يجب أن نضع فى المقام الأول من تقديرنا أنه من المدنيين ، وإنه لم يتخرج فى الجامعة . ثم إن من حق تاجر محترم مثله أن يتجاوز عن الهنات السخيفة التى يرتكبها بعض صغار الضباط المغمورين ... والإهانة التى لحقت ابنتى ! ... أكانت جسيمة على نحو ما يصورونها ؟ . . .

— استميحك العذر ياسيدتى . فإنه يبدو لى أنك تتهميننى .

— إنى لا أتهمك بشىء . فأنت تختلف عن هر كلوبر . أنت رجل عسكرى . . . ككل روسى .

— عفوا ياسيدتى ، ولكنى لست كذلك .

وواصلت السيدة قولها دون أن تعير اعتراض سانين انتباها :

— أنت غريب عن هذه الديار . أنت زائر عابر . . . وأنا مدينة لك بالشىء الكثير . . . !

كانت تصعد أنفاسها فى جهد ظاهر ، وتحرك يديها فى انفعال . وبسطت منديلها وتمخضت فيه . وكانت الطريقة التى أطلقت بها العنان لأشجانها تكفى وحدها للدلالة على أنها لم تولد تحت سماء الشمال الباردة . وواصلت ولولتها :

— أو يستطيع هركلوبر أن يواصل عمله فى المتجر إذا اعتاد الاشتباك

فى عراك مع كل عميل ؟ . . . أتعقل هذا ؟ ! ثم على الآن أن أنبئه بفسخ الخطبة ! . فان فعلت ، فأى مورد رزق يتبق لنا ؟ كنا نجيد وحدنا فيما مضى صنع بعض أصناف الحلوى الإيطالية ، واعتاد العملاء وقتذاك أن يتقاطروا علينا . أما الآن فالجميع يجيدون صنع تلك الأصناف .. وبصرف النظر عن كل هذا .. انظر إلى الأقاويل التى ستتناقلها المدينة عن حكاية « مبارزتك » ! .. إن أحدا لا يستطيع أن يسكت ألسنة السوء — وفى هذا الظرف بالذات يعلن نبأ فسخ الخطبة .. إنها لفضيحة ! .. إنها لفضيحه ! .. وجيما فتاة طيبة .. إنها تحبنى دون شك ، ولكنها عنيدة ، ذات نزعة تحررية كأبيها .. ثم إنها تستخف بأقاويل الناس .. إنك الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحدثها فى هذا الأمر .

وتضاعفت دهشة سانين :

— أنا ؟ ! .. يافراو لينور ! ..

— نعم أنت .. أنت وحدك . فأنت الذى تصدى للدفاع عنها .. إنها ستصدقك . إنها على استعداد لتصديق كل ما تقول ، فقد عرضت حياتك للخطر فى سبيلها . أنت تستطيع أن تفتح عينيها على الحقائق — أما أنا فقد أفرغت ما فى جعبتى لتحقيق تلك الغاية — أنت تستطيع أن تقنعها بأنها ستحطم حياتها وحياتنا جميعا . وكما أنقذت أخاها من الهلاك فاعمل على إنقاذها الآن .. أنت رسول العناية الإلهية ، وأنا مستعدة أن أتوسل إليك راكعة على ركبتى ..

وهمت السيدة بالوقوف متهيأة للارتماء على قدمى سانين . فأسرع هذا إليها ليثنيها عما تعتزمه ، وصاح منفعلا :

— فراو لينور ! ماذا تصنعين بالله عليك ؟ ! ..

فأمسكت يديه بحرارة وهتفت :

— أتعدنى ؟ .. أتعدنى ..

— حاولى أن تفكرى فى الأمر يا سيدتى . كيف أستطيع ذلك ؟

— أتعدنى ؟ أم لعلك تريد أن أنطرح فى هذه اللحظة على قدميك ؟ .

وحار سانين فيما يفعل . فهو لم يجرب من قبل مواجهة الطبع الإيطالى الحاد . وصاح فى النهاية :

— سأفعل ما تريدين . سأتحدث إلى الآنسة جيما

وانطلقت من فم السيدة صيحة فرح . وواصل سانين قوله :

— ولكنى لا أضمن نتيجة تحدثى إليها .

وتوسلت إليه فراو لينور :

— آه . لا ترفض طلبى .. لا ترفض طلبى ، فقد قطعت على نفسك عهدا . وستكون نتيجة حديثك معها خيرا .. أنا واثقة من ذلك . وعلى أية حال فقد أفرغت أنا ما فى جعبتى ، ولم تعن ابنتى بالإنصات إلى .

وسألها سانين بعد فترة صمت :

— أكان رفض چيا لزواجها بالهر كاوبر قاطعا ؟

— نعم كان قاطعا . إنها حادة الطبع كأبيها .

وردد سانين ببطء :

— حادة الطبع ؟ . چيا ! .

وأردفت السيدة .

— نعم ، نعم . ولـكنها مع ذلك وديعة كالملاك .. وسوف تطيعك . أستحضر .. قريبا؟ .. قريبا جد ؟ ؟ .. آه ياصديق الروسى العزيز ..

وغادرت مقعدها فى اندفاع . وطوقت عنق سانين بنفس الاندفاع وكان لا يزال جالسا فى كرسيه . وقالت متهدجة الصوت :

— اقبل بركات أم صادقة ... وأحضر لى الآن كوبة ماء .

وجاء لها سانين بما طلبت ، وأقسم أن يزورها فى أقرب وقت . ورافقها مشيعا حتى الشارع . ثم عاد إلى غرفته ، ووقف شاخص البصر ، ذاهلا كل الذهول .

وقال لنفسه بعد فترة : « لقد أخذت الأحداث الآن تتأثر لنفسها . آه ! ما أشد دوران رأسى » . ولم يحاول أن ينظر فى قرارة قلبه باحثا عن دفين سره . واكتفى بأن يعلم أن الفوضى تشيع فى نواحى ذلك القلب الحائر ، ثم تحركت شفتاه بهـذه العبارات دون أن يقصدها : «ياله من يوم ! ! .. عنيدة ! ! حادة الطبع ! ! أهى كذلك ؟ ! .. هذا وصف

أمها لها على أية حال .. ومطلوب إلى أنا أن أنصحها ؟ ! .. أنصحها هى ؟ ! .. يالها من نصيحة أقوم « أنا » بإسدائها ! ! . »

وكان رأس سانين يدور فعلا .. وقد طفت وسط إعصار تلك الأحاسيس والتأثرات والخواطر المكتومة ، صورة چيا الغالية .. تبدت له كما تبدت فى تلك الليلة الدافئة ، والمشحونة بالـكهرباء ، محاطة بإطار النافذة ، وعاكسة لألاء النجوم الخافقة .. لقد ظلت تلك الصورة منقوشة على صفحة فؤاده .

— ٢٤ —

اقترب سانين من دار مدام روزيللى بخطى غير ثابتة . وكان قلبه يدق بعنف إلى حد أنه كان يشعر بضرباته بين حناياه ... بل إنه كان يسمعها ... أى قول سيقوله لچيا ؟... وكيف سيحدثها فى هذا الموضوع؟. ودخل البيت من بابه الخلفى لا من طريق الدكان . ووجد فراو لينور جالسة فى الغرفة الصغيرة الأمامية . وظهر عليها لدى رؤيته السرور والشجو معا .

همست فى أذنه وهى ممسكة يديه الاثنتين بكلتا يديها :

— كنت أنتظرك ... اذهب إلى الحديقة فهى هناك . خذ حذرك ، فأنا أعتمد عليك .

وخرج سانين إلى الحديقة .

كانت چيا تجلس فى مقعد خشبى قريب من ممر الحديقة ، وتنقل حبات

الكراز الناضج من سلة كبيرة إلى طبق موضوع بجانبها . وأوشكت الشمس حينذاك أن تغرب ، فقد اقتربت الساعة من السابعة . وكست أشعة الغروب حديقة مدام زوريللى بالعقيق، وكانت تكسوها قبل ذاك بغلائل الذهب ، وتردد همس أوراق الشجر بين حين وحين ، وكاد لا يسمع لشدة خفوته ، وتنقل النحل من وردة إلى وردة وهو يئز أزيزاً ، وهدرت يمامة جاثمة على فرع شجرة هديرا رتيبا دون كلل أو ملل .

كانت جيما تغطى رأسها بنفس القبعة التى ارتدتها أثناء رحلة سودين وحدجت سانين بنظرها من تحت حاشية قبعتها ثم انحنت ثانية على السلة .

واقترب سانين منها ، وكان يبطىء فى خطوته كلما ازداد قربا ... و ... و... ولم يخطر بباله وقتئذ إلا أن يسألها عن سبب التقاطها الكراز من السلة ! ...

وأجابته جيما بعد إطراق :

— أنا أختار الحبات الناضجة لأطبخها وأصنع منها مربى ... أما الأخرى فسأصنع منها نوعا من الحلوى : وأنت تعلم أننا نبيع مثل هذه الأصناف من الحلوى.

وما انتهت من قولها هذا حتى ازدادت انحناء على سلتها : وظلت يدها التى كانت تحمل حبتين من الكراز معلقة بين السلة والطبق :

— أتأذنين لى فى الجلوس إلى جانبك ؟

وتزحزحت جيما عن مكانها قليلا وقالت :

— يمكنك أن تجلس

وجلس سانين إلى جانبها وساءل نفسه: « كيف أبدأ حديثى معها ؟» ولكن جيما نجدته بقولها :

— لقد اشتبكت اليوم فى مبارزة .. !

واتجهت إليه بوجهها الجميل المنفعل المشرب بحمرة الخجل .. وأى عرفان بالجميل أشع عند ذاك من عينيها ! !

— وما أهدأك مع ذلك ! إخالك لا تشعر بالخوف ..

— دعك من هذا : لم يكن هناك أى خطر يتهددنى ، فقد انقضى الأمر على أسلم وجه وأهدئه ..

وحركت جيما أصبعها من ناحية عينها اليمنى إلى اليسرى (وهذه حركة إيطالية أيضا) وقالت فى إصرار :

— لا ، لا . أنت لا تستطيع خداعى . لقد روى لى بانتاليونى كل ما حدث .

— أصدقته ؟ لابد أنه قارننى بتمثال « القائد » .

— قد تكون طريقة تعبيره مضحكة ولكن حقيقة عواطفه بعيدة عن أن تضحك ، وكذلك ما حكاه عنك اليوم ... أأقدمت على ما أقدمت عليه بسببى؟..أكان هذا منك فى سبيلى؟...أنا لن أنسى هذا الجميل أبدا.

— أؤكد لك يا آنسة جيما ...

— لن أنساه أبدا ...

وكررت هذه العبارة وهى تشخص إليه ، وتنظر فى عينيه .ثم دارت بوجهها إلى الناحية الأخرى . واستطاع ، وهى على ذلك الوضع ، أن يرى وجهها من ناحيته الجانبية ، وأدرك أنه لم ير جمالا كهذا طوال حياته ، ولم يكابد عاطفة من قبل كالعاطفة التى يكابدها فى هذه اللحظة ... كانت روحه تشتعل اشتعالا .

ومر بذهنه خاطر كوميض البرق: « والوعد الذى قطعه لأمها ؟...» وتردد قبل أن يقول للفتاة :

— يا آنسة چيا ...

— خيرا ؟ ...

وظلت تنظر فى الاتجاه الآخر ، وتلتقط حبات الكراز الناضجة ممسكة بها من عيدانها بحرص ، وتزيل ما علق بها من زوائد .. ولكن أية نبرة حنان كانت تشيع فى صوتها عندما فاهت بكلمة «خيراً » ! ! ...

وسألها سانين فى ارتباك :

— أفاتحتك أمك فى ... موضوع ؟ ... ..

— أى موضوع ؟ . .

— ألم تحدثك عنى ؟ ...

وألقت چيا فى السلة بما كان بيدها من حبات الكراز ،وسألته بدورها:

— لقد حادثتك إذن فى الأمر ! ...

— نعم .

— وماذا قالت لك ؟

— أخبرتنى أنك . . . قررت فجأة الرجوع... عن نيتك السابقة..

وطأطأت چيا رأسها ثانية . وكاد وجهها يتوارى وراء حافة قبعتها ، ولم يبد واضحا غير عنقها الرقيق الدقيق ، الشبيه بقاعدة مرمرية تحمل وردة كبيرة فى حجم رأس الإنسان .

— أية نية سابقة ؟ . .

— نيتك الخاصة . . بمستقبل حياتك . . .

— أتقصد ؟ . . . أنت تقصد هر كاوبر ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— وأنبأتك أمى أنى أرفض الزواج بهر كاوبر ؟ ...

وتحركت چيا فى مقعدها ، فاهتزت السلة ثم سقطت على الأرض . وتدحرجت منها بعض حبات الكراز إلى الممر . . ومرت دقيقة بعد دقيقة . . ثم جاء صوت چيا من جديد :

— ماذا دعاها إلى مخاطبتك فى هذا ؟

وكان سانين لا يزال يرى من چيا عنقها دون وجهها . . ويرى صدرها يعلو ويهبط فى سرعة غير عادية .

— ماذا دعاها إلى مخاطبتى ؟ . . خطر لها أنه ... مادامت الصداقة قد توشجت بيننا فى مثل هذه الفترة القصيرة ، وما دمت توليننى بعض

ثقتك ، فإن هذا قد يمكننى ... من إسداء النصح لك ... وقد يحملك على الاستماع لنصحى ..

وانزلقت يدا چيما إلى حجرها ... وأخذتا تبسطان ثنايا ثوبها . وصمتت برهة :

— وأية نصيحة تود أن تسديها إلى ياسيد ديمترى ؟

واستطاع سانين أن يرى يديها ترتجفان فى حجرها ... ولم يكن اشتغالها ببسط ثنايا الثوب إلا لمداراة ذلك الارتجاف . ووضع يده على أطراف أناملها الصفر المرتعشة ، وقال :

— چيما ... لم لا تنظرين إلى ؟ ...

والتفتت إليه فى حركة فجائية ، وأزاحت قبعتها عن وجهها ، وحدقت فيه . وفاضت عيناها من جديد بدلائل الثقة وعرفان الجميل . وانتظرت أن يبادرها هو بالقول ... ولكن مرأى وجهها الساحر خطف بصره وأربكه ... كانت أشعة الشمس الغاربة تصبغ ذلك الوجه الناضر الصبا بغلائلها الذهبية ، فبدت أساريره أشد حيوية وإشراقا من أشعة الشمس نفسها ...

— سأقبل نصيحتك أيا كانت ياسيد ديمترى.

وابتسمت ابتسامة هادئة . ورفعت حاجبيها فى حركة خفيفة ثم أردفت:

— فما هى هذه النصيحة ؟ ...

وكرر سانين قولها :

— هذه النصيحة ؟ ... انظرى ... تقول والدتك إن إعراضك عن هر كاوبر لغير سبب ، إلا أنه لم يبد « نوعا » من الشجاعة فى اليوم السابق ...

— لغير سبب إلا هذا ! ! ...

وانحنت وهى تغمغم بهذه العبارة ، والتقطت السلة الملقاة على الأرض ثم أعادتها إلى المقعد حيث كانت .

— وتقول والدتك إن فسخك للخطبة ... من الناحية العامة ... غير حكيم . فأولى بك أن تفكرى فى النتائج وتزنيها قبل الإقدام على هذه « الخطوة » . ثم إن حالة « شئونكم الخاصة » تفرض على كل فرد فى الأسرة تحمل بعض المسئوليات ...

وقاطعته چيما :

— هذه آراء « ماما » كما تقول ، وأنا أعرفها جميعها ... ولكن . ما رأيك أنت ؟!.

— رأيى أنا ؟!.

وغاص سانين فى صمت عميق . وشعر بحشرجة فى حلقه ، وضاق بنفسه ، وغالب نفسه حتى قال بصعوبة :

— أنا أيضاً ... أحسب أن ...

واعتدلت چيما فى جلستها :

— أنت أيضاً ؟!. أنت ؟!.

— نعم ... ولكنى أقصد ...

وعجز سانين عن إضافة كلمة جديدة واحدة . فقالت جيما :

— حسناً . فما دمت أنت ... أنت الصديق ... تنصحنى أن أرجع عن رأيى ... أى أن أعود إلى رأيى القديم ... فسأفكر فى الأمر ثانية .

وأعادت الكراز الذى انتقته ، ووضعته فى الطبق ، وأعادته إلى السلة دون وعى .

— وما دامت أمى تأمل أن أتبع نصيحتك ... فلربما أتبعها بالفعل .

— ولكنى ... يا آنسة جيما ... أود أولا أن أعرف الأسباب التى حملتك على ...

— سأفعل ما تريد .

وانقبض ما بين حاجبيها ، وامتقع خداها ، وعضت شفتها السفلى وأردفت :

— إنك طوقت عنقى بجميل لا أرى معه إلا أن أطيعك فى كل ماتريد . وسأخبر « ماما » أنى سأعيد النظر فى الأمر ... آه ! ... ها هى ذى آتية .

وظهرت فراو لينور بالفعل على عتبة الباب المؤدى إلى الحديقة . فقد بلغ من نفاذ صبرها أنها لم تطق الانتظار أطول من ذلك . ثم إنها قدرت أن سانين لا بد أن يكون قد فرغ وقتئذ من التحدث إلى جيما ، رغم أنه لم يقض معها إلا ربع ساعة .

وصاح سانين متوسلا ، وبدا كأنه أصيب بنوبة فزع شديد .

— لا ، لا ... بالله عليك لا تقولى لها شيئ ... انتظرى .. حتى أفضى إليك بما عندى ... سأكتب لك رسالة ... وأرجو ألا تقررى شيئا قبل أن تتلقيها ... انتظرى ...

وضغط يد الفتاة ، وقفز من فوق المقعد ، ومر مندفعا من أمام فراو لينور المشدوهة ، رافعا لها قبعته ، ومرددا كلمات غير مفهومة . وتوارى عن العيان .

وتقدمت فراو لينور صوب ابنتها :

— أرجو أن تخبرينى يا جيما ...

وأسرعت جيما إلى أمها فقبلتها ، وقالت برقة :

— يا أمى العزيزة ! ... ألا تنتظرين ولو قليلا جدا ؟! أتنتظرين إلى الغد ؟ ... أتنتظرين ؟ ... على ألا تذكرى كلمة واحدة عن الموضوع حتى الغد ... هيه ؟ ...

وغرقت فجأة فى فيض من دموعها ، ودهشت هى نفسها لذلك . أما دهشة فراو لينور الكبرى فكان سببها ذلك البشر الذى تألق من بين دموع ابنتها . كان وجه الفتاة حينذاك مشرقا بالبسمات . فسألتها أمها :

— ماذا جرى لك ؟ ... إنك لم تبك أبدا ... وها أنت ذى على حين فجأة ...

— لا أهمية لذلك يا أماه ... لا أهمية له ... انتظرى ... انتظرى فحسب ... علينا أن ننتظر نحن الاثنين حتى الغد .. ولا تسأليني شيئا فيما قبل ذلك ... ولنجن الآن الثمار فالشمس توشك أن تغيب ...

— ولكنك لن ترتكبي أية حماقة ... أليس كذلك ؟ ...

— آه ... إني رزينة كما تعلمين ...

وأومأت إيماءة ذات مغزى ، وبدأت فى جنى الثمار ، وكانت تجمعها حزمة حزمة ، وترفعها فوق وجهها المتورد . ولم تمسح دموعها ، ولكنها تركتها تجف على خدودها من تلقاء نفسها .

— ٢٥ —

عاد سانين إلى فندقه وهو يكاد يركض . فقد كان يشعر بأنه لن يستطيع الوقوف على حقيقة ما يجرى داخل نفسه إلا إذا وصل إلى غرفته ، وانفرد فيها بنفسه . وهكذا كان الأمر — فهو لم يكد يستقر فى الغرفة ، ويجلس إلى مكتبه حتى وضع مرفقيه على سطح المكتب ، وضغط وجهه بكفيه ... ثم صاح مكتئبا بصوت خارج من أعماقه « أنا أحبها ... أحبها حبا طاغيا جنونيا » . وشعر بكيانه يحترق كما تحترق جمرة انحسر عنها الرماد فجأة . ومرت برهة على تلك الحال عجب بعدها لنفسه كيف كان يجلس إلى جيما ، ويبادلها الحديث ، ولا يشعر مع ذلك بأنه يعبدها حتى طرف ثوبها ، وأنه مستعد كل الاستعداد ، على حد تعبير الشباب ، « لقضاء نحبه

تحت أقدامها ! ! ... » كان هذا اللقاء الأخير فى الحديقة حاسما . فهو حين يفكر فيها الآن لا يذكرها وقتما أطلت من النافذة محلولة الشعر ، مشرقة الوجه تحت أضواء النجوم . . . بل يذكرها وهى جالسة إلى جواره فى مقعد الحديقة . . . يذكرها حين حسرت قبعتها فجأة وغمرته بتلك النظرات التى تفيض ثقة وعرفانا بالجميل . . . وعند ذلك تسرى فى عروقه رعدة الحب . . . ويلتهب فيها الظمأ إلى الحب . . .

وتذكر الوردة التى ظل يحملها فى جيبه يومين متتاليين ، فأخرجها ورفعها إلى فمه ، وضغط بها شفتيه فى قوة محمومة إلى حد أنه جفل من ألم الضغط . إنه الآن لا يستطيع أن يعقل ، أو يفكر ، أو ينظر إلى المستقبل ويحسب حسابه . لقد انتزع نفسه من قيود ماضيه وقفز إلى الأمام .. لقد حطم رباط قاربه وابتعد عن شاطىء وحدته الرهيب . . . شاطىء العزوبة القاحل . . . منساقا مع تيار الحياة المتدفق الراقص ، غير معنى بما يحدث أو مستفسرا عن وجهته ، أو مستوثقا من أن قاربه الهش لن تحطمه الصخور . إنه لم يعد يركب الجداول التى تصفها قصة « أوهلاند » الشعرية التى كانت تهدهد أشجانه أخيرا ... وإنما يركب البحر ذا الأمواج التى لا تقاوم . وينساق معها أيان تنساق .

انتزع ورقة وسطر بها ما يأتى دون أن يشطب كلمة أو يتردد :

عزيزتى جيما ،

« أنت تعرفين بالطبع النصيحة التى أخذت على عاتقى أن أسديها إليك :

وتعرفين كذلك ما تريده أمك وما كلفتنى به — ولكن الذى لا تعرفينه ، ولا أجد بدا من الإفضاء به إليك هو أنى أحبك . . . نعم أحبك بكل ما يضطرم فى قلب عرف الحب لأول مرة ، من صبابة ملتهبة . إن هذا الالتهاب شب فى قلبى فجاءة ، وبلغ من الشدة مبلغا عجزت معه عن نحت الكلمات القادرة على التعبير عنه. وعندما جاءت إلى أمك طالبة مساعدتى كان حبى لك يتقد بين ضلوعى ، ولكنه لم يكن قد التهب بعد . ولو أنه كان ملتهبا وقتذاك كما هو الآن لرفضت على الأغلب — بحسبانى رجلا شريفا — أن أضطلع بالمهمة التى كلفتنى بها ... وهـذا الاعتراف الذى أسجله على نفسى الآن هو كذلك اعتراف رجل شريف — ومن حقك أن تعرفى أى رجل تعاملين — ثم إنه لا يجوز أن ينشأ بيننا سوء تفاهم على أى نحو . وهكذا ترين أنى لا أستطيع أن أقدم إليك نصيحة ما ... أحبك ... أحبك ... أحبك ... ولا شىء فى خاطرى أو فى قلبى غير حبى لك ؟ «د . سانين .» .

طوى هذه الرسالة بعد الفراغ من كتابتها ، وغلفها ، وخطر له بادىء الأمر أن ينادى خادم الفندق ويكلفه بحملها إلى جيما . ولكنه قال لنفسه « لا ، فهذا التصرف غير سليم ... أأكلف إميل بذلك ؟ . . . ولكن هذا التصرف ليس خيرا من سابقه ، فالذهاب إلى متجر هركلوبر ... والبحث بين المستخدمين عن إميل ! ! . لا ... ثم إنه يكون على الأغلب قد غادر المتجر الآن ... » .

وضع قبعته على رأسه وهو لا يزال يفكر فى الأمر ، وما خرج من عطفة ودخل عطفة أخرى حتى وجد نفسه ، لفرط سروره ، أمام إميل الذى كان يحمل حقيبة من الجلد تحت إبطه ، ولفافة من الورق فى يده ، ويجد فى السير متجها إلى داره . وخطر لسانين أن القول القائل « إن لكل عاشق طالعا سعيدا » لا يخلو من الصدق .

والتفت إميل ، فما رأى سانين حتى أسرع إليه .

ولم يمكن سانين الصبى من الاستسلام لفورة عواطفه ، وناوله الرسالة موضحا له ما يجب عمله لضمان وصولها سرا إلى أختـه . وأنصت إميل باهتمام إلى قول صاحبه :

— احرص على ألا يراك أحد ...

واتخذ وجه سانين وهو يقول ذلك طابع الجد والخطورة ، ونطقت قسماته بأن هذا السر الذى لا يعرفه أحد يجب أن يظل طى الكتمان :

— نعم ، ياصديقى ...

واعترى سانين شىء من الارتباك،وربت على كتف إميل وهو يردف:

— وأرجو أن تحمل إلى الرد ... أتعدنى بذلك ؟ ... هذا فيما إذا كان هناك رد ... وسألزم دارى . . .

وهمس إميل فى أذنه مسرورا :

— لا تقلق بالك ..

وانصرف عدوا وهو يتلفت ويومىء لسانين .

وعاد سانين إلى غرفته ، وارتمى على المقعد المستطيل دون أن يوقد الشموع . وحمل رأسه بين يديه ، واستسلم لخوالج الحب الجديد الذى اعترف به ، والذى يستعصى على الوصف . فلن يعرف عذوبته الشجية إلا من يكابده ، ، أما من يجهله فلن يغنيه عن التجربة أى وصف .

وفتح الباب ، وأطل إميل برأسه وقال همسا :

— جئتك بالرد ... ها هو ذا .

ورفع ورقة مطوية إلى أعلا .

قفز سانين من مقعـده ، وانتزع منه الرسالة . وقد بلغ من جموح عاطفته أنه لم يعـد يفـكر فى كتمانها ، وفى التزام الوقار حتى أمام هذا الصبى الذى هو أخوها.. ولا شك أنه لو استطاع كبح جماح نفسه أمامه لما توانى عن ذلك .

خطا صوب النافذة ، وقرأ على ضوء مصباح الشارع القـائم أمامها هذه الأسطر :

« أرجوك ... أتوسل إليك ألا تحضر غداً ... لا تحضر طوال يوم غد ... هذا أمر ضرورى ... أمر ماس ... وسنتخذ بعد ذلك قراراً .. إنى واثقة من أنك ستلبى طلبى ... لأنك ..؟ جما

قرأ سانين الرسالة ثم أعاد قراءتها ... وبدا خطها فى عينيه غاية فى اللطف وفى قوة التأثير ! والتفت إلى إميل بعد أن أطرق قليلا ، وناداه بصوت عال . وكان الصبى يقف بعيداً ، منحياً وجهه ، لشدة حرصه على

أن يظهر بمظهر الكتوم ، شاغلا نفسه بخربشة الحائط .

أسرع الفتى إلى سانين هاتفا :

— أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك ؟

— اسمع ياصديقى ... أتستطيع حضرتك ...

واعترض إميل كسيف البال :

— لم لا ترفع الكلفة فى مخاطبتى ؟..قل : «أنت» بدل «حضرتك»

وأجاب سانين ضاحكا :

— حسناً

قفز الغلام طروباً . واستطرد سانين :

— اسمع ياصديقى...أرجو أن تقول لها — وأنت تعرف من أعنى — إن الأمور ستسير وفق مشيئتها ...

وزم إميل شفتيه ، وهز رأسه فى جد ، وواصل سانين قوله :

— وأنت ؟.. كيف ستقضى يوم غد ؟..

— أنا ؟.. كيف تريدنى أن أقضيه ؟..

— احضر إلى فى الصباح مبكراً ... إذا أمكنك ذلك ... وسنقوم بجولة حول مدينة فرانكفورت . ماذا ترى فى هذا الاقتراح ؟...

وقفز إميل طروبا مرة أخرى ، وقال :

— أرى رأيك . وهل هناك ما هو أمتع من ذلك ؟... جولة معك فى الخلاء !.. إن تحقيقها أشبه بتحقيق معجزة...سأحضر ولاشك..

— وإذا ' د ن أهلك منعوك من الخروج ...

— لن يمنعونى ...

— اسمع ... لاتقل لأحد — وأنت تعرف من أقصد — أنى دعوتك إلى تلك الجولة ...

— وماذا يدعونى إلى ذلك ؟... سأخرج فحسب . دون أن أقول شيئا . وهل فى ذلك ضير ؟

وقبل إميل سانين بحرارة ، وجرى إلى الشارع .

وقضى سانين مدة طويلة وهو يذرع غرفته جيئة وذهابا ، ولم يأو إلى فراشه إلا فى ساعة متأخرة من الليل . واستسلم مرة أخرى لأحاسيس الحب اللذيذة النافذة ، ولوخزاته التى يغمر بعضها القلب سرورا ، ويملؤه بعضها الآخر خوفا من الحياة الجديدة التى تنتظره .

وقد أبهجه أنه دعا إميل إلى زيارته فى اليوم التالى للقيام بتلك الجولة وقضاء اليوم بطوله فى صحبته . فإن هذا الصبى يشبه أخته كل الشبه ... وقال سانين لنفسه : « سيذكرنى بها . » بيد أن هناك سؤالا كان يحيره أكثر من أى سؤال آخر ، وهو « كيف أنه كان أمس يختلف كل الاختلاف عما هو اليوم ؟... كان شخصا آخر ! ! . » وسبب حيرته أنه توهم وهو فى عنفوان هيامه أن حبه لجيما ليس بالشىء الجديد الطارىء ... فقد أحبها دائما بمثل القوة التى يحبها بها اليوم .

— ٢٦ —

ظهر إميل على باب سانين فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى ممسكا برباط الجرو تارتا جليا . ولو كان هذا الفتى ألمانى الأصل لما كان أكثر دقة فى المحافظة على مواعيده . وقد كذب على أهله فزعم لهم أنه سيذهب كعادته إلى المتجر بعد أن يمر بسانين ويتمشى معه قليلا قبل الإفطار . وفيما كان سانين يرتدى ملابسه أخذ إميل يحدثه عن جيما — فى شىء من الحرج بالطبع — ويذكر له مشادة وقعت بينها وبين هركلوبر . ولكن سانين لاذ بصمت صارم . وظهر على الغلام أنه أدرك سبب وجوب الكف عن ذكر أية كلمة عن هذا الموضوع ، أو الإدلاء بأية إشارة إليه . وانطوى على نفسه . وكان وجهه يتخذ بين حين وحين هيئة الجد .

وبعد أن تناول الصديقان القهوة ، سارا — على الأقدام طبعا — إلى «هاوزن» وهى قرية محاطة بالأشجار ، لا تبعد كثيرا عن فرانكفورت . ويستطيع الإنسان أن يرى منها سلسلة جبال « توناس » .

قضيا يوما بديعا كانت شمسه الساطعة تدفئهما دون أن يلفحهما حرورها . وسرى النسيم خلال أوراق الشجر الخضر طربا بوقع حفيفها . وألقت السحب المتموجة ظلالها الخفيفة السابحة فوق أديم الأرض . وترك الفتيان القرية وراءهما ، وأخذا يطويان الطريق المستوى الناعم ، ودخلا فى جوف غابة ، فهاما فى أرجائها طويلا . ثم عادا إلى القرية فتناولا فى أحد مطاعمها غداء دسما . ولم يهدآ ، بل صعدا إلى قمة تل ، وأخذا يتمليان المنظر الذى

تجلى تحتهما . ثم طفقا يلقيان الحجر ويرقبان وقوعه من فوق المنحدر ، ويصفقان طربا بمنظر تدحرجه المضحك ، ولم يكفا عن ذلك حتى احتج عليهما أحد المارة بأسفل الجبل ، وانبرى يسبهما بصوت عال مجلجل . وتمـددا على الحشائش القصيرة الجافة المصفرة . وعادا بعد ذلك إلى إحدى حانات القرية فشربا الجعة . ثم غادراها وركضا متسابقين . وتباريا بعد ذلك فى القفز الطويل ، وصادفا مكانا يجلجل فيه رجع الصدى ، فتبادلا الكلام مع الأصداء ، وتعالى غناؤهما وصياحهما . ثم أخذا ينزعان بعض الأغصان من الشجر ، ويزينان قبعتيهما بالزهر . بل لقد رقصا .

واشترك تارتاجليا معهما فى كل ما قاما به ، ولكن على قدر طاقته وقدرته . فإذا كان لم يشترك فى إلقاء الحجر فقد كان يتدحرج وراءه ، وإذا كان لم يغن فقد ساهم فى الغناء بالنباح ، بل لقد أقدم حتى على شرب الجعة ، وإن كان لم يبد عليه الارتياح لشربها (كان أحد الطلبة يقتنى ذلك الجرو فيما مضى ، وهو الذى عوده شرب الخمر)ولم يكن يطيع إميل بقدر إطاعته لأمر « سيده » بانتاليونى ، فكان يكتفى بتحريك ذنبه كلما طلب إليه إميل أن يتكلم (أى ينبح) ثم يدلى لسانه الأحمر الملوى من طرفيه .

ولم يعوز الشابين الكلام . ففى أول الرحلة افتتح سانين الحديث (بحسبانه أكبر من زميله سنا) ، فناقش موضوع « القضاء والقدر » ، ثم موضوع موهبة الإنسان (طبيعتها وعناصرها ومغزاها) . ولكن الحديث لم يلبث أن تحول إلى موضوعات أبسط مضمونا . وأخذ إميل يسأل أستاذه وصديقه عن روسيا ، وعن المبارزات التى تجرى هناك ؟

وعن نسائها وهل هن جميلات ؟ ... وعن اللغة الروسية ومدى صعوبة تعلمها ؟ وعن شعوره حين صوب الضابط غدارته إليه ... وجاء دور سانين فى السؤال ، فطفق يسأله عن أبيه وأمه ، وعن مشاغل الأسرة من الناحية العامة ، باذلا ما فى وسعه ليصرف نفسه عن ذكر جما ،فى حين أن ذكرها هو وحده الذى كان يشغل باله . وفى الحق إنه لم يكن يفكر فيها بالذات ، وإنما كان يفكر فى غده ... فى ذلك الغد الغامض الذى سوف يحمل إليه سعادة لا مثيل لها ... سعادة ما أبهاها وما أروعها !!..
وخيل إليه أن ستارا خفيفا شفافا ينسدل حينا بعد حين بين خاطره وبين الصور التى تتراءى له ... وقد رأى من وراء ذلك الستار وجها فى ريعان الصبا ، ثابتا فى مكانه ، ملائكى القسمات ، تداعب شفتيه ابتسامة رقيقة ، ولكن عينيه المسبلتين تصوبان نظرة ذات قسوة متصنعة . . . لم يكن مارآه وجه جما ، ولكنه وجه السعادة نفسها . . . وفى النهاية حانت الساعة الموعودة . . فإذا الستار الشفاف ينحسر عن الوجه المتألق ، وإذا الشفتان تنفرجان ، والعينان المسبلتان تتفتحان وتنظران إليه . . . لقد لمحته العناية الإلهية ...فأى نور أبهى من نور الشمس أضاء أعماقه!! .. وأى نشوة سرمدية ، وطرب طاغ غمرا جوانحه ! ! ...

كان كلما فكر فى الساعة الموعودة . . . الساعة التى يحتفظ له الغد بها .. أهمل قلبه خفقة من خفقاته نظير خفقة سعادة تحل محلها ، ونظير خفقة تلهف متفاقم متشوف إلى النشوة المأمولة .

بيد أن هذه اللهفة وهذا التشوف لم يعكرا الصفو الذى نعم به فى ذلك اليوم ... كانا متمكنين منه ولـكنهما لم يقفا فى سبيله ... لم يمنعاه من تناول وجبة ثانية من الطعام مع إميل . وكان هناك خاطر يمر بذهنه بين آونة وأخرى كومض البرق ... كان هاتف يهتف له : « آه لو عرف الناس مذاق هذه السعادة ! ! » ... ولـكن لهفته وتشوفه لم يمنعاه حتى من لعبة « القفز فوق الظهور » . لقد أقبل على هذه اللعبة مع إميل بعد الغداء ، واختار لها أرضا منبسطة مكسوة بالحشائش ... ولـكنه بينما كان يرفع رجليه ، ويحلق كالطير ليقفز من فوق ظهر إميل ، وبينما كان تارتا جليا يصاحب تلك الحركات بنباحه ... رأى (أى سانين) ما أربكه وأفزعه ... رأى فى طرف الملعب ضابطين عرف فيهما خصمه فى المبارزة وشاهد ذلك الخصم ... رأى ڤون دونهوف وهرڤون ريختر ، وكان كل منهما يضع عوينة واحدة على عينه اليسرى وينظر مقطبا ... انتصب سانين على قدميه ، ودار فتناول سترته (وكان قد خلعها قبل اللعب) ، وارتداها بسرعة ، وطلب إلى إميل أن يحذو حذوه ففعل ، وسارع كلاهما إلى خارج ذلك المـكان .

ووصلا إلى فرنـكفورت فى ساعة متأخرة .

وقال إميل وهو يودع سانين :

— سيلوموننى على هذا التأخير ... ولـكنى لا أعبأ بذلك ، فقد قضيت يوما ممتعا ... ممتعا جدا .

ووجد سانين لدى عودته إلى الفندق رسالة من چما فى انتظاره . وكانت تحمل له بشرى موعد لقاء صباح اليوم التالى فى بستان من البساتين التى تحيط بمدينة فرانـكفورت من كل ناحية .

لـكم اشتد خفقان قلبه ! ! . . وكم تضاعف رضاه عن نفسه لأنه حقق لها رغبتها كاملة ! ! . أى ذخر يعده به ذلك الغد الفريد ؟ . . المستحيل ؟ . . المحتوم ؟ ! ! . . بل أى ذخر لايعده به ذلك الغد ؟ !!...

سبر رسالة چما بعينيه . وأذكرته خطوط حرف « الجيم » الذى ذيلت به رسالتها اعتدال أصابعها ، وتناسق أجزاء يدها ... ثم تذكر بحسرة أنه لم يضغط هذه اليد بشفتيه ولو مرة واحدة ... وطفق يناجى نفسه : « إن حقيقة الإيطاليات تخالف المعروف عنهن ... إنهن متواضعات حصينات لاسيما چما ، فهى ملاك .. بل إلهة ... بل هى أطهر من تماثيل القديسات المرمرية ... »

« ولـكن سيحين الموعد ... وهو بعد بعيدا ... »

كان رجل واحد يشعر تلك الليلة فى فرانـكفورت بالسعادة الحقة . ورغم أن عينه قد غفلت إلا أنه يتمثل قول الشاعر :

« نعم أنام .. ولـكن قلبى اليقظ يظل ساهرا ... »

لقد ظل قلبه يرف كجناح فراشة مستوية على أوراق وردة تسبح فى أضواء شمس الصيف ...

— ٢٧ —

استيقظ سانين فى الخامسة صباحا ، وانتهى من ارتداء ملابسه فى السادسة ، وبعد نصف ساعة أخرى كان يتمشى فى البستان بالقرب من جوسق سبق لچيا أن أشارت إليه فى رسالتها على أن يتم اللقاء الموعود حواليه .

وكان الصباح هادئا دافئا لم يكتمل إشراقه بعد . واغبر الجو حينا بعد حين مؤذنا بهطول المطر . ولكن سانين لم يجد على أوراق شجرة قريبة منه أى أثر للبلل . ولاحظ بعد برهة رذاذا أشبه بقطارات الندى يكسو كم معطفه ، ولكن ذلك الرذاذ كف كذلك عن الهطول . وسكن الجو حتى لكأن الكون لم يعرف الهواء قط . وتعطلت الأصوات فلم تنتقل من مكان إلى آخر . وتراكم عن بعد ضباب أبيض . ونفذ فى الجو عبير الورود وزهور الأعشاب البيض .

ولم تكن الحوانيت قد فتحت أبوابها بعد . ولكن طلائع المارة أخذت تظهر فى الطرقات ، وتعالى من وقت لآخر صوت عجلات عربة تسير وحيدة فى البكور . بيد أن البستان كان خاليا من رواده ، ولم يظهر فيه إلا بستانى أخذ ينقر أحواض الزرع بمعوله فى بطء وتراخ ، وامرأة عجوز عرجاء ذات رداء أسود كانت تجتاز الممر الموازى للبستان . ووقتما رأى سانين تلك المسكينة عن بعد لم يخطئ ويظنها چيا ولو للحظة من الزمن ، ولكن قلبه قفز مع ذلك فى صدره إذ رأى شخصا يقبل صوبه ... وقد تتبعها بنظره حتى توارت .

ودقت ساعة برج الكنيسة سبع دقات معلنة موعد اللقاء ، فتسمر سانين فى مكانه ... أمن المحتمل ألا تحضر ؟ ؟ ... وسرت قشعريرة باردة فى بدنه . ثم سرت فيه بعد لحظات قشعريرة مماثلة ، وإن اختلف سببها ، لقد التقطت أذنا سانين وقع أقدام ، وحفيف ثوب حريرى ... والتفت إلى مصدر الصوت ... وإذا هى بعينها مقبلة صوبه ...

سارت إليه فى ممر البستان ، وكانت ترتدى سترة شهباء وقبعة سوداء . ونظرت إليه ثم دارت برأسها ، ولم تتوقف حينما وصلت إلى مكانه بل واصلت سيرها مسرعة .

وهتف بصوت مختنق :

— چيا ! . .

وأومأت إليه إيماءة خفيفة دون أن تتوقف عن السير . وتقطعت أنفاسه فأخذ يلهث . وسار وراءها بساقين لا تطاوعانه إلا بصعوبة .

جاوزت چيا الجوسق ، وعرجت على اليمين ، ومرت بنافورة يحيط بها ماء ضحل ، ويرفرف حولها عصفور ... وواصلت سيرها بين أعشاب وأشجار عالية . ثم ارتمت آخر المطاف على مقعد يتوارى خلف أغصان متشابكة . . . واتخذ سانين له مكانا إلى جوارها .

ومرت دقيقة ساد فيها الصمت . بل إنها لم تنظر إليه خلالها ، وهو كذلك لم يرفع بصره إلى وجهها ، ولكنه خفضه إلى يدها التى كانت تطوق مقبض مظلتها . . . وماذا عساهما أن يقولا ؟ . . . وهل هناك

كلمات أبلغ دلالة على ما يشعران به من وجودهما هنا فى هذه الساعة المبكرة . . . منفردين . . . ملتصقين على هذا النحو ؟ ! . . . .

وبادرها سانين بقوله بعد فترة الصمت :

— أأنت ساخطة على ؟ . . .

لم تكن هناك عبارة أسخف من هذه يبتدىء بها سانين الحديث ، وهو لم يفته ذلك ، ولكن حلقة الصمت المستحكمة قد انحطمت على أية حال . . . وعقبت جيما :

— أنا ! . . ساخطة عليك ! ! . . ولماذا ؟ ! . . . لا بالطبع .

وتسلسل قوله :

— ألا يساورك شك فى صدقى ؟ . .

— أتقصد صدق ما ورد فى رسالتك ؟

— نعم .

وطأطأت جيما رأسها ولم تجب . وأفلتت المظلة من يدها ، ولكنها سارعت فالتقطتها قبل أن تقع على الأرض . واندفع سانين فى قوله :

— آه ! . صدقينى ! . . . صدق كل كلمة كتبتها لك !

وتبدد كل أثر لتهيبه . واشتعل حماسة وهو يقول :

— إذا كانت فى هذا الوجود حقيقة . . . حقيقة مقدسة لا تدحض ، فهى حبى لك . . . هيامى بك . . . ياجيما !

واسترقت إليه النظر ، وكادت المظلة تسقط من يدها .

ومد يديه إليها متضرعا دون أن يجرؤ على لمسها ، وطفق يردد قوله :

— صدقينى . . . صدقينى ! . . . كيف أستطيع أن أقنعك ؟ ! . . .

وأجابت وهى تعاود النظر إليه :

— نبئنى يامسيو ديمترى . . . أكنت فى ذلك اليوم الذى حاولت فيه أن تنصحنى . . . أن تقنعنى — أكنت يومئذ تعلم ؟ . . . أكنت تشعر ؟ . . .

قال مدافعا عن نفسه بحرارة :

— نعم ، كنت أشعر . . . ولكنى لم أعلم . . . لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى . . . أحببتك من أول نظرة . ولكنى لم أدرك مدى ما أصبح لك من مكانة فى فؤادى . . . ثم إنى أنبئت بخطبتك ! ! . . . فأما عن المهمة التى كلفتنى بها أمك . . . مهمة نصحك ، فإنى أتساءل أولا عما إذا كان فى مقدورى أن أواجهها برفض طلبها ؟ ؟ . . . وإخال ثانيا أنى أديت تلك المهمة على نحو يتيح لك أن تحذرى . . .

ورنق الصفو وقع أقدام ثقيلة . وظهر من وراء الشجر المتسلق رجل ضخم القامة ، يحمل حقيبة كبيرة على إحدى كتفيه ، وتدل هيئته على أنه أجنبى . رمق العاشقين المتجاورين فوق المقعد بنظرة وقحة اعتادها أولئك الغرباء ، وسعل بصوت عال ، ثم واصل سيره .

واستأنف سانين حديثه بعد أن توارى الرجل :

— ذكرت لى أمك أن فسخ الخطبة لابد أن يحدث فضيحة مدوية .

قطبت چيا وهى لا تكاد تشعر بما فعلت . وأردف سانين :

— وأشارت كذلك إلى أن تصرفى مع الضابطين أتاح لألسنة السوء — إلى حد ما — أن تلوك الأقاويل التى لا تسر . ولذلك فإنى أتحمل « نوعا من المسئولية » يوجب على محاولة إقناعك بالإبقاء على خطبة هركلوبر .

ومرت چيا بيدها على شعرها ، وقالت :

— يا مسيو ديمترى ! أرجو أن تكف عن ذكر تلك الخطبة ، فأنا لن أصبح قط زوجة للهركلوبر . . إنى صارحته بفسخ خطبته .

— فسخ خطبته ! ! ومتى كان ذلك ؟

— أمس .

— أصارحته بذلك وجها لوجه ؟ . . .

— نعم . . . وجها لوجه ... فى منزلنا . . . فقد جاء أمس لزيارتنا .

— چيا ! ! . . . أهذا يعنى أنك تحبيننى أنا ؟ . . .

ودارت إليه بكليتها ، وسقطت يداها على حجرها مقلوبتين إلى أعلا .
وهمهمت بصوت أشبه بالهمس :

— أكنت أحضر إليك اليوم لو لم يكن الأمر كذلك ؟ ؟ . .

وتناول سانين يديها الحارتين ، ورفع راحتيهما إلى عينيه، ثم خفضهما إلى شفتيه ... وهتك عندئذ الستر الذى انسدل أمس أمام عينيه .. فإذا السعادة تتجلى أمامه ! ... وإذا وجهها يبدو مشرقا متألقا ! ...

ورفع سانين وجهه ليلقى على چيا نظرة مباشرة جريئة . وبادلته النظر رافعة بصرها إليه من تحت جفنين مسبلين . والتمعت عيناها وراء قناع شفاف من دموع السعادة . ولم ترتسم على وجهها ابتسامة فحسب، ولكن ضحكة ... ضحكة سعيدة صامتة .

وهم أن يضمها إلى صدره ، ولكنها تزحزحت عنه قليلا محتفظة بضحكتها السعيدة الصامتة . وهزت رأسها ... وكأنما كانت عيناها تقولان له :

— انتظر ! ...

وصاح الرجل :

— آه، يا چيا ! ياحبيبتى ! .. أكان يخطر ببالى أنك ستحبيننى ... أنت ؟ ..

وارتجف قلبه ارتجاف وتر الموسيقى ، بل تهدج وانتفض حين نطق فمه كلمة حبيبتى لأول مرة .

وأجابت چيا بصوت ناعم :

— وأنا كذلك لم يخطر هذا ببالى .

— أكان يخطر ببالى يوم مررت بمدينة فرانكفورت لأقضى فيها

بضع ساعات ، أنى سأجد فيها سعادة حياتى بأكملها ؟ ..

وسألته چيا فى شغف :

— حياتك بأكملها ؟ أهذه هى الحقيقة .. دون مبالغة ؟ ..

وأجاب وهو يشعر بحماسة متجددة :

— نعم ، سعادة حياتى بأكملها ... السعادة الأبدية .. الأبدية .

واقترب منهما معول البستانى حتى صار على بعد خطوتين من المقعد الذى يجلسان فيه . فهمست چيا فى أذن عاشقها :

— لنعد إلى دارنا . . . سويا . . أتود ذلك ؟ .

ولو أنها قالت له وقتئذ : « ألق بنفسك فى اليم . أتود ذلك ؟ لوجدته هوى إلى أعماق اليم قبل أن تتم عبارتها .

وخرجا من البستان سائرين جنبا إلى جنب ، واتجها صوب دار چيا ، وتحاشيا شوارع المدينة المزدحمة بالسكان ، واختارا شوارع أطرافها الهادئة .

— ٣٨ —

مشى سانين ملتصقا بچيا وإن كان لم ينقطع، بين حين وحين، عن التمهل فى مشيته ، والتخلف عنها بضع خطوات ، بيد أن عينيه لم تتحولا عنها لحظة ، وكذلك لم يكف ثغره عن الابتسام . وكان يبدو عليها أنها على عجل ، ولكنها كثيراً ما كانت تقف رغم ذلك بغتة دون أن يدعوها

إلى الوقوف داع . وفى الحق إنهما كانا يتحركان وكأنهما فى حلم ... كان الانفعال يصبغ وجنتيها بحمرة الورد ، ويصبغ وجنتيه بصفرة الجودى ، ذلك أن تسليم كل منهما قلبه للآخر منذ دقائق كان طاغيا غريبا رائعا إلى حد أن حياة كل منهما قد تحورت فجأة ، وتغيرت كلية ، ولم يفق كلاهما من هول ما حدث ، ولم يدركا إلا أن زوبعة فاجأتهما شبيهة بتلك الزوبعة الليلية التى كادت تلقى بكل منهما فى أحضان الآخر . بل لقد شعر سانين ، وهو يواصل سيره ، كأن چيا قد سلطت عليها أضواء جديدة ... لاحظ فى مثل غمضة العين أن لمشيتها وحركاتها حسنات لم يلاحظها من قبل ... ويالعذوبة تلك الحسنات وسحرها ! ! ... ولم يفت چيا كذلك أن نظرته إليها تغيرت هى الأخرى .

كان كل منهما يذوق طعم الحب لأول مرة ، فتجلت بين جوانحهما معجزات الحب الأول جميعها . وما الحب الأول إلا ثورة جامحة يقف فيها الصبا وراء المتاريس ، ويحطم رتابة الحياة اليومية فى مثل ومض البرق ، ويرفع علمه المشرق الخفاق ، موطنا النفس على استقبال ما يجود به القدر ، سواء فى ذلك الموت والحياة ، وعلى الاحتفاء به فى حماسة ملتهبة .

وقال سانين فجأة :

— من هذا ؟ أهو رجلنا الهرم ؟ ...

وأشار إلى رجل يمر بهما مسرعا مداريا وجهه حتى لا يلحظه أحد ، ووجد الفرصة لإشباع حاجته إلى محادثة چيا فى موضوع غير موضوع الحب

الذى أصبح مسلما به ... مصونا مقدسا . كان محتاجا إلى محادثتها فى موضوع مختلف كل الاختلاف ... وأجابت چيا على سؤاله :

— نعم ، إنه پاتاليونى ... وأغلب الظن أنه ظل يتبعنى منذ مغادرتى الدار فى الصباح . وقد قضى طوال أمس وهو يسير فى أعقابى ... يخيل إلى أنه حزر ...

وقال سانين :

— أحزر سرنا ؟ ...

وكانت عبارة چيا الأخيرة قد أثلجت صدره ، وهل كان هناك وقتئذ قول تقوله چيا لا يشيع الجذل فى كيانه ؟ !! ...

وطلب إليها أن تحكى له تفاصيل ما حدث فى اليوم السابق .

وسارعت على الفور إلى سرد حكاية مرتبكة تقطعها البسمات العذبة ، والتنهدات القصيرة ، والنظرات المتألقة الخاطفة التى كانت تتبادلها مع سانين . وقالت له فيما قالت إن أمها حاولت بعد الحديث الذى جرى بينهما فى الحديقة ؛ أن تستدرجها إلى البوح بما استقر رأيها عليه . ولكنها (أى چيا) لم تشف غليل أمها ، وطلبت إليها مهلة أربع وعشرين ساعة تعلن بعدها قرارها . وكم عانت فى سبيل التمسك بتنفيذ ما اعتزمته ، وكم ذللت من صعاب ... وفى خلال تلك المهلة زارهم هر كلوبر دون توقع ، وكان أشد أناقة وضبطا لحركاته من العادة ... وروت چيا لسانين كيف عبر هر كلوبر عن تقززه من تصرف الروسى الغريب ، وتقحمه غير

المغتفر . وكان يقصد بالطبع تلك المبارزة التى يعدها (على حد تعبيره) مهينة له ، وقد طلب أن يوصد بابها فى وجه ذلك الدخيل المعتدى لأنه (وهنا تغير صوت چيا وحركاتها إذ أخذت تقلد ذلك المتصنع التافه بدقة) « مس شرفى، وأظهرنى أمام الناس بمظهر العاجز عن حماية سمعة خطيبتى فيما إذا بدا لى ذلك أليق وأفضل . وستعلم غدا فرانكفورت بأسرها أن غريباً بارز أحد الضباط بسبب خطيبتى . إنها لوصمة تلطخ شرفى !»

واستأنفت چيا حكايتها قائلة « وتصور أن أمى كانت تؤيده فى كل ما يقول ... ولكنى لم أتردد فى إخباره أنه لم يعد هناك داع للقلق على شرفه وشخصه وما قد يلحقه من إهانة بسبب أقاويل الناس عن خطيبته ، لأنه لم تعد له خطيبة تسبب هذه المضايقات . وقد صارحته بأنى لن أكون له زوجة قط ... وأعترف لك بأنى كنت أود أخذ رأيك قبل فسخ الخطبة على هذا النحو ... ولكنه جاء إلينا ... ولم أستطع كبح جماحى . أما والدتى فقد صرخت فزعا ... وتركتهما ودخلت الغرفة الأخرى ثم عدت بخاتم الخطبة فسلمته إليه — ولعلك لم تلحظ أنى نزعت ذلك الخاتم من إصبعى منذ يومين — وقد غاظه ذلك أشد الغيظ ، ولكن غروره وخيلاءه حالا دون لجاجة فى القول ، وسرعان ما غادر منزلنا . وكان على بالطبع أن احتمل حنق أمى ... وآلمنى أشد الألم أن أراها تكابد ذلك العذاب . بل لقد خيل إلى وقتئذ أنى تسرعت فيما أقدمت عليه . ولكنك أدرى بسر ما حدث ... فقد أفصحت رسالتك عن المخبوء ... بيد أنى كنت على علم به حتى قبل الرسالة .. » .

ودس سانين هذا السؤال :

— أكنت على علم بأنى أحبك ؟...

— نعم ، كنت أعلم أنك تحبنى .

ومضت چيا تثرثر. وكم تاهت فى الكلام فتحدثت كيفما اتفق . وكانت تخفض صوتها وتبتسم ، فإذا مر عابر سبيل توقفت فجأة عن القول ... وأنصت سانين إليها مأخوذا بنشوة الحب ، مفتوناً بصوت حبيبته كما فتن فى اليوم السابق بخطها .

وعاد الكلام يتدفق من فمها مختلطا بعضه ببعض :

— أمى منزعجة أشد الانزعاج . وهى لا تستطيع أن تعقل أنى أمقت رجلا مثل هر كلوبر، وأنى لم أقبل خطبته بدافع حبى له، ولكن قبلتها إذعانا لها بعد إلحاحها على أن أرضى به خطيبا ... وهى تشك فيك ... وأصارحك القول إنها على يقين من أنى مغرمة بك . بيد أن هذه الفكرة لم تخطر ببالها يوم طلبت إليك أن تنصحنى ! . . ياله من طلب عجيب ! ! أليس كذلك ؟ وهى تجدك اليوم خبيثا مرائيا . وتقول إنك كنت تستغل ثقتها . ولذلك فهى تحذرنى منك ، وتزعم أنك ستخدعنى كما خدعتها .

وصاح سانين :

— ولكن . . . ألم تخبريها يا چيا ! !

— كلا بالطبع ... أكان يجوز لى ذلك قبل التحدث إليك فى الأمر ؟.

ومد سانين يديه صائحا :

— أرجو يا چيا أن تصارحيها الآن على الأقل بكل شىء .. اذهبى بى إليها ... فأنا حريص على أن أثبت لها أنى لست مخادعا ...

وكان صدره يخفق بالمشاعر المتقدة الكريمة . وقالت چيا وهى تنظر إليه محملقة :

— أتعنى أنك تريد الذهاب إلى أمى الآن ؟ ... أمى التى تؤكد أنك لن ... أنه لن تكون بيننا علاقة وثيقة ، وأن الأمر فيما بيننا سيتمخض عن لا شىء ! ...

وكانت هناك كلمة عجز فم چيا عن النطق بها رغم أنها ظلت تلذعه مثل كى النار . ولم يفت سانين ذلك ، وشعر بمتعة السبق إلى النطق بها وهو يقول :

— إن الزواج بك يا چيا ، وقبولك لى زوجا ... إنى لا أتصور سعادة أتم من تحقق ذلك .

ولم تعد هناك حدود لحبه ومروءته وتصميمه ...

وكانت چيا قد توقفت قليلا وهى تنصت إليه فما سمعت قوله هذا حتى عاودت السير بخطوات أسرع من ذى قبل ... بل لقد كان يبدو أنها تحاول الهرب من فرط السعادة الغامرة ، غير المتوقعة ، وغير المحتملة لشدة وقعها .

بيد أن ركبتيها ارتجفتا فجأة ، فقد ظهر لها هر كلوبر من ركن الشارع المقابل الذى لا يبعد غير خطوات . وكان يرتدى قبعة جديدة ،

ومعطفا جديدا ، واعتدل قده اعتـدال الرمح ، والتوت خصائل شعره التواء شعر الكلاب الصغيرة . ووقعت عينه فى أول الأمر على چيا ، ثم على سانين ، فأدار وجهه الوسيم وهو يقبل عليهما مختالا ... ويبدو أنه نخر فى صوت مكتوم . . . وأذهلت المفاجأة سانين لبرهة قصيرة ، ولكنه عندما التفت إلى هر كاوبر الذى اتخذ سيماء الاستخفاف والدهشة والشفقة ، ورآه مورد الخدين على ذلك النحو المبتذل ، تملكته فورة من الغضب ، واتجه إليه وهو يوسع الخطى .

ولكن چيا أمسكت به من ذراعه ، ثم تأبطتها بحزم ... وصوبت نظرة صريحة إلى خطيبها السابق ، فضاق جفناه ، وانقبض ظهره ، وانحرف عن الطريق وهو يتمتم من بين أسنانه : « النهاية المألوفة لكل أغنية » . ومر بهما متبخترا رشيقا كعادته .

وتساءل سانين وهو يهم بالهجوم عليه :

ـ ماذا يقول هذا الوغد ؟

ولكن چيا ثنته عن عزمه ، وحملته على مواصلة سيره وهى لا تزال متعلقة بذراعه .

وظهر دكان « روزيللى » عن بعد . وتوقفت چيا عن السير ثانية ، وسألت سانين :

ـ ديمترى ! . . مسيو ديمترى ! ! . . إننا لم ندخل الدار بعد ، ولم نفاتح أمى فى الأمر ... فأمامك فسحة من الوقت للتروى ، وإذا ... أعنى أنك لا تزال حرا يا ديمترى .

واقتصرت إجابة سانين على اقتيادها إلى داخل الدار ، وضغط يدها على صدره بقوة .

وصاحت چيا عندما دخلت على أمها الغرفة مع سانين :

ـ أمى ! . . أمى ! لقد جئت إليك بالرجل الحق ...

— ١٩ —

لو أن چيا أنبأت أمها بأنها جلبت لها وباء الكوليرا ، أو جلبت لها الموت نفسه ، لما قابلت فراو لينور النبأ بيأس أشد من اليأس الذى اعتورها وقتذاك . فقد انزوت فى ركن من الغرفة ، وجلست هناك فى مواجهة الحائط ، وانفجرت باكية . بل لقد ولولت كما تولول الفلاحة الروسية وهى تودع جثة زوجها أو ولدها . وأربك ذلك چيا فى أول الأمر ، وغلبها على أمرها إلى حد أنها لم تتوجه إلى أمها ، بل تسمرت وسط الغرفة فى ذهول . أما سانين فقد طاش صوابه ، وتهيأ هو نفسه للبكاء . واستمر عويل الأرمل ساعة كاملة دون أن يجدى معها عزاء . وقرر پانتاليونى أن يغلق باب الدكان حتى لا يدخله غريب ـ ومن حسن الحظ أن الساعة كانت مبكرة ، ولم يحن بعد وقت تردد العملاء ـ وذهل الرجل الهرم لما جرى ... وهو لم يحبذ تصرف چيا وسانين على أساس تسرعهما فى اتخاذ هـذا القرار السريع بشأن مستقبل حياتهما . ولكنه كان فى قرارة نفسه مرتاحا لهذا التصرف ، ومستعدا لمناصرتهما فى حالة حاجتهما إلى نصرته ، فقد كانت كراهيته لهر كاوبر شديدة إلى أقصى حد . وكان

إميل يعد نفسه واسطة خير بين شقيقته وصديقه ، وشعر برضاه عن نفسه للنهاية السعيدة التى انتهت إليها الأمور . ولم يكن فى وسعه أن يدرك السبب الذى دفع أمه إلى ذلك الغضب الشديد ، واستخلص بالبداهة أن النساء لا عقل لهن على أية حال . وكان سانين أسوأ الجميع حالا . فهو لم يحاول أن يقترب من فراو لينور إلا تعالى عويلها ، ولوحت له بيديها أن يبتعد . وعبثا صاح من بعيد معلنا أنه جاء لخطبة جيما ... وفى الواقع إن استياء فراو لينور من نفسها كان يغلب على استيائها من سانين فهى لا تريد أن تغتفر لنفسها غفلتها عما كان يجــرى حولها . وكانت تنادى من خلال نشيجها .

— لو أن جيوفان باتيستا كان على قيد الحياة لما حدث شىء من هذا .

وقال سانين لنفسه . « رباه ! ما الأمر ؟ ! ... إن ما يحدث مجرد سخف ! » ولم يجرؤ على التطلع إلى جيما ، وهى كذلك لم تستطع أن ترفع بصرها إليه ، وهدهدت جزعها بالانصراف إلى أمها تلاطفها وتسترضيها . وكانت فراو لينور فى أول الأمر تدفع ابنتها بعيداً عنها كما كانت تدفع الآخرين كلما حاول أحد الاقتراب منها لتهدئة جأشها .

وخفت حدة العاصفة رويداً رويداً حتى هدأت . وتوقف عويل فراو لينور ، وسمحت لابنتها أن تقودها من ركن الغرفة إلى مقعد وثير قريب من النافذة ، وأن تسقيها جرعات من الماء المعطر بروح البرتقال وسمحت لسانين — لا ، لم تسمح له أن يقترب منها ... ليس هذا ...

وإنما سمحت له أن يبقى فى الغرفة (كانت قبل ذلك تكرر طلبها إليه أن يبارح الغرفة فوراً) ، وكفت عن مقاطعة أقواله ، وانتهز العاشق المتدله فرصة الهدوء الطارىء فأبدى من زلاقة اللسان ما لفت إليه انظر . ومن المشكوك فيه أنه كان يستطيع مطارحة جيما نفسها بما يكنه لها من أعمق المشاعر وأطيب التمنيات فى مثل قوة الإقناع هذه ، لقد عبر عن أصدق الأحاسيس وأشرف النيات التى لم يختبر نظيرها غير « ألمافيفا » فى قصة حلاق إشبيليا . وهو لم يحاول أن يكذب على فراو لينور ، أو يكذب على نفسه فيخفى مآخذ خطبته لجيما ، بيد أن تلك المآخذ لم تكن فى الواقع إلا سطحية . فهو حقا غريب ، وصلته بالأسرة قريبة العهد ، ولا يعرف أحد من أفرادها شيئا عن حياته وعن إيراده ، ولكنه كان على أتم استعداد لتقديم الأدلة الوفيرة على أنه رجل محترم ، وغير معدم . وهناك كثيرون من مواطنيه يمكن أن يؤيدوا ذلك كل التأييد. وهو يأمل أن يوفر لجيما أسباب السعادة ، وأن يتمكن من تعويضها عن فراقها لأهلها بمختلف ألوان المتعة .. ولكن كلمة « الفراق » لم تكد تخرج من فمه حتى أفسدت كل شىء ، فإذا فراو لينور ترتجف من رأسها إلى قدميها ، وتتمايل على مقعدها ... ولم يتوان سانين عن استدراك ما قاله بوصف ذلك الفراق بأنه فراق مؤقت ، بل لعل الحالة لا تستدعى حدوث فراق ما .

وصادفت فصاحة سانين آذانا منصتة . وأخذت فراو لينور تنظر إليه بعينين خلتا من دلائل النفور والغضب — وإن احتفظتا بمعانى العتب والحسرة — ثم سمحت له بالاقتراب منها ، بل لقد أذنت له فى الجلوس إلى

جانبها (وكانت جيا تجلس فى الجانب الآخر) ثم عاتبته بالقول بعد عتاب النظر ، ودل ذلك على أنها بدأت تلين . وطفقت تشكو حظها السىء ، ولكن حدة شكواها هدأت شيئا فشيئا ، واتسمت باللين والعذوبة . وبدأت توجه مختلف الأسئلة إلى سانين وجيا ، كل بدوره . . ثم سمحت لسانين أن يضع يده فى يدها دون أن تبادر إلى انتزاعها منه . . . ثم ذرفت وابلا من الدموع مرة أخرى . . . ولكن بكاءها عبر فى هذه المرة عن معنى مغاير لما سبق . . . ثم ارتسمت على ثغرها ابتسامة حزينة ، وذكرت زوجها المغفور له ، وتحسرت على عدم وجوده فى مثل هذا اليوم . . . ولكنها قصدت كذلك من ذكره معنى مغايرا لما سبق . . . ومرت برهة أخرى فإذا الخطيبان يركعان أمامها ، وهى تضع يدها على رأس كل منهما على التوالى . . . ثم مرت برهة جديدة فإذا هما ينهالان عليها تقبيلا وتدليلا ، وإذا إميل يجرى إلى الغرفة الأخرى متهلل الوجه ويباشر صنع قراطيس الحلوى .

وأطل بانتاليونى على الغرفة ، وابتسم ابتسامة امتزج فيها الإشراق بالعبوس . ثم انثنى راجعا إلى الدكان ليفتح بابه الخارجى

— ٣٠ —

تحول قنوط فراو لينور إلى كآبة ، وتحولت كآبتها إلى استسلام فى سرعة غير عادية . بل إن استسلامها الهادئ نفسه لم يعوق فى تحوله إلى غبطة مكنونة بذلت السيدة قصاراها فى سبيل كبحها وكتمانها محافظة على

الوقار والاحتشام . والواقع أنها شعرت بميل إلى سانين منذ وقعت عينها عليه لأول مرة . وعندما اعتادت فكرة مصاهرته لم تجد فى تلك الفكرة ما يشوبها ، وإن كانت قد حسبت أن من واجبها الاحتفاظ إلى حين بسيماء القلق والانزعاج والأسى . ثم تكومت فى ذاكرتها الأحداث الهامة التى جرت فى الأيام القليلة الماضية ، ورأت من واجبها أن تمطر سانين بوابل من مختلف الأسئلة . أما سانين الذى غادر فندقه فى الصباح الباكر لمقابلة جيا ، مسوقا بدافع عاطفته السحرية ، خالى الذهن من فكرة الزواج ، فقد اضطلع الآن بدور الخاطب راضيا كل الرضى — إن لم يكن مقبلا عليه متحمسا — ولم يتوان عن الإجابة المفصلة على الأسئلة المنهالة عليه جميعها .

وعندما اطمأنت فراو لينور إلى أن صهرها الجديد ينتمى إلى طبقة الأشراف ، بل وبعدما أظهرت دهشتها من أنه ليس أميرا من الأسرة المالكة ، اتخذت سيماء الجد ، وحذرته أنها ستتحدث إليه فى صراحة تامة لأن واجب الأمومة يفرض عليها ذلك . وأجاب سانين أنه لم يتوقع منها غير الصراحة التامة ، ورجاها ألا تقتصد فى أى قول ، وألا تحرص على مراعاة شعوره .

وذكرت فراو لينور أن هركاوبر (عندما نطقت بهذا الاسم صعدت زفرة قصيرة ، وزمت شفتيها لمدة لحظة) ... هركاوبر ... خطيب جيما السابق ، يربو دخله على ثمانية آلاف جايلدر ، ويزداد هذا الدخل عاما بعد عام . وهى تود لذلك أن تعرف مقدار دخل سانين .

وتمتم سانين :

— ثمانية آلاف جايلدر ! ... هذا المبلغ يساوى عندنا فى روسيا خمسة عشر ألف روبل ... إن دخلى يقل عن ذلك بكثير . فأنا أمتلك ضيعة فى « تولا جوبرنيا » يمكن أن تغل...تغل بالفعل ، فيما إذا أحسنت إدارتها ، ما يقرب من خمسة أو ستة آلاف ... وفى حالة التحاقى بخدمة الحكومة أستطيع الفوز بوظيفة لا يقل مرتبها عن ألفين ....

وصرخت فراو لينور :

— وظيفة فى روسيا ! ! . . إن هـذا يعنى ارتحالى مع جيما إلى روسيا ! ...

وأضاف سانين بقوة :

— ولكنى أستطيع الالتحاق بوظيفة فى السلك السياسى ، فان لى بعض الأصدقاء من ذوى النفوذ . . . وهذا يعنى أن أتمكن من العيش خارج روسيا . . . بل إنى أعرض عليك ما هو خير من ذلك . فأنا أستطيع بيع ضيعتى وتوظيف ثمنها فى مشروع تجارى . . . فى توسيع دكانك مثلا .

ولم يغب عن سانين أن ما يقـوله محض هراء ، ولكن فورة من التهور جمحت به وقتذاك ، وتطلع إلى جيما التى لم ترتح إلى هذا الحديث الدنيوى فأخذت تذرع الغرفة ذهابا وإيابا . . . وتطلع إليها فإذا العقبات جميعها تتبدد فى نظره ، وإذا هو على أتم استعداد لتسوية أية مشكلة ، والقيام بأى عمل فى سبيل تجنيبها أقل مضايقة .

وقالت فراو لينور بعد تردد قصير :

— لقد عرض على هر كاوبر هو أيضا أن يمدنى بقدر من المال لتوسيع تجارتى .

وصاحت جيما بالإيطالية :

— ماما ! . . . بالله عليك يا ماما . . .

وأجابت أمها بنفس اللغة .

— يجب مناقشة هذه الأمور فى وقتها يا بنيتى . .

وظلت ترمق سانين بين حين وحين وتسأله عن إجراءات الزواج وقواعده فى روسيا ، وعما إذا كان هناك مانع من التزوج بكاثوليكية كما هى الحال فى بروسيا ؟ (كانت ألمانيا بأسرها تذكر فى ذلك الحين ، أى حوالى عام ١٨٤٠ ، النزاع الذى قام بين الحكومة البروسية ورئيس أساقفة كولونيا حول الزواج المختلط) وبدت عليها دلائل الارتياح عندما علمت أن ابنتها ستنتظم فى زمرة النبلاء على أثر زواجها بسـانين ، وقالت له :

— ولكنك ستضطر إلى العودة لروسيا أولا . . أليس كذلك ؟

— لماذا ؟ . :

— عجبا ! ... لتحظى بموافقة الإمبراطور على زواجك ! . .

وأخبرها سانين أن ذلك غير ضرورى قط .. ولكنه سيصر مع ذلك

إلى القيام بزيارة خاطفة لروسيا قبل الزواج (عندمانطق بكلة « الزواج» اعتصر الألم قلبه ، ونظرت إليه چيما ، وحزرت ما يحتمل فى نفسه ، وأطرقت وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل) وسينتهز فرصة رجوعه إلى وطنه لمحاولة بيع ضيعته ... بيد أنه سيعود بالمال الضرورى على أية حال.

وقالت فراو لينور .

— أتستطيع ياترىأن تأتى لى كذلك بمعطف من الفرو الاسطراخانى؟ فلقد سمعت أن فى روسيا معاطف من هذا النوع بديعة جدا ... ورخيصة جدا . . .

وصاح سانين :

— هذا يسرنى بالطبع ، وسأحضرلچيما معطفا من ذلك النوع أيضا

وأضاف إميل وهو يدس رأسه فى الغرفة .

— وجئنى أنا أيضا بقبعة من الجلد المراكشى مطرزة بخيوط فضية .

حسنا ... سأجيئك بالقبعة ... وبنعل لپانتاليونى .

وقالت فراو لينور :

— كفى حديثا عن هذه الأمور التافهة فنحن نعالج أمورا هامة .

ثم أضافت المرأة العملية ·

— هناك مسألة أخرى . لقد قلت إنك ستبيع ضيعتك ، فهل تنوى أن تبيع معها فلاحيك كذلك ؟ ...

وشعر سانين بوخزة تدمى قلبه . فقد تذكر ما قاله فى يوم من الأيام أثناء مناقشة دارت بينه وبين مدام روزيللى وابنتها عن نظام رق الفلاحين ... تذكر عباراته بنصها إذ أكد يومذاك ، مبديا أشد الامتعاض ، أنه لن يبيع فلاحيه بحال من الأحوال ، فما من قوة فى العالم يمكن أن تدفعه إلى ذلك . وهو يعد بيع الآدميين عملا يناقض الشرف والخلق الكريم ... وقال بعبارات متعثرة :

— سأبذل قصارى جهدى فى سبيل بيع ضيعتى إلى صديق أحسن به الظن ... ولعل فلاحى الضيعة يؤثرون شراء حريتهم بالمال .

وقال فراو لينور :

— هـذا أحسن حل ... ففى الحق أن بيع البشر ...

وظهر پانتاليونى وراء إميل ، وصاح :

— بربرية ... « بربارى ! ... بربارى ! ... »

وتوارى بمثل السرعة التى ظهر بها ضاربا شعره المستعار بيده ·

وقال سانين وهو يختلس نظرة إلى چيما :

— أنا أنفر من هـذا .

وخيل إليه أنها لم تسمع عبارته فقال لنفسه « حسنا ... لا بأس » .

وسارت المناقشة العملية على هذا النهج إلى قرب ميعاد الغداء ، وأصبحت فراو لينور قبيل انتهاء تلك المناقشة وديعة أليفة ، وصارت تنادى سانين باسمه دون كلفة ، وترفع له إصبعها فى إيماءة تأنيب ودى ، وتهدده بالانتقام

منه لإقدامه على خداعها . وضيقت عليه الخناق بأسئلتها الدقيقة المفصلة عن كل ما يتعلق بأسرته زاعمة أن هذه مسئلة دقيقة هامة . وفرضت عليه أن يصف لها تفاصيل حفلة الزفاف وفق ما ترسمه الكنيسة الروسية . وكانت تستسلم لنشوة مذهلة كما تخيلت ابنتها في ثوب الزفاف الأبيض ، وعلى رأسها تاج مذهب . وصاحت وقد تملكها زهو الأمومة .

— هي جميلة كأنها ملكة ... بل لا يوجد بين ملكات العالم من عادلها جمالا .

وهتف سانين :

— لا يوجد في العالم كله غير جيما واحدة .

— نعم ، ولهذا سميت جيما . (معنى «جيما» بالإيطالية : درة فريدة .)

وارتمت جيما على أمها تقبلها . ويبدو أنها لم تتنفس بسهولة إلا منذ تلك اللحظة ، وكأنما ألقى عن كاهلها عبء ثقيل .

وشعر سانين فجأة بسعادة طاغية وسرور صبياني عندما خطر له أن أحلامه التي نشأت وترعرعت في هذه الغرفة أخذت تتحقق ، بل ها هي ذي تتحقق بالفعل . وطفحت نفسه رغبة في الانتقال رأسا إلى الدكان ، والوقوف وراء منصة البيع كما فعل منذ أيام .. وحدث نفسه : « أنا أملك هذا الحق الآن ... ألست أحد أفراد الأسرة ؟ » .

ونفذ رغبته بالفعل، ووقف وراء منصة البيع ، ولبى طلبات العملاء ..

أو باع في الواقع رطلا من الحلوى لطفلتين ، ولكنه أعطاهما رطلين كاملين ، ولم يتقاض إلا ثمن نصف رطل .

وجلس على مائدة الغداء إلى جوار جيما بحسبانه خطيبها المعترف به . ولم تنقطع فراو لينور عن إبداء ملحوظاتها وآرائها العملية . ووالى إميل الضحك ، وتعلق بسانين ملحا عليه أن يستصحبه إلى روسيا . واستقر الرأي على أن يتم سفر سانين في بحر أسبوعين . وعم الفرح الحاضرين إلا بانتاليوني الذي لم يقلع عن تجهمه . وغاظته فراو لينور بقولها :

— ألم تكن أنت شاهد المبارزة ؟

وقطب بانتاليوني وازداد تجهما .

ولم تتكلم جيما أثناء ذلك إلا نادرا ، ولكن وجهها لم يبد قط أبهى جمالا وإشراقا . وطلبت إلى سانين بعد الغداء أن يخرج معها إلى الحديقة لبرهة من الزمن . وعندما وصلت في صحبته إلى المقعد الذي جلست فيه تلتقط الكراز منذ يومين توقفت عن السير وقالت :

— لا تغضب على يادمتري . ولكني أود أن أقول لك مرة أخرى إنك مازلت إلى الآن غير مقيد بشيء ...

ومنعها من أن تواصل قولها . فدارت بوجهها عنه وأردفت :

— أما ما ذكرته أمي عن اختلاف العقائد الدينية ... فانظر ...

وأمسكت بصليب مرصع بالحجر الكريم كان معلقا على صدرها ، وجذبته بقوة فانقطع الخيط الدقيق الذي كان عالقا به ، وناولتـــه لسانين قائلة :

— ما دمت قد أصبحت لك ، فعقيدتى كذلك أصبحت عقيدتك ...

وعندما عاد العاشقان إلى المنزل كانت عينا سانين مبللتين بالدموع المحتبسة . وماحل المساء حتى عادت المياه إلى مجاريها ، بل لقد لعبوا الورق.

— ٣١ —

استيقظ سانين فى اليوم التالى مبكرا ، وكان قد وصل إلى قمة السعادة البشرية . ولكن حالته النفسية هذه لم تكن هى التى أطارت النوم من عينيه ، وإنما حدث ذلك بسبب تلك المشكلة الحيوية ... تلك المشكلة الحاسمة ... مشكلة بيع ضيعته فى أسرع وقت ... وبأنسب ثمن ... كان ذلك يشغل باله ، ويعكر صفوه . وتوالت على ذهنه الخواطر متتابعة متزاحمة ، ولكن أحدا منها لم يهده إلى الحل الموفق . وخرج إلى الهواء الطلق ليرطب أنفاسه وينعش ذهنه بنسيم الصباح البليل ، مصمما على الاهتداء إلى خطة مفصلة كاملة لحل تلك المشكلة قبل مقابلة جيما .

* * *

ما هذه القامة التى ظهرت أمامه ، ثقيلة الوزن ، غليظة الأطراف ، ولكنها حسنة الهندام ؟ من هو صاحبها الذى يميل قليلا وهو يسير برجله العرجاء ؟ أين رأى هذا القذال المغطى بشعر أشبه بالكتان ؟ وهذا الرأس المنطلق من بين كتفين عريضتين ؟ وهذا الظهر اللين المكتنز؟ وهاتان اليدان السمينتان؟..أيكون هذا پولوزوف زميله فى الدراسة؟.. زميله الذى لم يره طوال الخمسة الأعوام الأخيرة ؟ وأسرع سانين فى مشيته

حتى جاوزه ، والتفت إلى الوراء فرأى وجها عريضاً يميل لونه إلى الصفرة وعينين كعينى الخنزير وإن كانتا حسنتى الرمش والحاجبين ، وأنفا قصيرا منبطحا ، وشفتين غليظتين كأنهما مدبقتان ، وذقنا مستديرا أجرد ... كان تعبير ذلك الوجه ، على العموم ، يطفح بالريبة والنكد وفتور الهمة ... أى نعم ... هذا هو إيپوليت پولوزوف نفسه .

ونادى سانين .

— پولوزوف ! إيپوليت سيدوريتش ؟ ... أهذا أنت ؟ ...

وتوقف الرجل عن المسير ، وتطامنت عيناه الصغيرتان ، وانقضت فترة سكون انحلت بعدها الشفتان الملتصقتان ، وارتفع صوت أشبه بالنغمة النشاز :

— ديمترى سانين ؟ ...

وصاح سانين وهو يشد على يدى پولوزوف المكسوتين بقفازين من جلد الماعز والمتساقطتين على جانبيه بلا حركة أو حياة :

— نعم ، هو نفسه . أأنت هنا من مدة طويلة ؟ وأين تقيم ؟ ومن أى بلد أتيت ؟

وأجاب پولوزوف فى صوت متهافت :

— جئت أمس من فيسبادن بقصد شراء بعض الحاجيات لزوجتى ، وأعود اليوم ثانية إلى فيسبادن .

— آه ، صحيح ! ... إنك متزوج ... ويقال إن زوجتك جميلة .

وأشاح پولوزوف بوجهه :

— نعم ، يقولون ذلك .

وضحك سانين قائلا :

— أراكلم تتغير . فأنت نفس الفتى غير المبالي الذي عرفته أيام الدراسة .

— ولماذا أتغير ؟ ! ...

— ويقال كذلك إن زوجتك واسعة الثراء .

وضغط كلمة « يقال » بشفتيه وهو ينطق بها . وأجاب پولوزوف باستهتار :

— نعم ، يقولون ذلك أيضا .

— وأنت ؟ ... ألا تعلم أنت ذلك ياإيپوليت سدوريتش ؟ ! .

— انظر ياشيخ ... ياديمتري ... إررر ... پاڤلوڤتش ... نعم ، پاڤلوڤتش ... إني لا أتعرض لشئون زوجتي الخاصة ...

— تتعرض لها ! ... ألا تتعرض لأي منها ؟ ! ...

وأشاح پولوزوف بوجهه مرة أخرى .

— نعم ، لأي منها ياشيخ ... فهي تسير في طريقها ، وأنا أسلك طريقي ...

وسأله سانين :

— إلى أين ؟ ...

— ليست لي وجهة معينة . فأنا الآن كما ترى أقف في عرض الطريق وأحادثك ، وبعد الفراغ من حديثي معك سأعود إلى فندق حيث أتناول إفطاري .

— أتقبل أن أصحبك ؟

— أتقصد أن تفطر معي ؟

— نعم .

— لا بأس ، تعال . فالأفضل ألا يطعم الإنسان منفردا ... ولكنك لست ثرثارا ، أليس كذلك ؟

— أظن ذلك ؟

— تعال إذن .

واستأنف پولوزوف سيره ، ورافقه سانين . وصمتت الشفتان الغليظتان من جديد ، وتمايل الهيكل الضخم في مشيته ، وحدث سانين نفسه : « كيف استطاع مثل هذا الأبله أن يصيد زوجة موسرة ؟ ! فهو لا يتمتع بثروة أو جاه أو لباقة . وكان مدرسوه وزملاؤه في الدراسة يعدونه فاتر الهمة راكد الذهن أبله شرها ، بل كانوا يلقبونه « المتساقط اللعاب » (مريل) ... ما أعجب هذا ؟ ! ... ومادامت زوجته غنية إلى الحد الذي يذكرونه — يقال إنها ابنة « مقاول » معروف — فلم لا تشترى الضيعة ؟

وهل يعقل أنه لايتدخل فى شئونها الخاصة كما يزعم ، بيد أنى سأعرض عليه بيع الضيعة بثمن مغر ... ولم لا ؟ ... وقد يكون كل هذا دليلا على أن نجمى فى صعود ! ... فليكن ... ولأجرب ... » .

وسار بولوزوف بسانين إلى أرق فندق فى فرانكفورت . ومن تحصيل الحاصل أن نقول إنه استأجر أحسن غرفة . وكانت العلب والصناديق والحزم تملأ جانبا كبيرا من الغرفة بعد أن كدست مقاعدها ومائدتها فى الجانب الآخر ...

وتمتم بولوزوف :

— هذه المشتريات جميعها لماريا نيكولايفنا ياصديق الهرم .

وماريا نيكولايفنا هى زوجته بالطبع — وتساقط على أحد المقاعد ، وحل رباط عنقه ، وقال متأوها .

— ما أشد حرارة الجو !..

ثم دق الجرس ، وعندما جاء رئيس الخدم طلب إليه إعداد فطور دسم ، وقال له :

— ولتكن عربتى جاهزة فى تمام الساعة الواحدة ... تمام الساعة الواحدة ... أسمعت ؟ ...

وانحنى رئيس الخدم بأدب جم ، وانسحب فى خضوع وخفة .

وحل بولوزوف أزرار صداره . وظهر حق من طريقة رفع حاجبيه ، ومط فتحتى أنفه ، وتغضين أنفه ، أنه بجدال الكلام وقتئذ عبثا ثقيلا ، أو أنه (أى سانين) سيضطلع بهذا الحمل وحده .

وأدرك سانين حالة صديقه النفسية ، فأمسك عن مضايقته بكثرة الأسئلة ، واقتصر على توجيه الضرورى منها . وعلم أنه قضى فى الخدمة العسكرية مدة عامين ، (لابد أن منظره فى البزة العسكرية كان عجيبا) وتزوج منذ ثلاثة أعوام . وهو يقيم منذ عام واحد خارج روسيا فى صحبة زوجته التى حضرت إلى ڤيسبادن للاستشفاء ... أو لشىء من هذا القبيل . ثم إنهما سيقصدان بعد ذلك باريس ... ولم يبز سانين صديقه فى التحدث عن ماضى حياته ، وعن مشروعات مستقبله ، ولكنه عرج مباشرة على الموضوع الذى يهمه ، وحدث صاحبه عن اتجاه نيته إلى بيع ضيعته .

وانصت إليه بولوزوف ساكنا صامتا متلفتا مرة بعد مرة صوب الباب الذى سيدخل منه الطعام . وأخيرا ظهر رئيس الخدم مصطحبا تابعين له يحملان صحافا مفضضة الحواشى ، مليئة بالأطعمة المطلوبة .

وسأل بولوزوف رفيقه وهو يجلس إلى المائدة ويثبت منشفة فى رقبة قميصه :

— أتقع ضيعتك فى منطقة تولاجوبرنيا ؟

— نعم .

— إنها تابعة لولاية يفريموف . أنا أعرفها تلك الولاية .

— وضيعتى ؟ ... أتعرفها كذلك ؟

— بالطبع ...

ثم دار برأسه إلى رئيس الخدم قائلا :

— اتنح لى هذه الزجاجة .

وحشا فمه بكمية من عجة البيض والسكر وغمغم :

— تملك ماريا نيكولايفنا ، أي زوجتي ، ضيعة في تلك النواحي. إن التربة هناك خصبة ، ولكن فلاحيك قطعوا جانبا كبيرا من أشجار ضيعتك ... وما الذي يدعوك إلى بيعها ؟ ...

— أنا في حاجة إلى المال ، وقد عولت على بيعها بثمن بخس ، والشيء بالشيء يذكر ... لماذا لا تشتريها أنت ؟

وابتلع بولوزوف كأسا مترعة من النبيذ ، ومسح شفتيه بمنشفته ، واسترسل في المضغ ثانية بصوت مسموع ، ثم قال بعد لأي :

— هم ... م ... أنا لا أشتري أرضا . أنا لا أملك المال ... ناولني الزبد ... قد تشتري زوجتي ضيعتك ، وعليك أن تفاتحها في الأمر. وإذا كنت لا تبالغ في الثمن الذي تطلبه فأحسب أنها لن تمانع كذلك في إتمام الصفقة . ما أغبى أولئك الألمان، إنهم لا يجيدون حتى طهي السمك وهو من أبسط الأمور ، ويطالبون مع ذلك بتوحيد ألمانيا !! . . خذ هذا الصنف الكريه أبعده عني .

— أتقصد أن زوجتك تدير شئونها . جميعا ... بنفسها ؟ .

— نعم ، هذا هو الواقع . أما شرائح اللحم فجيدة الطهي جرب هذه .. لقد سبق أن قلت لك يا دمتري باڤلوڤيتش إني لا أتعرض لشئون زوجتي . وأكرر لك الآن ما قلت .

وانهمك في مضغ اللحم بصوت مزعج . وقال سانين :

— هيم ... ولكن أنى لي أن أحدثها يا إيبوليت سيدوريتش ؟

— ليس هناك أسهل من هذا يا ديمتري باڤلوڤيتش . اذهب إلى فيسبادن ، وهي لا تبعد كثيراً عن فرانكفورت ... ياساقي ! ألديك معجون الخردل الإنجليزي ؟ . . يا لكم من بربر ! .. ولكن لا تضيع الوقت هدراً ياديمتري باڤلوڤيتش ، فإنا سنرحل بعد غد . دعني أملأ لك كأسك .. إن هذا نبيذ جيد .. وليس خلا .

ودبت الحيوية في وجه بولوزوف وتوردت وجنتاه ، فهو لم يكن ينشط ويشرق إلا حين يأكل أو يشرب .

وغمغم سانين .

— الواقع أني في حيرة من أمري .

— أأنت متعجل إلى هذا الحد ؟ . .

— نعم . هذه هي المشكلة يا شيخ .

— وهل أنت في حاجة إلى مبلغ كبير ؟ . .

— نعم ، لأني ... كيف أشرح لك الأمر ؟ ! . . لقد عولت على أن أتزوج ...

وأرجع بولوزوف كأسه عن فمه بعد أن هم بشربها ووضعها على المائدة . وسارع إلى القول بصوت أخشوشن من فرط الدهشة :

— تتزوج ؟ ! . . هكذا فجأة ؟ ! ...

ووضع يديه الغليظتين على بطنه .

— نعم ... وفى أقرب وقت .

— خطيبتك فى روسيا بالطبع ؟

— لا ...

— أين هى إذن ؟

— هنا ... فى فرانكفورت :

— ومن تكون ؟ . .

— هى ألمانية ... أو هى فى الواقع إيطالية مقيمة بفرانكفورت .

— أعندها مال ؟

— لا ... أبدا ...

— لابد إذن أنك تحبها حبا جما .

— يالك من فتى عجيب ! . . بالطبع أحبها حبا جما .

— وتريد المال لهذا السبب ؟

— نعم ... نعم لهذا السبب .

وابتلع پولوزوف ما فى كأسه ، ومسح فمه ، وغمس أصابعه فى كوب ماء ، ثم جففها بالمنشفة فى تؤدة وعناية ، وجاء بسيجار وأشعلها ، وتتبع سانين هذه الحركات جميعها صامتا .

وغمغم پولوزوف أخيرا بعد أن ألقى برأسه إلى الوراء ، وصعد نفسا من الدخان رفيعا كالخيط .

— ليس أمامك إلا طريق واحد ، هو أن تقابل زوجتى ، فهى تستطيع وضع حد لمتاعبك — فيما إذا طاب لها ذلك .

— ولكن كيف السبيل إلى مقابلتها ؟ ألم تقل إنكما سترحلان بعد غد ؟

وأغمض پولوزوف عينيه ، ونقل سيجاره فيما بين أسنانه ، وتأوه ثم قال :

— سأعرض عليك ما يحسن عمله . ارجع الآن إلى نزلك ، وأعد حقيبة السفر بأسرع ما يمكن ، ثم الحق بى هنا . فأنا سأبرح الفندق فى تمام الساعة الواحدة ، وفى عربتى متسع لك ... وهكذا سأذهب بك إلى زوجتى . ولكنى اعتدت أن أقيل كل يوم . وقد فرضت علينا الطبيعة النوم بعد وجبة الظهيرة ، ولا يسعنى إلا الاستسلام ... وحذار أن تقلقنى أثناء نومى .

وفكر سانين قليلا ، ثم رفع رأسه فجأة وقد حزم أمره :

— حسنا ... أنا موافق ... وشكرا . سأعود فى منتصف الساعة الواحدة لأرحل معك إلى ڤيسبادن . وأرجو ألا يغضب ذلك زوجتك .

ولكن پولوزوف كان قد بدأ يغط فى نومه ، وقال مهوما :

— لاتقلقنى .

ولم يكف عن تحريك رجليه . ثم استسلم للنوم كطفل كبير .

وألقى سانين نظرة أخيرة على ذلك الهيكل الضخم ... ذلك الرأس ، وتلك الرقبة ... والذقن المرتفع إلى أعلا مستديرا كالتفاحة . ثم خرج من الفندق ، وسار مسرعا صوب دكان روزيللى ... إذ لا بد من إخطار جما بالأمر .

— ٣٢ —

وجدها فى الدكان مع أمها ، وكانت فراولينور تنحنى وتقيس المسافات بين النوافذ بمسطرة صغيرة . وعندما رأت سانين نصبت طولها ، وحيته ببشاشة ، وإن كان قد غام عليها ظل من الارتباك ، وقالت له :

— منذ حديثك معنا أمس والخواطر الخاصة بتحسين الدكان تتوالى على ذهنى متعاقبة ، ومن تلك الخواطر أن نضع قمطرا هنا وقمطرا هناك ، ونصلهما برف زجاجى ... إن هذا هو أحدث طراز . ثم نضع ..

وقاطعها سانين هاتفا :

— عظيم ... عظيم . ولا بد من التفكير فى كل هذا . ولكن لدى حديث أريد أن أنبئكم به .

ومد ذراعا إلى فراولينور ، كما مد ذراعه الأخرى لجيما ، وقادهما إلى الغرفة الداخلية . وارتعبت السيدة إلى حد أن سقطت المسطرة من يدها . وكادت جيما تستسلم للرعب كذلك ، ولكن نظرة إلى وجه سانين أعادت إليها الطمأنينة . فقد كان وجهه ، رغم الجد المرتسم عليه ، ينم عن ابتهاج بما عقد العزم على تنفيذه .

سألهما أن تجلسا بينما ظل هو واقفا أمامهما ، وحدثهما وهو يمسح شعر رأسه ، ويومئ بيديه ، عن كل ما جرى ... عن التقائه بصاحبه پولوزوف ، وعما عرضه عليه هذا الأخير من اصطحابه إلى ڤيسبادن ، وعن احتمال بيع ضيعته . وختم حديثه بقوله :

— ولا يمكنكما أن تتصورا مبلغ ابتهاجى . إن الأمور تطورت على نحو قد يصبح معه ارتحالى إلى روسيا غير ضرورى . ثم إننا نستطيع عقد الزواج فى ميعاد أقرب مما كنا نأمل .

وسألت جيما : — ومتى تزمع السفر إلى ڤيسبادن.

— اليوم . فى بحر ساعة واحدة . لقد استأجر صاحبى عربة لهذا الغرض ، وسأرحل معه .

— أستراسلنا؟

— لن أتأخر عن ذلك دقيقة واحدة ... فسأكتب على أثر حديثى مع تلك السيدة .

وسألته السيدة العملية .

— أهى ذات ثروة كبيرة ؟ ... تلك السيدة ؟..

— نعم . فقد كان أبوها صاحب ملايين ، ولم يشاركها أحد فى ميراثه .

— أآلت إليها الملايين جميعها ؟ . هذا من حسن حظك . ولكن حذار أن تبيع ضيعتك بثمن بخس . فعليك أن تكون معها متشددا حذرا . لا تطلق العنان لعواطفك . أنا لا أجهل رغبتك فى الزواج السريع بجيما . ولكن الحيطة يجب أن تحتل المقام الأول — تذكر أنك إذا حصلت على ثمن أكبر لضيعتك ، نعمت بمال أوفر أنت وزوجك وأولادك .

ودارت جيما بوجهها . وقال سانين مومئا بيده :

— أرجو أن تثق يا فراولينور فى حسن تقديرى . بيد أنى لا أنوى

المساومة فهناك ثمن سأعرضه عليها . فإذا قبلت دفعه كان بها . وإلا فهى حرة فيما تصنع .

وسألته چيما :

— أتعرف ... هذه السيدة ؟ . .

— لم تقع عليها عينى قط .

— ومتى ستعود ؟

— سأعود بعد غد ، فيما إذا أخفقت فى مهمتى . أما إذا سارت الأمور على ما نأمل ، فستطول إقامتى هناك يومين آخرين . إلا أنى لن أضيع دقيقة من وقتى هدرا . ولا غرو ، فسأترك قلبى هنا وديعة لديكم ... كما تعلمين ... ولكنى أطيل وقوفى بينكم ، وتحدثى إليكم ، بينما يجب أن أسرع إلى فندقى وأستعد للسفر ... شدى على يدى يافراو لينور وتمنى لى حظا سعيدا ... فهذه هى عادتنا فى روسيا .

— أأشد عليها بيدى اليمنى أم اليسرى ؟

— اليسرى ، فهى أقرب إلى القلب ... وسأعود إما حاملا درعى وإما محمولا عليه . غير أن هاتفا يهتف فى صدرى مبشرا بأنى سأعود منتصرا ... أستودعكم الله يا أعزائى ... يا أحبائى .

ولف خصر فراو لينور بذراعه وقبلها . ثم طلب إلى چيما أن تقوده إلى غرفتها ليقضى معها برهة يفضى إليها بأمر هام . وهولم يقصد فى الواقع إلا أن يودعها على انفراد . وأدركت فراو لينور قصده فلم تسأله عن ذلك

الأمر الهام ... وكانت هذه هى أول مرة يدخل فيها غرفة حبيبته . فما تخطى عتبتها حتى أخذ سحر الوجد بمجامع لبه ، وجاش صدره بلهيبه وانفعالاته وملذاته المشجية . وتلفت حوله ، ثم خر راكعا أمام فتاته الجميلة . وطوق خصرها بيديه وغرس وجهه فى خصرها اللين...فهمست:

— أأنت لى حقا ! ... أستعود إلى قريبا ؟ ...

فأجاب لاهثا :

— أنا لك ... وسأعود إليك ...

— سأنتظرك ياحبيبى .

وبعد دقائق كان سانين يركض صوب فندقه . ولم ير پانتاليونى الذى جرى فى أعقابه إلى عتبة الدكان أشعث أغبر ، مناديا صائحا ، رافعا يداه فى إيماءة وعيد .

* * *

حضر سانين إلى پولوزوف قبل تمام الواحدة بنصف ساعة . وكانت عربة ذات أربعة جياد قد أعدت لها ، ووقفت فى انتظارها أمام الفندق . وحينما رأى پولوزوف صاحبه اكتفى بقوله :

— أعزمت إذن على الذهاب معى ؟ ...

وارتدى معطفه وكسوة حذائه ، ووضع قبعته على رأسه ، وقطعتين من القطن فى أذنيه رغم الجو الصيفى الدافئ ، وخرج إلى رواق الفندق . وكان الخدم قد قاموا بتنفيذ أوامره ، فنقلوا البضائع التى اشتراها لزوجته

إلى العربة ، وأحاطوا المكان المعد لجلوسه بمختلف الحشايا والمساند ، ووضعوا قرب موضع قدميه سلة محشوة بألوان المؤن ، وثبتوا حقيبة كبيرة فوق مقعد السائق . وسخا پولوزوف فى عطائه للخدم ، وتسلق العربة وهو يئن كالخنزير ، وعاونه على ذلك حارس باب الفندق بلباقة وعناية كبيرة . وقبع فى مقعده ، وأخذ يعيد تنظيم الحقائب المحيطة به . وانتقى لفافة من سيجاراته فأشعلها . وعندئذ أومأ إلى سانين كأنما يقول له .

— تستطيع أن تصعد إلى العربة أنت أيضا .

وصعد سانين وجلس فى جواره .

وطلب پولوزوف من حارس الباب أن ينبه سائق العربة إلى ضرورة الحرص على حسن أداء مهمته فيما إذا كان يهمه الحصول على حلوان . ورفع أحد الخدم سلم العربة ، وأغلق بابها ... واندفعت الجياد إلى الأمام .

— ٣٣ —

يقطع القطار اليوم المسافة ما بين فرانكفورت وڤيسبادن فى أقل من ساعة . أما عربة البريد السريعة فى الزمن الخالى فكانت تقطعها فى ثلاث ساعات ، بعد استبدال جيادها فى الطريق ثلاث مرات على الأقل .

وأغفى پولوزوف ، أو لعله كان يهوم فى مقعده . وظل سيجاره عالقا بين شفتيه . ولم يكد ينفرج فمه عن كلمة . ولم يطل مرة واحدة

من النافذة ، فالمناظر الطبيعية لم تكن تهمه ، بل إنه كان يعدها سما زعافا .

وظل سانين صامتا كذلك ، ولم يبدد وقته هو أيضا فى تأمل الطبيعة ، فكم من أمور كانت تحمله على التفكير ، وقد استسلم لتأملاته وذكرياته .

ولم يتوان پولوزوف فى كل محطة عن دفع النفقات المستحقة ، ومنح كل من السواس حلوانا يناسب ما قام به من جهد ، والتحقق من الوقت بالرجوع إلى ساعته . وما كادت الرحلة تنتصف حتى أخرج من السلة برتقالتين اختار لنفسه أحسنهما وناول سانين الأخرى ، وأطال هذا الأخير النظر إليه ، ثم انفجر ضاحكا . فسأله صاحبه وهو يقشر برتقالته بظفر إبهامه الناصع البياض :

— ماذا يضحكك ؟ .

وأجاب سانين :

— أنا ؟ ... هى رحلتنا التى تضحكنى ...

وعاد يسأله بعد أن حشا فمه ببعض فصوص البرتقالة :

— وماذا يضحكك منها ؟ ...

— إن أمرها غريب . فأصارحك القول إنك لم تخطر أمس على بالى إلا كما يخطر عليه إمبراطور الصين . وهأنذا مع ذلك أسافر معك لأبيع ضيعتى إلى زوجتك ، التى لا أعرف شيئا عنها كذلك .

— ومن ذا الذى يعرف ما تخبئه الأيام ؟... وعندما تتقدم بك السن لن يدهشك شىء فى الوجود . وأذكر لك واقعة على سبيل المثل : أتتصور

أنى حينا كنت ضابطا بكتيبة الفرسان اعتاد قائد الكتيبة ، الفراندوق ميخائيل پافلوڤيتش ، أن يأمرنى قائلا : « يارافع العلم ، أيها السمين المتداعى ، أسرع فى الركض بجوادك ! ! ... »

وحك سانين قذاله ، وقال :

— خبرنى ياإيپاوليت سيدوريتش عن زوجتك ، كيف هى ؟ ومامبلغ حسن قبولها لما يعرض عليها ؟ يجب أن ألم بشىء عنها ...

واستأنف پولوزوف قوله بحدة غير متوقعة :

— وماذا كان منى ؟ ... لقد قلت لنفسى « إلى الجحيم بالترقيات والرتب العسكرية » ... إنى لم أكن أطمع فى شىء من هذا ... آه ، زوجتى ! . . إنها مخلوقة كغيرها من عباد الله . ولكن حذار أن تفاجئك سنة من النوم أمامها ، فهى لا تحب ذلك ... عليك أن تواصل الكلام فلا تقطعه قط ، وابحث لها عن قول يضحكها ... حدثها عن حبك ... عن تلك الحكاية ... ولكن عليك أن تصيغها صياغة مسلية .

— مسلية ؟ ! . .

— نعم . ألم تقل لى إنك تعانى برحاء الحب ؟ وتريد أن تتزوج بمن تحب ؟ ...

وأجاب سانين وقد حز قول پولوزوف فى نفسه :

— أية تسلية تجدها فى موضوع حبى ومشروع زواجى ؟ !

ودارت عينا پولوزوف بين جفنيه ، وتقاطر عصير البرتقال من دقنه .

وساله سانين بعد صمت قصير :

— أهى زوجتك التى أرسلتك إلى فرانكفورت لتشترى لها بعض الحاجيات ؟

— نعم .

— وماذا اشتريت ؟

— لعبا ... ألا تعلم ذلك ؟ .

— لعبا ؟ ... أعندكم أولاد ؟

وتزحزح پولوزوف متباعدا عن سانين :

— ماذا ؟ . . ولم يكون لى أولاد ؟ . . اشتريت لهاتلك الخرق ... والحلى ... وغيرها من الترهات ... ألا تعرف هذه الأمور ؟ ...

— أتعرفها أنت ؟ .. ألك بها خبرة ؟ .

— نعم .

— ولكنك قلت لى إنك لا تتعرض لشئون زوجتك الخاصة ؟

— أنا قصدت شئونها الأخرى . ولا بأس من شراء هذه الحاجيات الصغيرة لها . فما دمت لا أجد عملا أفضل منه ، فلا أقل من أن أضطلع به . ثم إن زوجتى تعتمد على حسن ذوقى ... وعلى حذقى فى مثل هذه المعاملات ...

وأخذ صوت پولوزوف يتهدج إعياء ، فقد أنهكه الكلام .

— أزوجتك غنية حقا ؟

— نعم ... هي غنية ... ولكنها تحتفظ بمالها لنفسها .

— ولكنى أراك فى حال لا تجيز لك أن تشكو .

— أنا زوجها .. ألست كذلك فلم لا أفيد من الفرصة المتاحة لى ؟ .. ثم إنى أنفعها فى حالات كثيرة ... أنا كنز وقع فى يديها ... نعم ، أنا زوج مريح مناسب .

ومسح پولوزوف وجهه بمنديل حريرى، وضاق تنفسه وتعالى شخيره، وكادت أسارير وجهه تنطق ملتمسة الرحمة به ، والكف عن الحديث الذى أصبح عبئا ثقيلا عليه .

* * *

وتركه سانين ينعم بالهدوء ، واستغرق هو فى تأملاته من جديد .

كان الفندق الذى وقفت العربة على بابه فى ڤيسبادن أشبه بالقصر المنيف . وما كاد خدمه يلمحون العربة حتى دقت الأجراس فى أرجائه البعيدة ، وتعالى الهرج والمرج على الأثر . وحام رجال محترمو المنظر ، سود الملابس ، حول بابه الخارجى . وتقدم الحاجب متلألىء الشرائط القصبية ، ففتح باب العربة مشرق الوجه بالابتسام .

ونزل پولوزوف من العربة كأنه بطل غزا الأمصار واستعبد الأمم . وصعد فى سلم مفروش بالطنافس المعطرة . وأسرع إلى لقائه رجل حسن الهندام كذلك ، ولكنه روسى الهيئة ـ كان هذا الرجل خادمه الخاص ـ وقال له پولوزوف أول ما رآه إنه لن يسافر بعداليوم دون أن يصطحبه .

فقد قضى ليلته السابقة فى فرانكفورت دون أن يعد خادم الفندق بالماء الساخن . وعبرت سيماء الخادم عن التقزز والاستنكار ، ثم انحنى بحمية على حذاء سيده لخلع كسوته .

وسأله پولوزوف :

— هل ماريا نيقولاييڤنا فى مقصورتها ؟

— نعم ياسيدى . وهى ترتدى الآن ملابس السهرة استعدادا للذهاب إلى الكونتيسة لاسونسكايا وتناول العشاء عندها .

— آه ... هى ! ... انتظر قليلا .. أحضر الأشياء الموجودة فى العربة ... أحضرها جميعها بنفسك .

ثم أضاف :

— وأنت ياديمترى پاڤلوڤيتش ... اذهب وابحث لك عن فندق ، وعد بعد ثلاثة أرباع الساعة لتتناول العشاء معى .

وابتعد پولوزوف متمايلا . واستأجر سانين غرفة صغيرة حيث اغتسل واستراح قليلا ، مستعيضا بها عن نزل « صاحب اللطافة والاتزان ... الأمير ڤون پولوزوف ! » .

وجد « الأمير » مستريحا فى كرسى ذى ذراعين ، مكسو بالقطيفة الثمينة ، قائم وسط غرفة استقبال فاخرة الرياش ، وكان هذا « الأمير » المترهل قد ابترد وارتدى جلبابا حريريا فضفاضا ، ووضع على رأسه طربوشا أحمر ... وتقدم سانين صوبه ، وأطال النظر إليه متأملا . ولم يتحرك الرجل ، بل جلس جامدا كالتمثال . ولم يرفع بصره إلى صاحبه .

ولم ينبس بكلمة . وفى الحق إن منظره كان رائعا ! ! وقبل أن يقول سانين شيئا يقطع به ذلك الصمت القدسى ، انفتح باب الغرفة المجاورة على مصراعيه ، وظهرت على عتبته سيدة جميلة ترتدى حلة بيضاء مطرزة بالخيط الأسود ، وتزين عنقها بعقد مرصع بالجواهر الثمينة ، وتكسو أصابعها بخواتم محلاة كذلك بالأحجار الكريمة — كانت هذه المرأة هى ماريا نيقولايفنا پولوزوفا نفسها ... وقد تهدل شعرها الكستنائى على كتفيها ممشطا ، ولكنه غير معقود ...

(٣٤)

قالت وهى تبتسم ابتسامة تنم عن ارتباك وسخرية فى آن واحد :

— آه ! ... لاتؤاخذنى ...

وأمسكت فى نفس الوقت بخصلة من شعرها ورفعتها إلى أعلى ، وصوبت عينيها الشهلاوين المؤتلقتين إلى سانين وأردفت :

— لم أكن أعلم أنك هنا .

وقال پولوزوف مشيراً إلى سانين دون أن يقف ، بل دون أن يتحرك أو يلتفت :

— هذا سانين ديمترى پافلوفيتش ، صديق الصبا .

— نعم أعرف ذلك . فقد حدثنى عنه ... يسعدنى أن أراك يا ديمترى پافلوفيتش ... ولكنى أردت أن أسألك يا إيپوليت سيدوريتش ! ... آه ! . . إن وصيفتى اليوم تسرف فى الإهمال والحمق . .

— أتقصدين تمشيط شعرك وتجديله ؟ . .

— نعم .. والآن أستسمحكم فى الانصراف ..

وارتسمت تلك الابتسامة المرتبكة الساخرة على ثغرها من جديد . وأشارت إلى سانين محيية . ودارت بسرعة خلف الباب بعد أن تجلى جيدها البديع الرشيق اللفتات ، وكتفاها الخلابتان ، وخصرها النحيل الفارع .

وقام پولوزوف عندئذ ، وسار وهو يغمز فى مشيته ، ومر بالباب الذى توارت زوجته خلفه .

ولم يشك سانين لحظة فى أن هذه السيدة كانت تعلم بوجوده فى غرفة استقبال « الأمير » پولوزوف ، (كما يسميه الألمان) ، وأنها إنما أرادت بظهورها أمامه على تلك الحال أن تريه شعرها المهدل قبل تجديله . . . والواقع أن شعرها كان ساحر الجمال ... وأحس سانين بابتهاج خفى لما بدر من مدام پولوزوف ؛ فأغلب الظن أنها لن تتشدد فى إبرام الصفقة ما دامت تتحايل لتبرز له فتنتها ! بيد أن فؤاده كان يفيض فى حب جما إلى حد أن النساء جميعهن أصبحن لا يساوين فى نظره شيئا ؛ وهو لم يكن يلحظ حتى وجودهن. ولم يحدث تبرج تلك السيدة له من أثر فى نفسه إلا اقتناعه بما تحدث به الناس عن روعة جمالها .

ولوحظ أنه لو كان فى حالة نفسية غير حالته !! اكتفى بهذا الاقتناع ، ولا اختلف شعوره ولا شك . فإن ماريا نيقولا يفنا پولوزوفا — واسم

أسرتها كوليشكينا — شخصية تلفت النظر . ولا يرجع ذلك إلى أن جمالها بلغ مرتبة الكمال . لا ، فإن الطابع الشعبي كان يشوب فى الواقع قسماتها . لقد كانت ذات جبهة ضيقة ، وأنف غليظ معقوف إلى أعلا ، وبشرة لا تستحق المباهاة بها . ثم إن يديها وقدميها كانت تنقصهما الرشاقة والرقة ... ولكن ما أهمية ذلك كله ؟ ! .. فإذا لم تكن هذه السيدة تتمتع — على حد تعبير بوشكين — بالجمال القدسى الذى يستوقف نظر من يراه ، فإنها كانت تتحلى بجاذبية الأنوثة العارمة . كان الدم الذى يجرى فى عروقها مزيجا من الدم الروسى والغجرى .. كان جمالها الأنثوى يستوقف نظر من تقع عينه عليه .. ويستهويه .

ولكن سانين كان محصنا بصورة جما .. كانت صورتها بمثابة الدرع ذات الثلاثة الألواح التى تغنى بها الشعراء القدامى .

مرت عشر دقائق ظهرت بعدها ماريا نيقولا يفنا فى صحبة زوجها . وتقدمت إلى سانين وهى تتبختر على ذلك النحو الذى كان فى الأيام القديمة — التى ولت مع الأسف — يخلب لب الرجال المساكين . وكادت سيماؤها تبعث على القول : « إن هذه المرأة تحمل وهى تتقدم إلى سانين سعادة الحياة بأسرها » ومدت يدها إلى ضيفها قائلة بالروسية فى صوت رقيق ، ولكنه مع ذلك متحفظ :

— ستنتظرنى .. أليس كذلك ؟ .. لن أتأخر فى الأوبة .

وانحنى سانين باحترام . ولكن ماريا نيقولا يفنا كانت قد اجتازت الحاجز القائم أمام الباب ، ومرقت إلى ممر الفندق ، متلفتة من فوق كتفها ،

ومبتسمة من جديد قبل أن تتوارى ، وتجلى وراءها منظر مفاتنها ثانية ...

ولم تظهر لدى ابتسامها نونة (نقرة فى الخد) واحدة فى وجنتيها ، بل لم تظهر نونتان ، ولكن ظهرت ثلاثة نونات. وكانت عيناها الساحرتان أكثر إشراقا بالبسمات من شفتيها الورديتين الشهيتين المزدانتين بشامتين صغيرتين .

ودخل بولوزوف الغرفة متمايلا ، وتساقط على كرسيه الممدود الذراعين والتزم الصمت كما اعتاد أن يلتزمه ، ولكن شبه بسمة خفيفة كانت تلوى من وقت لآخر خديه السمينين المغضنين قبل الأوان .

لم يكن يكبر سانين إلا بثلاث سنوات . ولكنه كان يبدو أكبر من سنه بكثير وبلغت جودة الطعام الذى زخرت به مائدة العشاء مبلغاً يرضى أكثر الناس خبرة بالطعام الجيد ، ولكن سانين ضاق به حتى خيل إليه أن العشاء لن ينتهى . بيد أن بولوزوف تأنى فى الأكل « مستشعراً لذته ، مقدرا جودته ، مؤكداً لنفسه مدى ما يستمتع به » ... كان ينحنى على طبقه ، ويشمه فى كل مرة يتناول منه لقمة ، ويغسل حلقه بجرعة من النبيذ قبل ابتلاع ما فى فمه ، ثم يتلمظ فى ابتهاج ... غير أنه استرسل فى الكلام عندما قدم إليه اللحم المحمص — وأى موضوع طرقه ؟ . .. لقد تحدث عن غنم المرينوس (غنم من إسبانيا) قائلا إنه سيشترى قطيعاً كبيراً منها . ولم يترك حاشية من حواشى هذا الموضوع لم يقتلها بحثا . وكم

جمح به الخيـال اللطيف وهو يتحدث عن مشروعه المربح ! ! وكم انتق العبارات البليغة للتدليل على صواب آرائه !!.. وبعد أن ابتلع قدحا كبيراً من القهوة الساخنة إلى درجة الغليان ، (وكان أثناء شربها يكرر قوله للساقى ، ودموع الانفعال فى عينيه ، إنه شرب قهوته أمس باردة ... باردة كالثلج) ، وقضم طرف سيجاره بأسنانه الصفر المعوجة ، أغفى على عادته ، وقد أبهج ذلك سانين الذى أخذ يروح فى الغرفة ويغدو حالمـاً بحبيبته جيما والأنباء السعيدة التى سيحملها إليهـا (كان حذاؤه يغوص أثناء سيره فى البساط الكثيف فلا يسمع لوقعه صوت) .

ولـكن بولوزوف صحا من غفوته قبل الميعاد الذى اعتاد أن يصحو فيه وقد لاحظ هو نفسه ذلك ـ فإن نومه لم يطل إلا ساعة ونصف ساعة — وشرب كوبا من ماء سلتزر المعدنى المثلج ، وازدرد بضع ملاعق من فاكهة محفوظة جاء بهـا خادمه من روسيا فى دن من صنع مدينة كييف . وكان يقول عنهـا إنه لا يستطيع العيش بدونها . ثم تحول بعينيه المنتفختين إلى سانين وعرض عليه أن يلاعبه الورق . واختار لعبة « المجنون » وهى لعبة قديمة مضحكة ، فرحب هذا الأخير بذلك لأنه كان يخشى أن يعود صاحبه إلى الحديث عن الحملان والتيوس والخراف السمينة . وانتقل كلاهما إلى غرفة الاستقبال . وجاء لهما الخادم بحزمة من ورق اللعب . وبدآ يلعبان — بغير رهان بالطبع .

ووجدتهما ماريا نيقولاييفنا ، لدى عودتها من دار الـكونتسه لاسونكاب ،

يمارسان هذه التسلية البريئة ، فجلجلت ضحكاتها حين وجدت ورقات اللعب مرصوصة على المائدة . وهب سانين واقفا ، ولـكنها صاحت .

— واصلا اللعب حتى أبدل ملابسى وأعود إليكما .

وتوارت ثانية وهى تنزع قفازها من يديها .

ولم تتأخر بالفعل فى العودة إليهما . وكانت قد استبدلت بثوبها الأنيق حلة فضفاضة من الحرير الأحمر مشدودة إلى خصر السيدة بحزام مجدول . وتقدمت فجلست فى جوار زوجها ، وانتظرت أن يتما دور اللعب . ولم يلبث أن صاح سانين فى وجهه : «أنت المجنون» ... فقالت ماريا لزوجها:

— كفاك هذا يا بدين .

وعجب سانين لدى سماعه كلمة « بدين » ونظر إليها فى دهشة ظاهرة ، فضحكت فى جذل ، وقابلت نظرته بلفتة جريئة ، وغاصت نوناتها الثلاث فى خديها . ثم واصلت قولها لزوجها .

— كفاك لعبا ، فإنى أرى النوم يداعب عينيك . قبل يدى وانصرف ، فإنى أريد أن أبادل مسيو سانين حديثا قصيرا .

وغمغم الرجل وهو يتزحزح عن كرسيه :

— ليست بى رغبة فى نعاس . ولـكنى سأنصرف تلبية لطلبك ... وسأقبل يدك .

ومدت يدها إليه مقلوبة إلى أعلا دون أن ترفع نظرتها الباسمة عن سانين .

و نظر پولوزوف إلى سانين أيضا ، ثم انسحب من الغرفة دون أن يحييه

وقالت ماريا نيقولا يفنا باهتمام :

— تعال وحدثنى عن كل ما فى الأمر .

واستندت بكوعيها العاريين إلى المائدة وأخذت تقر أصابع يديها بعضها فى بعض ، ثم أردفت :

— أحقا ما قيل عن اعتزامك الزواج ؟ . .

وكانت أثناء كلامها تميل برأسها لتتمكن من مطالعة عينى سانين والغوص إلى أغوارها .

— ٣٥ —

كان تصرف مدام پولوزوف مع سانين جديرا أن يربكه بعد أن رفعت تلك السيدة الكلفة بينها وبينه ، وما ذلك لأنه كان قليل الخبرة بالناس ، فقد احتك بألوان منهم وأشكال ، بيد أن الذى أعانه على الحرج الذى تعرض له ، أمله فى أن يكون تلطف تلك السيدة معه فألا حسنا ، وقال لنفسه : « فلأشبع نزوات تلك السيدة الغنية » ، وطفق يجيب على أسئلتها باستهتار كاستهتارها . وأجاب على سؤالها السابق :

— نعم ، سأتزوج .

— بمن ؟ ... بأجنبية ؟ ...

— نعم

— ولم يطل عهد معرفتك بها ؟ . . أليس كذلك ؟ . . . . أكان التقاؤك بها فى فرانكفورت ؟

— تماما .

— ومن تكون ؟ ... إن كان يحق لى أن أسأل .

— نعم ، يحق لك ذلك . هى ابنة بائع حلوى . .

— ماذا ؟ ! ... ياله من أمر شائق ! ! . .

وتمهلت فى قولها وهى تردف :

أمر مدهش ! ! . . كنت قد بدأت أظن أن مثلك من الشباب لم يعد له وجود ... ابنة بائع حلوى ! ! ! . . .

وأجاب سانين وقد أخذته العزة بالنفس :

— أرى أن قولى أدهشك . ولكن اعلمى قبل كل شىء أنى لست متزمتا متحرجا . . .

وقاطعته ماريا نيقولا يفنا قائلة :

— واعلم قبل كل شىء أن قولك لم يدهشنى البتة . ثم إنى لست متحرجة أنا أيضا ، فأبى فى أصله ... نعم أبى فلاح ... وأى ضير فى هذا؟! إلا أن الذى أدهشنى وأبهجنى فى نفس الوقت أن أقابل رجلا لا يخشى الحب ... أنت تحبها ... أليس كذلك ؟ .

— نعم .

— أهى جميلة ؟ ... جميلة جدا جدا ؟ .

صدم سانين بهذا السؤال ، ولكن لم يعد أمامه مجال للتراجع .. قال :

— أنت تعلمين يا ماريا نيقولا يفنا يقينا أن العاشق لا يرى فى الوجود فتاة أجمل من معشوقته ... بيد أن خطيبتى جميلة حقا .

— حقا ! . . وما نوع جمالها ؟ . . أهو كلاسيكى ؟ . . رومانى ؟ .

— نعم . فإن قسمات وجهها غاية فى التناسق .

— ألديك رسم لها ؟

— لا . (لم يكن التصوير الفوتوغرافى قد عرف فى ذلك الوقت وكان تصوير « داجر » الفضى فى أول عهده) .

— وما اسمها ؟ .

— اسمها چيا .

— واسمك أنت ؟ .

— دمترى .

— ولقبك ؟ .

— باڤلوڤيتش .

وقالت ماريا وهى لا تزال تبطىء فى حديثها :

— اسمع ... أنا أميل إليك يادمترى باڤلوڤيتش . وأعتقد أنك رجل طيب . هات يدك ... لنكن أصدقاء .

وضغطت كفه بأصابعها البيض المنتظمة القوية . ولم تكن يدها تصغر يده إلا قليلا ، ولكنها كانت أدفأ منها وألين وأنعم وأشد حيوية . . ثم واصلت حديثها :

— أتعرف ماذا خطر لى الآن ؟ .

— ماذا خطر لك ؟ .

— ولكنك لن تغضب على إذا صارحتك به . . أليس كذلك ؟ . . قلت لى إنك خطبت تلك الفتاة . . فهل هذه الخطبة ضرورية ؟ . . محتومة ؟ .

وقطب سانين :

— أنا لا أفهم قصدك يا ماريا نيقولا ييڤنا . .

وأرسلت ماريا ضحكة هادئة . وغمغمت وهى تلق إلى الخلف بخصلة من شعرها تدلت على صدرها :

— ياله من ظريف ! . . نعم ، ما أظرفه ! ! . . فارس شريف ! . . وهل نصدق بعد ذلك أن الدنيا خلت من المثاليين ؟ .

كانت تتكلم بلغة روسية صميمة . . بلغة سكان موسكو . . سكانها العاديين ، لا السراة « الأرستوقراطيين » وواصلت قولها :

— لابد أنك نشأت بين أسرة محافظة على التقاليد القديمة . . أسرة تخشى ربها . . من أى بلد أنت ؟ .

— من چبولا جوبرنيا .

— نحن من وطن واحد إذن . . . فإن أبى . . . إخالك تعرف من أبى ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— لقد ولد أبى فى تيولا ... فهو تيولوى ... حسنا . لنعرج الآن

على الموضوع العملى (نطقت هذه العبارات الأخيرة بلهجة الطبقة المتوسطة متعمدة ذلك) .

وسألها سانين :

— ماذا تعنين بقولك : « لنعرج على الموضوع العملى » ؟ ... ما قصدك ؟ ...

وضيقت ماريا نيقولا يفنا حدقتى عينيها قائلة :

— وماذا قصدت أنت بمجيئك إلى هنا ؟ ... ألم تقصد أن تبيعنى ضيعتك ؟ ألست فى حاجة إلى المال لتتزوج ؟ ... أليس كل هذا صحيحا ؟ . .

عند ما ضيقت ماريا حدقتيها ارتسم فى عينيها تعبير رقيق تشوبه شائبة طفيفه من السخرية ولكن جفنيها ما كادا ينفرجان عن عينيها الواسعتين حتى بدت القسوة فى أعماقهما المضيئة الباردة . وكان حاجباها السميكان القوسان ـ دون إسراف ـ الشديدا السواد ، هما اللذان أكسبا عينيها جمالها .

وأجاب سانين

— نعم .

— أتحتاج إلى مبلغ كبير ؟ . .

— يكفينى الآن (مؤقتا) بضعة آلاف من الفرنكات . إن زوجك يعرف ضيعتى معرفة تامة ، وفى وسعك أن تسأليه عنها ... إنى لن أطلب ثمنا عاليا ...

وحركت ماريا رأسها من الشمال إلى اليمين وهى تقول :

— اعلم أولا ..

وكانت تضغط كل كلمة ، وتنطقها منفصلة عن سواها ، وتنقر أكمام سترة سانين بأطراف أناملها .

— اعلم أولا أنى لم أتعود استشارة زوجى إلا فيما يتعلق بشراء ملابسى ... فهو خبير بهذه الأمور . وخبرنى ثانيا عن سبب قولك إنك لن تطلب ثمنا عاليا ؟ . . إنى لا أرغب إطلاقا فى انتهاز فرصة وقوعك فى حبائل الحب ، واستعدادك للتضحية بمالك ... إنى لن أقبل منك تضحية ما ، ماذا ! ! أبدلا من أن أشجعك وأعاونك على ما تعانيه من تلك ... تلك التى يسمونها خفقات القلب ... أحاول أن أسلخك حيا ؟ . . ليس ذلك من عادتى . وإنى قد أقسو فى معاملة الناس عند سنوح الفرصة ... ولكن على طريقة أخرى .

وحار سانين فى أمرها فلم يعرف أهى تجد فيما تقول أم تهزل . وأخذ يردد لنفسه : « لابد أن أكون على حذر منك ياسيدتى العزيزة »

ودخل خادم يحمل « السماور » (موقد روسى لغلى الشاى ، ووعاء كبيرا يحوى الزبد والفطائر وأنواع الحلوى ، ووضعهما بين مدام بولوزوف وسانين ، ثم توارى على الفور .

وقدمت السيدة لضيفها قدحا من الشاى ، والتقطت قطعة من السكر بأصابعها ووضعتها فى القدح قائلة :

— أرجو أن تتجاوز عن استعمال أصابعي ...

مع أن ملقطين للسكر كانا موضوعين أمامها على المائدة . وأجاب سانين .

— بالطبع ... هذه الأصابع الجميلة ...

ولم يتم عبارته ، وكاد يشرق بالشاي وهو يتناول أول جرعة منه ، فقد كانت تشخص إليه بلحاظ نافذة ثابتة . وواصل القول بعد تردد :

— أنا لم أشر إلى رضائي بثمن زهيد لضيعتي إلا لأني قدرت ظروفك الحالية . فالمفروض أنك في هذه الغربة لا تحتفظين بمبلغ كبير من المال في حوزتك ، ثم إن بيع ضيعة على هذا النحو ، وفي مثل هذه الظروف أمر غير مألوف ... وقد جعلت ذلك كله في تقديري عندما تحدثت عن الثمن ...

وأحس سانين أنه وقع في شباك حججه . وكانت ماريا نيقولايفنا تجلس أمامه غارقة في كرسيها الوثير ، مكتوفة الذراعين ، محدقة في وجهه دون أن تتحول بنظرها عنه . وتعثر الرجل في القول ، ثم توقف عن الكلام . وكأنما أرادت أن تسعفه في ورطته فقالت :

— لا تبال ... استمر في حديثك ... إني منصتة ... أنا أحب الإنصات إليك ... استمر .

وأخذ سانين يصف ضيعته ويتحدث عن عدد أفدنتها ، وعن موضعها وحدودها وميزاتها الطبيعية ، وخير وسائل استثمارها .. بل تحدث كذلك عن منزله هناك ، وموقعه الطبيعي وما يحيط به من مناظر جميلة . . . ولم

ترفع ماريا نيقولايفنا طرفها عنه لحظة واحدة . وكانت تزداد إكبابا عليه وابتهاجا به . وتحركت شفتاها ولكنها لم تبتسم ... ثم عضت شفتها السفلى .. وشعر سانين بالحرج والارتباك ، وتوقف عن الكلام ثانية .

وبدأت ماريا تقول :

— يادميتري باڤلوڤيتش !

ثم صمتت مفكرة .. وكررت قولها :

— يادميتري باڤلوڤيتش ! .. أنصت إلي . أنا لا أشك في أن شرائي لضيعتك صفقة رابحة . وأننا سنتفق على شروط بيعها . ولكن لابد لك أن تتيح لي مندوحة من الوقت للتفكير لا تتجاوز يومين .. نعم يومين فهل تظن أنك تحتمل البعد عن خطيبتك مدة هذين اليومين ؟ .. إني لن أعوقك عن العودة إليها بعد هذه المهلة — فيما إذا رغبت أنت في العودة — وأقسم لك على ذلك . . . بيد أنه إذا كنت في حاجة الآن إلى خمسة ... أو ستة آلاف فرنك ، فيسرني أن أقرضك هذا المبلغ على أن نخصمه بعد ذلك من الثمن ...

ووقف سانين قائلا :

— أشكرك ياماريا نيقولايفنا على ما أبديت من مجاملة واستعداد ودي لمساعدة رجل غريب لا تكادين تعرفينه . وإذا كان لابد مما تطلبين فإني أفضل أن أبقى هنا انتظارا لما سيستقر رأيك عليه . . . سأبقى هنا يومين .

— أنا فى حاجة قصوى إلى هذه المهلة ياديمترى باڤلوڤيتش . ولكن قل لى . . . أسيصعب عليك احتمال تلك المهلة ؟ . . أسيصعب عليك ذلك جدا ؟ .. قل لى .. بالله عليك .

— أنا أحب خطيبتى ياماريا نيقولايڤنا ، وابتعادى عنها ليس بالخطب الهين .

وتنهدت ماريا وقالت :

— أنت رجل مدهش !.. ألا بد لك من الانصراف الآن ؟ اجلس . وأقسم أنى لن أستبقيك طويلا .

فقال سانين

— الوقت متأخر .

— وأنت فى حاجة إلى الراحة بعد عناء السفر ... وبعد عناء لعب الورق مع زوجى ... خبرنى ... أأنت صديق حميم لزوجى إيبوليت سيدورتش ؟ . .

— كنا زملاء أثناء الدراسة .

— أكان فى تلك الأيام على ما هو عليه الآن ؟ ! ...

وأجاب سانين متفاديا الرد :

— وكيف هو الآن ؟ . .

وضحكت ماريا فجأة ... ضحكت حتى احتقن وجهها ... ورفعت منديلها إلى شفتيها . ثم غادرت مقعدها ، وتقدمت إلى سانين مترنحة كأنما

برح بها التعب ، ووضعت يدها على كتفه .

وانحنى الرجل ، واتجه إلى الباب ، وجرت خلفه صائحة :

— تعال غدا ... وبكر فى الحضور ... أتسمعنى ؟ . .

والتفت بعد أن تجاوز عتبة الباب ، فرآها تعود وتسقط على كرسيها ، وتضع يديها خلف رأسها . وسقطت أكمام قميصها الواسعة إلى كتفيها . وكان لا مندوحة من الاعتراف بأن هيئة معصميها العاريين ، وقسمات وجهها جميعها ، رائعة فاتنة الجمال .

— ٢٦ —

ظل مصباح سانين مضاءاً مدة طويلة بعد انتصاف الليل . وكان يجلس إلى المائدة منهمكا فى كتابة رسالة مطولة إلى جما ، حدثها فى الرسالة عن تفاصيل ما حدث ، ووصف لها پولوزوف وزوجته ، ولكنه لم يسهب إلا فى وصف شعوره هو ، وختم الرسالة بقوله إنه سيلقاها فى بحر ثلاثة أيام (وضع علامات تعجب بعد عبارته الأخيرة هذه) . وحمل رسالته فى صباح اليوم التالى إلى مكتب البريد . ومن ثم قصد إلى حديقة «كورهاس» العامة بقصد الترويح عن نفسه . وكانت جوقتها الموسيقية قد بدأت فى عزف ألحانها . ووقف أمام الجوقة يستمع الى لحن من مقطوعة « روبير الشيطان » . ولم يكن عدد رواد الحديقة قد تكاثر بعد . ثم ابتعد عن موضع تجمع الناس بعد تناول قدح من القهوة ، وانتحى ناحية منزوية حيث جلس على أحد مقاعد الحديقة ، واسترسل فى التفكير .

وصدمت كتفه ذراع مظلة على غرة ، ولم تكن الصدمة خفيفة بحال . وجفل ورفع بصره فإذا ماريا نيقولايفنا واقفة أمامه ، مرتدية ثوبا أخضر أشهب ، وقبعة حريرية بيضاء ، وقفازا سويديا ، وكانت تتألق يانعة متفردة الحسن كتألق الصباح . ولكن الفتور الذي يعقب النوم العميق كان باديا في حركاتها ونظراتها ... قالت له :

— أنعم صباحا ... أرسلت منذ الصباح الباكر في طلبك فقيل لي إنك غادرت فندقك . وأنا لم أنته إلا الآن من شرب الكوبة الثانية من المياه المعدنية التي يرغمونني على شربها دون أن أعرف لذلك سببا ... فهل هناك من هو أصح مني بدنا ؟ — ولا بد لي الآن من المشي ساعة كاملة لأهضم ما شربت ... فهل تود مرافقتي ؟ . . وسنتناول القهوة معا بعد الانتهاء من تجولنا .

وأجاب سانين وهو يغادر مقعده :

— سبق لي أن تناولت قهوة الصباح ... ولكن يسعدني أن أتمشى معك .

— هات ذراعك لأتأبطها ... لا تخش شيئا ، فإن خطيبتك ليست هنا ... ولايمكن أن تراك .

وابتسم سانين ابتسامة مفتعلة ، وكان يشعر بالضيق كلما ذكرت ماريا اسم جيما ، ولكنه أسرع إلى الانحناء في طواعية . ومالت ماريا على ذراعه في رفق وبطء ، وتأبطتها في حرص ، وبدت كأنها تتعلق بها .

وقالت وهي تضع مظلتها على كتفها :

— تعال من هذه الناحية ... فأنا أعرف هذه الحديقة كما أعرف داري ، وسأريك نواحيها الجميلة جميعها ... ولكن ، استمع إلى (كانت مغرمة بتكرار هاتين الكلمتين) إننا لن نطرق موضوع ضيعتك الآن ، فسيتسع لنا الوقت للتحدث عنها بعد الإفطار ، وكل ما أوده أن تحدثني عن نفسك ، حتى أعرف أي رجل سأتعامل معه . وسأحدثك بعد ذلك عن نفسي ... فيما إذا شئت ... هل اتفقنا ؟ . .

— ولكن ، فيم هذا الاهتمام بـ . . . .

— كفى ، كفى ! . . إنك تخطيء في فهم قصدي ... فأنا لا أحاول مغازلتك ...

وهزت ماريا نيقولايفنا كتفها وهي تردف :

— لكأنما تحاول مثلي مغازلة رجل عقد خطبته على فتاة في جمال التمثال الأثري ! المسألة هي أنك تملك بضاعة تعرضها للبيع وأنا المشترية . ومن حقي أن أعرف كل شيء يتعلق بتلك البضاعة ... فتعال الآن وحدثني عنها ... واعلم أني لا أكتفي بمعرفة البضاعة نفسها ، لابد أن أعرف حقيقة بائعها . لقد كانت هذه خطة أبي في معاملاته ... فلنتحدث الآن ... ولك أن تتجاوز عن سيرة طفولتك ، وتبدأ الحديث عن فترة حياتك التي تلت سفرك إلى الخارج . فأي البلاد زرت منذ ذلك الوقت إلى اليوم ! . . ولكن ، تمهل في سيرك ، فما من داع إلى ذلك الإسراع .

— أتيت إلى هنا من إيطاليا حيث قضيت عدة أشهر .

— يبدو أنك مغرم بكل ما هو إيطالى ، ومن العجيب أنك لم تجد « موضوعا » للحب هناك ! ! .. أتهوى الفنون الجميلة ؟ ... أيها ؟ .. التصوير ؟ ... أم لعلك تفضل الموسيقى ؟

— أحب الفن ... بل أحب الجمال فى شتى صوره .

— والموسيقى ! .. أتحبها ؟ ...

— أحب الموسيقى كذلك .

— ولكنى لا أحبها قط . بيد أنى أحب الأغانى الروسية ... أغانى الريف الروسى فى زمن الربيع . أتعرفها ؟ .. الغناء والرقص معا ... والنساء فى جلابيبهن الحمر ، مزينات الرؤوس بعقود الخرز ... والحشائش الخضر وهى فى ريعانها ... ورائحة دخان الأفران ... هذا ما أحبه ... ولكنى ، مالى أتحدث عن نفسى ؟ ! .. تحدث أنت ، لا تدع الكلام ... حدثنى عن نفسك .

وواصلت ماريا نيقولا يفنا السير وهى ترمق سانين بنظرها كل حين. وكانت طويلة إلى حد أن وجهها كان يدانى وجهه طولا .

وطفق يحدثها عن حياته . وبدأ الحديث محجما متبرما متبلدا ، ثم حما وطيس الكلام ، فتدفق إلى أن بلغ حد الثرثرة . وكانت ماريا نيقولا يفنا تجيد فن الإنصات ... وكانت كذلك صريحة على نحو يحمل غيرها على الصراحة دون وعى . وغنيت بتلك الموهبة التى قال عنها الكاردينال ريتس : « القدرة الخفية على سرعة الألفة » . وحكى لها سانين قصة

حياته ، ووصف لها رحلاته ، بل حدثها حتى عن صباه ، ومدة إقامته فى بطرسبورج ... ولو أن ماريا نيقولا يفنا كانت من سيدات الطبقة الراقية المهذبة لما جرؤ سانين على محادثتها بمثل هذه الحرية . ولكنها قالت عن نفسها إنها إنسانة بسيطة لا تعير أية أهمية للمراسيم والتقاليد ... هكذا عرفت سانين بنفسها .

بيد أن هذه « الإنسانة البسيطة » كانت تسير إلى جانبه ، خفيفة الخطوة ، مائلة على ذراعه ، شاخصة البصر إليه ... لم تكن إنسانة بسيطة ، ولكن شابة غضة الإهاب من ذلك الصنف الذى يطفح بالجاذبية الرقيقة القاهرة ، التى تخبل عقلنا ، وتقضى علينا نحن الضعفاء الفانين ... تلك الجاذبية المقصورة على الجنس السلافى ، أو على غير الأصيل من أبنائه الذين امتزج دمهم بدماء أجناس أخرى .

طال تجولهما وتحادثهما أكثر من ساعة ، ولم يتوقفا أثناء ذلك لحظة ، بل مضيا يقطعان طرق الحديقة المتداخلة التى لا تنتهى ، ويصعدان فى رباها ، ويستمتعان بمناظرها الخلابة ، ثم ينحدران إلى الأرض المنبسطة ، ويغوصان فى ظلال الأشجار الكثيفة . سارا على هذا المنوال ذراعا فى ذراع دون انقطاع ... ولم يستطع سانين مقاومة نوبات الغيظ التى كانت تنتابه — فهو لم يقض مثل هذا الوقت الطويل متجولا مع جما بين أحواض الزهر وتحت ظلال الشجرة ...وهذه السيدة تأتى فجأة ، وتستولى عليه هكذا.. — وأخذ يردد عليها السؤال التالى .

— ألم تتعبي ؟

وكانت تجيبه في كل مرة :

— أنا لا أتعب أبداً .

وكثيرا ما مرا بأناس يتريضون مثلهما . وكانت أكثرية هؤلاء تحيي ماريا نيقولايفنا ، وإن دلت بعض تلك التحيات على مجرد المجاملة ، فقد دل بعضها الآخر على الخضوع والزلفى — ومن بين من قابلاهم رجل أسود الشعر ، حسن الشكل ، يرتدي سترة على أحدث طراز ، نادته ماريا من بعيد ، ثم قالت له بلهجة باريسية سليمة :

— اعلم يا « كونت » أنه لايجوز لك الحضور لزيارتي اليوم وغدا .

ورفع الكونت قبعته دون أن ينبس بكلمة ، وانحنى انحناءة طويلة . .

وسأل سانين على عادة أغلب الروس ، عادة توجيه الأسئلة فيما لايعنيهم :

— من هذا ؟ . .

— هذا ؟ ... هو أحد الفرنسيين ... والبلدة تزخر بهم ... وقد اعتاد أن يزورني ... أيضا . ولكن ميعاد تناول القهوة قد حان . لنعد إلى المنزل ، فأغلب الظن أن رياضتنا فتحت شهيتك للأكل . ولابد أن «رجلي الطيب» قد بدأ يفتح عينيه ويتشمم أخبارنا .

وأخذ سانين يردد هذه الكلمات : « رجلي الطيب ! » « يتشمم أخبارنا ! » ، ويسائل نفسه : «أتجيد الفرنسية إلى هذا الحد ، وتستعمل مع ذلك تلك الكلمات المبتذلة ؟ ! ! يا لها من امرأة عجيبة ! ! . .

***

لم تكن ماريا نيقولايفنا مخطئة في ظنها . فقد وجدت عند عودتها إلى الفندق ، « رجلها الطيب » ، « البدين » جالسا إلى مائدة أعدت للافطار ، وقد وضع على رأسه طربوشه الأحمر القاني ... وسألها عابس الوجه :

— خلت أنك لن تعودي أبدا ... وقد أوشكت أن أفطر بمفردي .

وأجابت ماريا نيقولايفنا في مرح ظاهر :

— أغضبت ؟ ... لا عليك ، فإن سورة الغضب تفيدك على أية حال ، إنك تكاد تأسن لطول ركودك . انظر ، لقد جئت لك بزائر . دق الجرس للخادم وكلفه بأن يحضر لنا أجود قهوة في الوجود ، وليحضر كذلك أفخر ما أنتجته درسدن من أكواب الصيني ، ومفرشا في بياض الثلج الناصع ...

وألقت بقبعتها بعيداً ، وصفقت بيديها ...

وحدجها زوجها بنظرات نفذت من تحت حاجبيه ، وقال بصوت فاتر :

— ما سر نشاطك هذا يا ماريا نيقولايفنا ؟ ...

— ليس هذا من شأنك يا إيبولوت سيدوريتش ... عليك أنت أن تدق الجرس . وأنت يا ديمتري بافلوفيتش تعال وأفطر من جديد ... آه ، كم أحب أن آمر وأنهى !! فما من متعة في الوجود تعدل متعة إصدار الأوامر .

وهمهم زوجها :

— بشرط أن تجدي من يطيعك .

— بالطبع . وهذا هو سر الابتهـــاج الذى أشعر به . . لاسيا فى وجودك ... أليس كذلك ؟ ... أجب يا بدين ... ولـكن ها هى ذى القهوة .

ودخل الخادم يحمل صينية كبيرة تحوى آنية القهوة ، كما تحوى إعلانا مطبوعا عن مسرح ڤيسبادن . وانقضت ماريا نيقولايڤنا على الإعلان صائحة :

— دراما ! ... مأساة ألمانية ! ! ... إنها خير من الملهاة الألمانية على أية حال .

والتفتت إلى الخادم واستطردت :

— اطلب إليهم أن يحجزوا لى « اللوج » الأمامى . ولـكن لا ، ليحجزوا لى المقصورة الرئيسية فهى أفضل . أسمعت ؟ ... لا بد لى من المقصورة الرئيسية .

وتجرأ الخادم فسألها :

— وإذا كان صاحب السعادة مدير «الستاد» سبق أن حجزها لنفسه ؟

— أنفح صاحب السعادة عشرة « تالارات » (قيمتها جميعها جنيه ونصف جنيه) ، على أن تحتجز المقصورة ... لا بد لى من المقصورة الرئيسية . أسمعت ؟ .

وأحنى الخادم رأسه فى خضوع وطاعة .

— أتحضر معى إلى المسرح ياديمترى پاڤلوڤيتش ؟ إن الممثلين الألمان

يثيرون المشاعر ... أتحضر ؟ ... حقيقة ؟ ... ما أظرفك ... وأنت يابدين ! . . ألا تحضر أنت أيضا ؟ ...

وأجاب پولوزوف وهو يضع فمه فى كوب القهوة :

— كما ترين .

— الأفضل أن تبقى هنا ، فأنت معتاد أن تنام أثناء التمثيل . ثم إنك لا تحسن فهم الألمانية على أية حال . وسأخبرك بما تصنع ... اكتب إلى مدير أعمالى عن الطاحونة الهوائية ... أنت تعرف المسألة ... عن طحن حبوب الفـــلاحين ... قل له إنى لن أسمح لهم بهذا ... وسيـكون هذا العمل خير تسلية لك طوال المساء ...

وغمغم پولوزوف :

— حسنا .

— مرحى ! . . يالك من حبيب ألمعى ! ... وما دمنا قد تحدثنا الآن ياسادة عن وكيل الأعمال ، فلنعرج فى حديثنا على الأعمال نفسها . . لنتحدث ، بعد أن يريحنا الخادم من الأوانى الفارغة ، عن صفقة البيع . . وعليك ياديمترى پاڤلوڤيتش أن تفضى إلينا بكل ما لديك من معلومات عن ضيعتك ، وتذكر لنا الثمن الذى تطلبه ، والمبلغ العاجل الذى تريد الحصول عليه مقدما . . عليك أن تخبرنا بكل ماعندك . . (وقال سانين لنفسه : « وأخيرا !! . شكرا لله ») . لقد ذكرت لى طرفا من هذا الموضوع وأنا لم أنس وصفك البديع لحديقة منزلك الريفى ... ولـكن « البدين »

لم يسمع ماقلت .. فهل تعيد قولك على مسامعه ، فلعله يمدنا برأى صائب؟ وإن فكرة إمكان مساعدتك على إتمام زواجك تسرنى كل السرور — وقد وعدتك أن أستمع لكل ماتود قوله بعد الإفطار ، وأنا لا أخل بوعدى أبدا . أليس كذلك يا إيبوليت سيدوريتش ؟ .

ومر بولوزوف يده على جبينه وقال :

— الذى لا شك فيه هو أنك لم تخدعى أحدا .

— نعم .. ولن أخدع أحدا فى المستقبل كذلك .. تعال يادميترى ياقلوفيتش واشرح موضوعك ... على حد تعبير أعضاء المجلس التشريعى .

(٣٧)

وأخذ سانين يشرح موضوعه ، أى أخذ يصف ضيعته للمرة الثانية ، ولكنه لم يفض فى وصف مناظرها الطبيعية الجميلة . وكان عند ذكر الأرقام والإحصاآت يتجه إلى بولوزوف مستشهداً به ، واكتفى هذا الأخير بأن يصوت كالخنزير ويهز رأسه دون أن يدل صوته وإشارته على قصده الذى لم يكن يعلمه إلا بارئه ، بيد أن ماريا نيقولايفنا لم تكن فى حاجة لرأى زوجها ومعونته ، فقد كانت ذات دراية بالأعمال التجارية والإدارية إلى حد يثير الدهشة ... كانت تلم بجميع مداخلها ومخارجها ، فلا تترك موضعاً فيها لا تتغلغل إلى صميمه ، ولا تغفل عن سؤال يكشف أغواره ، ولا تقول كلمة لا تصيب بها هدفا ، كانت تضع النقط فوق

الحروف وتتخطى الأسقاط ... ولم يتوقع سانين منها مثل هذا التدقيق فى سؤاله ، ولم يعد نفسه له ، واستمر استجوابها له على هذا النحو ساعة ونصف ساعة شعر خلالها كأنه مجرم يجلس فى مكان ضيق أمام قاض صادق قاس ، ولكنه كان يغمغم فى مرارة : « هذا من حقها على أية حال » . ولم تكن ماريا نيقولايفنا تكف عن الضحك ، وبدا عليها كأنها لا تحمل المسألة على محمل الجد . ولكن هذا لم يخفف من ورطة سانين — وعند ما اتضح من « الاستجواب » عجز سانين عن تحديد معنى عبارتيه : « إعادة تقسيم الأرض » و « الفلاحة الحديثة » تساقط العرق من ذقنه .

قالت ماريا نيقولا يفنا فى النهاية بحزم :

— حسنا ... إنى أعرف ضيعتك الآن كل المعرفة ، بل أعرفها كما تعرفها أنت ، فما الثمن الذى تطلبه لكل رأس . (من المعلوم أن الأراضى الزراعية فى روسيا كانت تباع فى تلك الايام على أساس نسبة «الرؤوس» أى نسبة عدد الفلاحين).

وأجاب سانين بصعوبة .

— نعم ... أظن ... يجدر بى أن أطلب ... ألا أطلب أقل من خمسمائة روبل عن كل رأس ...

وتذكر اشمئزاز بانتاليونى من رق الفلاحين ، (آه يا بانتاليونى ! يا بانتاليونى ! أين أنت ؟ ... هذا أوان صيحتك المدوية : « بربرية » .. باربيرى ! ... باربيرى!!).

ورفعت ماريا نيقولايفنا عينها إلى السقف متخذة هيئة التفكير ، ثم أرخت بصرها وقالت بعد فترة صمت :

— لم لا ؟ . . يبدو لى أن ثمنك مقبول ... ولكنى طلبت منك مهلة يومين للبت فى الأمر ، فعليك أن تنتظر إلى الغد لتسمع رأيى النهائى . وأكبر الظن أننا سنتفق على شروط البيع جميعها ، وستخبرنى فى هذه الحالة عن المبلغ الآجل الذى تريده .

ولاحظت أن سانين يحاول أن يقول شيئا فصاحت :

— كفى الآن حديثا عن هذا الموضوع ... «باستا كوزى» ، فقد ناقشنا مسألة الصفقة البخس مناقشة مستفيضة ،ولنرجىء التتمة إلى الغد.

ونظرت فى ساعة دقيقة معلقة بنطاقها وقالت :

— سأمهلك إلى الساعة الثالثة ، فاذهب فى هذه الأثناء إلى « الكازينو » وتسل بلعبة « الروليت » (نوع من الميسر) .

— أنا لا أقامر قط .

— أحقا ما تقول ؟ ... يالك من رجل كامل ! بل إنك الكمال بذاته ، وأنا كذلك لا أقامر ، فمن الحق أن يبعثر الإنسان ماله فى الميسر. ولكن اذهب إلى الكازينو على أية حال ، وأستمتع هناك برؤية الوجوه الجديدة ، وأعلم أنك سترى أشكالا غريبة ... فهناك سيدة ذات شارب كشارب الرجال تضع تاجا على رأسها ... إنها أعجوبة حقا ! ! . وهناك كذلك أمير من أمراء الألمان سيثير عجبك هو أيضا ... فإن له

سيماء الملوك ، وأنفا أقنى كأنوف الرومان،وهو معذلك يرسم علامة الصليب تحت صداره كلما قامر بريال واحد !! ... وتستطيع أيضا أن تقرأ الصحف والمجلات ، وأن تتمشى ... وصفوة القول أنك تستطيع تسلية نفسك بما شئت من مسليات حتى الساعة الثالثة . ولكن لابد من رجوعك إلينا فى تلك الساعة ... دون تردد ... لا بد من تناول الغداء فى الوقت المناسب ، فهؤلاء الألمان السخفاء يرفعون ستار المسرح فى تمام الساعة السابعة .

ومدت إليه يدها قائلة :

— ستغادرنا بلا حفيظة ... أليس كذلك ؟ . .

— مهلا ياماريا نيقولايفنا ... أهناك مايدعو إلى الحقد عليك ؟ . .

نعم ، فقد أرهقتك بأسئلتى ، وسأكون أشد وأقسى غدا . .

وضاقت عيناها من جديد ، وغمرت نوناتها خديها المحتقنين ، وصاحت :

— إلى اللقاء .

وانحنى سانين وخرج . ولاحقته فى ممر الفندق ضحكات مرحة ، ورأى فى مرآة عكست له مايجرى فى الغرفة التى كان فيها . رأى ماريا نيقولايفنا تدفع طربوش زوجها إلى الأمام ، كما رأى الزوج يجدف بيديه يائسا بعد أن غطى الطربوش ناظريه .

وأية زفرة أطلقها سانين وهو يتنفس الصعداء بعد أن خلا إلى نفسه

فى غرفته !! . لقد صدقت ماريا نيقولايفنا عندما قالت له إنه محتاج إلى الراحة . . كان يود أن يستريح من أولئك المعارف الجدد، ومن مقابلاتهم ومحادثاتهم . . . وأن ينفض غبار تلك الألفة المفروضة عليه . . . ألفة سيدة غريبة عنه تحاول التسرب إلى قلبه وفكره . . . ومتى يقع كل هذا ؟ . . يقع فى اليوم التالى لعلمه بحب چما له . . وعقد خطبته عليها . . إنها لعنة وقعت عليه ! . . وأخذ يناجى حبيبته العفيفة الطاهرة ملتمسا مغفرتها فى إصرار وإلحاح رغم أنه لم يرتكب أمراً « محددا » يؤاخذ عليه . وقبل الصليب الذى أعطته له آلاف المرات . ولولا أمله فى الوصول إلى حل سريع موفق للموضوع الذى جاء به إلى ڤيسبادن ، لعاد راكبا متن الريح إلى فرانكفورت . . . إلى بيتها الحبيب الذى أصبح بمثابة بيته ، ولخر راكعا إلى قدميها الحبيبتين . . . ولكن لابد مما ليس منه بد . . . لابد من شرب الكأس حتى الثمالة . . . لامفر من أن يرتدى ملابسه ، ويتناول الغداء مع تلك السيدة ، ثم يذهب معها إلى المسرح . . آه لو أنها تدعه على الأقل ، يسافر صباح اليوم التالى ! .

وكان هناك شىء آخر يقلق باله ، بل يثير غضبه : كانت هذه المرأة الغريبة ، رغم تفكيره فى چما دون انقطاع ، ورغم مشاعر الغبطة والمحبة التى صحبت ذلك التفكير ، وأخيلة المستقبل السعيد المتفتح أمامه . . كانت مدام پولوزوف ، رغم هذا كله ، تلاحقه بلا هوادة ، وتفرض نفسها عليه ، متبرجة أمام عينيه . . دون أن يستطيع زحزحة صورتها التى لاتفتأ تتجلى له ، أو الهروب من أصداء صوتها ، ونسيان أحاديثها وحكاياتها ،

والتخلص من التعبير الخفيف النفاذ الغريب الشبيه بأنفاس الزنبق اليانع . . . ذلك العبير الذى لم يفتأ يفوح من ثوبها .

لم يخف عليه أن هذه المرأة كانت تلهو به . . كانت تجرب فيه حيلة بعد حيلة . . ولكن ، لماذا ؟ ! . . أيكون ذلك مجرد نزوة امرأة مدللة أفسدها غناها ؟ امرأة يمكن أن توصف بأنها محرومة . . لم تعرف السعادة الحقيقية ؟ . . وهذا الزوج ! ! ياله من مخلوق عجيب ! ! ما علاقته الحقيقية بها ؟ . ولكن لماذا تقتحم هذه الأسئلة جميعها ذهن سانين ؟ . ماصلة مسيو پولوزوف وزوجته به ؟ . لماذا لا يطرد من مخيلته هذه الصور التى تلاحقه لاسيما وقلبه يتجه بكليته إلى غادة مشرقة نقية كصباح الربيع ؟ . كيف جرؤت هذه الصور على التعلق بأذيال الصورة الأخرى الطاهرة القدسية ؟ ! ولكنها تعلقت بها فعلا . . تعلقت بها مستخفة هازئة .

أتكون هاتان العينان الشهلاوان المتلصصتان ، وهذه النونات الفاتنة وخصائل الشعر المتدلية كالثعابين . . أتكون هذه المفاتن قد تمكنت من قلب سانين إلى حد أنه لا يقوى على دفعها بعيدا عنه ؟؟

هراء ! . . هراء ! ! . سيتبدد هذا كله غدا دون أن يترك وراءه أثرا . ولكن أسيكون الخلاص غدا فعلا ؟ أستسمح له بالرحيل ؟ .

أعاد سانين على نفسه هذه الأسئلة مرة بعد مرة . وكانت الساعة قد

قاربت الثالثة ، فارتدى سترة « الفروك » ، وخرج ليتمشى فى منتزه المدينة قليلا ، ثم يتوجه إلى نزل پولوزوف .

* * *

وجد فى غرفة استقبال آل پولوزوف سكرتير إحدى المفوضيات . وكان طويل القامة ، ناعم الشعر ، ألمانى القسمات ، يفرق شعر رأسه من خلف (وكان ذلك من مستحدثات تلك الأيام) .. ولكن من يكون الرجل الآخر الجالس إلى جواره ؟ . . لم يكن إلاڤون دونهوف ، الضابط الذى بارز سانين منذ بضعة أيام .

لم يكن سانين يتوقع ذلك اللقاء بالتأكيد ، وشعر بالحرج لأول وهلة ، ولكنه انحنى له رغم ذلك . وسألته ماريا نيقولايڤنا وقد لاحظت حرجه :

— ألك به سابق معرفة ؟

وأجاب دونهوف :

— كان لى هذا الشرف .

ثم مال على أذن ماريا نيقولايڤنا ، وهمس باسما :

— هذا هو من حدثتك عنه . . . مواطنك . . . الروسى . .

وأجابت هى الأخرى همسا :

— لا ! . أحقا ما تقول ؟ ! .

ثم حركت إصبعها متوعدة فى ابتسام . وقامت على الأثر تودعه ، وتودع سكرتير السفارة الطويل الذى لم يكف عن النظر إليها وهو يفغر فاه ، ويعبر بكل وسيلة عن تأثير جمالها البليغ فى نفسه . . . وأذعن دونهوف على الفور لمشيئة ماريا نيقولايڤنا ، ورد تحيتها وانصرف فى هدوء كما يفعل صديق الأسرة الذى يلبى رغباتها دون ما حاجة إلى تنبيه لذلك . أما سكرتير السفارة فتلكأ فى عناد ، ولكن المضيفة تخلصت منه مقترة فى مجاملتها له ، وقالت وهى تودعه :

— اذهب إلى صاحبة السمو ، فلا داعى لإنفاق وقتك فى صحبة امرأة من صميم الشعب مثلى . (وكانت أميرة موناكو التى تشبه فتيات الهوى تقيم بڤيسبادن فى تلك الأيام) .

وأجاب السكرتير التعس فى إصرار :

— يا سيدتى العزيزة .. إن أميرات العالم جميعهن

ولكن نظرة ماريا القاسية اضطرته إلى مغادرة الغرفة متقهقراً إلى الوراء .

كانت ماريا « فى خير زينة تلائمها » (على حد تعبير جداتنا) . كانت ترتدى ثوبا حريريا لامعاً ، قرنفلى اللون ، ذا أكمام واسعة ، وتزين أذنيها بقرطين فى كل منهما ماسة كبيرة . غير أن بريق عينيها كان ينافس بريق هاتين الماستين ... كانت تفيض بهجة وحيوية ... كانت فى خير حالاتها .

جلست وسانين جنبا إلى جنب ، وطفقت تحدثه عن باريس ، عن المدينة الساحرة التى تنوى الرحيل إليها خلال بضعة أيام ... وعن الألمان

وضيقها بهم ، أولئك القوم الذين يتورطون فى السخف حين يتظاهرون باللباقة ... إن لباقتهم مزعجة ... منفرة .

وسكتت برهة ، ثم فاجأت سانين بهذا السؤال الصريح :

ــ أحقا ما يقال من أنك بارزت الضابط الذى كان هنا منذ لحظات دفاعا عن كرامة إحدى السيدات ؟

ورد على سؤالها بسؤال وقد أخذته الدهشة :

ــ من أين لك علم بهذا ؟

ــ الدنيا تموج بالإشاعات يا ديمترى بافلوفيتش . وقد علمت فيما علمت أنك كنت على صواب فيما أقدمت عليه . كنت على صواب لا يناله الخطأ من أى جانب ... وتصرفت تصرف الفارس الشريف ... خبرنى : أكانت خطيبتك هى السيدة التى حاولت الدفاع عن كرامتها ؟ ...

وقطب سانين جبينه .. فأسرعت ماريا نيقولا يفنا إلى القول :

ــ حسنا ... لن أصر على السؤال . أنت لا تحب الكلام عنها ... اغفر لى تطفلى ... لن أعود لمثل ذلك مرة أخرى . لا تغضب ...

وأقبل بولوزوف فى هــذه اللحظة من الغرفة الأخرى ممسكا بإحدى الصحف ، فسألته زوجته :

ــ ماذا أتى بك ؟ ... أأعد الطعام؟ ...

ــ سيقدم لنا الطعام بعد دقيقة واحدة . ولكن احذرى ماذا قرأت فى صحيفة « النحلة الشمالية » ... لقد مات الأمير جرومو بوى .

ورفعت ماريا نيقولا يفنا بصرها إليه وقالت :

ــ حقا ؟ ! ... قدس الله روحه ! ...

وحولت بصرها إلى سانين :

ــ كان فى عيد ميلادى ... فى شهر فبراير من كل عام ... يزين كل ركن فى غرفتى بزهر الكاميليا . ولكن ذلك لم يكن يكفى ليحملنى على البقاء فى بطرسبورج فى أشهر الشتاء الجليدية ...

ثم عادت فوجهت الكلام إلى زوجها .

ــ كانت سنه تتجاوز السبعين عاما . . . أليس كذلك ؟ . .

ــ نعم ... وفى الصحيفة وصف منفصل لتشييع الجنازة . لم يتخلف عنها أحد من رجال البلاط ... ونظم الأمير كوفريسكين قصيدة بهذه المناسبة .

ــ ما ألطف هذا منه ! .

ــ أأنشدها لكما ؟ .. لقد نعته الأمير بالسياسى القدير ! ..

ــ لا ، لا ... لا نريد سماعها . هو !! السياسى القدير ؟ ! . . إنه لم يكن إلا عشيق تاتيانا يوريفنا . . هيا بنا إلى مائدة الطعام ، وليدفن الموتى الموتى* ... ياديمترى بافلوفيتش !! هات ذراعك .

* * *

كان الغداء فاخراً كغداء أمس ، وقد أزجاه الحضور بالأحاديث

الخفيفة اللطيفة . وكانت ماريا نيقولايفنا تجيد الحديث ، وهذه الميزة نادرة بين النساء، لاسيما نساء روسيا . وهى لم تكن تتكلف انتقاء ألفاظها وعباراتها ، ولم تتخذ إلا بنات جنسها الروسيات هدفا لفكاهاتها . وقد أغرق سانين فى الضحك أكثر من مرة لبعض نكاتها اللطيفة اللاذعة .

ولم تكن ماريا نيقولا يفنا تكره شيئا كراهيتها للنفاق ، والكلام المائع والكذب ... ولكنها كانت تجد هذا كله فى كل مكان .. وكثيراً ما دار حديثها عن الوسط غير الراقى الذى عاشت فى ظله ، فكانت تباهى به ، وتفخر بالقوم الذين نشأوها ، وتحكى مختلف النوادر عن أهلها ، وتصف مراتع صباها ، وتدعو نفسها الفلاحة « الجلف » . ولاحظ سانين أنها خبرت من أحداث الحياة مالم تخبره أكثرية من فى مثل سنها من السيدات .

وكان بولوزوف يحشو جوفه متأنيا متلمظا ،ويعب فى الخمر مختبرا متلذذا ، ولايرفع ناظره عن مأكله ومشربه إلا عرضا ليصوب بعينيه الذابلتين الساهمتين فى مظهرهما ، الواعيتين فى مخبرهما ، نظرة إلى سانين وأخرى إلى زوجته . ودارت ماريا نيقولايفنا إليه وصاحت :

— يالك من محبوب فطن ! ! . لقد وفقت كل التوفيق فى شراء حاجياتى من فرانكفورت ، وفى الحق إنك تستحق على ذلك قبلة أطبعها فوق جبينك ،. ولكنك لاترضى بمكافأة من هذا النوع ! .

وأجاب بولوزوف وهو يقطع « جوزة أناناس » بسكين من الفضة الخالصة .

— أحقاً ما تقولين ؟ . .

ولحظته ماريا نيقولايفنا بنظرها وهى تنقر المائدة بأناملها وسألته سؤالا مغرى :

— ألايزال رهاننا قائما ؟

— بالتأكيد !

— حسنا ! . أنا التى ستفوز .

ورفع بولوزوف ذقنه :

— مهلا ياماريا نيقولايفنا ، فلا أحسب إلا أنك ستخسرين رغم كل ثقتك بنفسك .

وسأل سانين :

— ما موضوع الرهان ؟ أأستطيع أن أسأل ؟

ماريا نيقولا يفنا ضاحكة :

— ستعرف ذلك فيما بعد ، أما الآن فلا .

ودقت الساعة سبع دقات . ودخل الخادم يعلن أن العربة تنتظر على باب الفندق . ورافق بولوزوف زوجته إلى باب الغرفة ثم عاد فارتمى على كرسيه ؛ ووصل اليه صوت زوجته من الممر :

— إياك أن تنسى كتابة الخطاب الى وكيل أعمالى

— لاتقلق ، فأنا رجل لايخلف وعده .

— ٣٩ —

كان بناء مسرح ڤيسبادن عام ١٨٤٠ متضعا رث الجدران . كذلك كانت جلبة رواده وقلة وعيهم تدل على أنهم من أواسط الناس . فهو بذلك لم يكن يسمو على مستوى المسارح الألمانية فى ذلك العهد . وخير مثل نضربه له اليوم هو مسرح جماعة « كارلسروه » التى يرأسها الأستاذ الشهير «هرديڤرينت». وكانت للمقصورة التى استأجرتها «صاحبة العصمة» مدام ڤون پولوزوف غرفة داخلية تحتوى على مقعد مستطيل . (ويعلم الله وحده كيف استطاع الخادم أن يستأجر تلك المقصورة، فمن غير المعقول أنه استطاع رشوة مدير الستاد كما طلبت إليه ماريا أن يفعل ... أ كان يستطيع ذلك ؟ ؟ . .) . وأرخى سانين ستار المقصورة فعزلها عن باحة المسرح تلبية لطلب ماريا نيقولايڤنا التى وقفت بالباب حتى أتم ما كلفته به . ثم دخلت وهى تقول:

— لا أريد أن يرانى أحد حتى لا يتقاطر الناس على المقصورة .

وأجلست سانين عن يمينها طالبة إليه أن يستدبر المسرح حتى تبدو المقصورة للناس خالية .

وعزفت جوقة الموسيقى افتتاحية « عرس فيجارو » ... « لى نوتزى دى فيجارو » . وارتفع الستار . وابتدأت التمثيلية .

كانت التمثيلية شبيهة بآلاف التمثيليات الألمانية التى يعرض فيها المؤلف، الذى تفوق شهرته حقيقة موهبته ، فكرة عميقة أو موضوعا حيويا فى أسلوب واضح ، ولكنه مجرد من الفن والحيوية ، وفى دأب تفصيلى سقيم

يصل فى سخفه إلى مستوى فكر الشعوب البدائية ... واحتملت ماريا نيقولايڤنا ذلك حتى منتصف الفصل الأول . ولكن صبرها نفد عندما رأت العاشق فى التمثيلية (وكان يرتدى سترة رمادية منتفخة الأكمام ، وصدارا مخططا ذا طوق من القطيفة وأزرار من الصدف ، ويشد إلى وسطه سروالا مزينا بالأشرطة الجلدية ، ويكسو يديه بقفاز أبيض) نفد صبرها عندما رأت العاشق يضرب صدره بقبضة يده إذ علم بخيانة حبيبته ، ويرفع ساعديه راسما بهما زاويتين حادتين فى الفضاء ، وينبح كالكلب المسعور ... وصرخت فى اشمئزاز :

— إن أتفه ممثل فرنسى فى أصغر قرية من قرى فرنسا يفضل خير ممثلى ألمانيا . فهو يقوم بتمثيل دوره على نحو طبيعى مستساغ .

ثم أردفت وهى تنظر إلى سانين ، وتمسح ظهر مقعدها بيدها :

— تعالى نتحدث .

وأذعن سانين ، فرمقته بنظرة ساحرة :

— أنت لين كالعجين ، وستسعد أيام زوجتك ... أما هذا المهرج ...

وأشارت إلى ممثل يقوم بدور مدرس خصوصى .

— هذا المهرج أيقظ فى مخيلتى ذكريات الصبا . فقد علقت مرة بحب مدرس ، وكان هذا هو حبى الأول ... ولكن لا ... كان حبى الثانى . فقد عشقت أول ما عشقت قسا بسيطا فى دير « دونسكوى » ، ولم تكن سنى حينذاك تتجاوز الثانية عشرة . ولم تتح لى رؤيته إلا أيام الآحاد .

كان يتدثر بجلباب من القطيفة ، ويتطيب بماء « اللاوندة » ، ويسير في الطرقات ممسكا بمجمرة الكنيسة ، قائلا للسيدات بالفرنسية عفوا ... عفوا ... « باردون ... باردون ! » اسمحي لي ... « إكسكوزيه ! » ولكنه لم يرفع عينيه إليهن قط ... ورمش جفنيه ! ... آه على رمش جفنيه ! ! . . كان طوله هكذا ...

وأشارت بسبابتها إلى نصف طول بنصرها ...

— أما مدرسي فقد كان يدعى مسيو جاستون . كم كان واسع الثقافة وقاسيا في معاملته ! . . كان سويسريا — وأنت أدرى بأولئك السويسريين — صارم الوجه ، ذا شاربين في لون القار ، وسيماء تبدو من جانبها كسيماء الإغريق القدامى ، وشفتين كأنهما الحديد المصهور ... كنت أرتجف منه خوفا ، بل إنه كان الإنسان الوحيد الذي شعرت بالخوف منه في حياتي . وقد بدأ مهمته في منزلنا بتعليم أخي ، أخي الذي مات . . مات غرقا . وكانت إحدى الغجريات قد تنبأت له بموت مفاجيء في حادث أليم ! . . ولكن هذا هراء ، فأنا لا أصدق التنجيم . . أتتصور إيبوليت سيدوريتش مطعونا بخنجر ؟ ! أنا لا أتصور الأشياء الغريبة .

وغمغم سانين :

— من لا يموت بالخنجر يموت بغيره .

— هراء في هراء ... أأنت متطير ؟ أتعتقد في الخرافات ؟ أنا لا أعتقد في شيء من هذا . ولكن ، ليكن ما يكون ... كان مسيو جاستون

يقطن في دارنا . وكانت غرفته تعلو غرفتي . وكم استيقظت أثناء الليل لأتسمع خطواته وهو يدب في سكوت الليل رائحا غاديا فوقي . وكان قلبي يخور حينذاك هيبة وجزعا ... أو يجيش بمشاعر غامضة ... أما أبي فكان ضحل الثقافة ، بيد أنه عنى كل العناية بتعليمنا ... أتتصور أني أعرف حتى اللاتينية ؟

— أنت ؟ ! تعرفين اللاتينية ! !

— نعم ... أنا ... مسيو جاستون علمنيها . وقد قرأت معه قصة أينايد مكتوبة بتلك اللغة . وإذا كانت القصة سخيفة فهي لا تخلو من مواضع جيدة ... أتذكر الفصل الذي تقابل فيه « ديدو » و « وأنياس » في الغابة .

وقال سانين بسرعة :

— نعم ، نعم ... أذكر ذلك .

وكان قد نسي اللاتينية وما يتعلق بها . ولم يبق في ذهنه غير فكرة غامضة عن القصة المذكورة ، وحدجته ماريا نيقولايفنا بنظرة من نظراتها الجانبية الصائبة وقالت :

— ولكن لا تظنني امرأة متعلمة . فالله يعلم أني بعيدة عن ذلك ، وأني مجردة من كل كفاية ... فأنا لا أكاد أقيم خطي ، ولا أحسن القراءة بصوت عال ، والعزف على البيانو ، والرسم والحياكة ... أنا لا أجيد شيئا ... فلست إلا كما تراني ! ...

وبسطت يديها واستطردت :

— أنا لا أحدثك عن هذا كله إلا لأعوضك أولا عن الاستماع إلى أولئك المغفلين (وأشارت إلى المسرح حيث كانت الممثلة الأولى تصرخ كما صرخ الممثل الأول من قبل ، وتضرب صدرها بقبضة يدها مثله) ولأفي ثانيا بديني فأحدثك عن نفسي كما حدثتني أمس عن نفسك .

فقال سانين :

— أنا لم ألب إلا رغبتك حين حدثتك عن نفسي .

ودارت إليه ماريا نيقولا ييفنا فجأة :

— وأنت ! أليست لك رغبة في معرفة أية امرأة أنا ؟ . . ولكن أمرك لا يدهشني بالطبع ...

ثم اتكأت على حشية متعمدها ، وواصلت قولها :

— إن الرجل إذا هم بالزواج بعد اكتوائه بلوعة الحب ، والاقتتال في سبيل حبيبته ، لا يتسع له مجال الاهتمام بامرأة غير خطيبته .

وصمتت ماريا نيقولا ييفنا برهة أخذت تقرض خلالها يد مروحتها بأنيابها العريضة المبيضة إبيضاض اللبن .

وامتلأ أنف سانين ثانية بذلك العبير الذي عام عليه في هذه الأيام الأخيرة ، وكاد يكتم أنفاسه . وكان الحديث الذي دار بينه وبين ماريا خافتا كأنه الهمس ، وقد أثار ذلك مشاعره ، وأقلقه كل الإقلاق .

فمتى ينتهي هذا كله ؟ . . أما له من آخر ؟ ! . . إن ضعاف الإرادة لا يحسمون الأمور بأنفسهم ، ولكنهم يدعون ذلك للأيام . .

وعطس أحد الممثلين على المسرح — وكان المؤلف قد ضمن تمثيليته ذلك بقصد إضحاك النظارة . ولم تشتمل التمثيلية في الواقع على أي عنصر آخر من عناصر التفكهة والإمتاع — وقدر النظارة حق هذا الجميل للمؤلف ، وأوفوا العطسة حقها من الضحك .

وزاد هذا الضحك سانين اضطرابا وضيقا ...

وكم من أوقات مرت به لم يدرك خلالها أهو راض أم غاضب ؟ ! مؤتنس أم متضايق ؟ ! . . آه لو رأت جما الحالة التي هو عليها ؟ ! ! . .

* * *

قالت ماريا نيقولا ييفنا على حين فجأة :

— أليس عجيبا أنك تجد إنسانا يقول لك هادئا كل الهدوء : « أنا اعتزم الزواج ! » ولكنك لا تجد إنسانا يقول لك في هدوء « أنا أعتزم أن ألقي بنفسي في اليم ! ! » — وما الفرق بين الحالتين ؟ . . أليس هذا مضحكا ؟ ! . .

فأجاب وقد دهمه التبرم :

— هناك فرق ضخم بين الحالتين يا ماريا نيقولا ييفنا . فكم من الناس من لا يخشون أن يلقوا بأنفسهم في اليم... لأنهم يحسنون السباحة...

أما وقد طرقت بنفسك موضوع الزواج ... المزعج ... الغريب ...

وعض شفته بأسنانه متوقفا عن الكلام ...

ودقت ماريا نيقولا ييفنا كفها بمروحتها قائلة .

— أتم ما بدأت قوله يادينترى بافلوفيتش ... أفصح عما أردت أن تقول . أنا أعرف ما تقصد ... إنك تود أن تقول : « ما دمت قد طرقت هذا الموضوع ياسيدتى العزيزة ، فهل ثمة زيجة أغرب من زواجك بپولوزوف ؟ ! . ويجب ألا يغرب عن بالك أنى عرفت زوجك منذ أن كان صبيا . » هذا ما كنت على وشك أن تقوله . . . أنت يا من يجيد السباحة .

وبدأ سانين يقول :

— مغفرة ...

— أليست هذه هى الحقيقة ؟ . .. أليست هذه هى الحقيقة ؟ . .

كررت ماريا نيقولا يڤنا هذا السؤال ، ثم أردفت :

— تعال وواجهنى بنظرك .. وقل لى إن ماذكرته لك غيرصحيح .

وجالت نظرات سانين فى حيرة ثم غمغم :

— حسنا . إن ما قلته حق .. ما دمت تلحفين فى السؤال .

وهزت ماريا نيقولا يڤنا رأسها .

— هذا جميل .. وهلا سألت نفسك ، أنت يا من يحسن السباحة ، عن السبب الذى دعا سيدة مثلى ، ليست بالفقيرة ولا بالعاجزة ، إلى الإقدام على هذا ؟ .. لعل الأمر يهمك ، ولكن لا بأس ، فسأشرح لك السبب على أية حال ، ولن أفعل ذلك الآن ، بل سأرجئه إلى ما بعد الاستراحة ، فإنى أخشى أن يقتحم علينا الغرفة فضولى .

ولم تكد ماريا نيقولا يڤنا تنهى عبارتها حتى أطل من باب المقصورة

الذى فتح نصف فتحة ، وجه أحمر تلتمع فيه قطرات العرق ... أنفه مدلى ، وأذناه مفرطحتان ، وشعر رأسه ينسدل على جانبيه فى شكل إطار ، وعيناه البليدتان الفضوليتان تتطلعـان من وراء عوينات ذهبية مشبكة بأنفه ... أطل صاحب الوجه — الأدرد رغم صغر سنه — ووقع بصره على ماريا نيقولا يڤنا فعبس وأخذ يكرر انحناءه ، ودخل بنصف جسمه من فتحة الباب فظهرت عنقه الليفية التى تحمـل رأسه . ولوحت ماريا نيقولا يڤنا بمنديلها مشيرة له بالانصراف وهى تقول بالألمانية :

— أنا لست موجودة. (اصطلاح غربى) « إيخ بن نيخت تسوهاوس » ..

وارتسمت الدهشة على وجهه ، وانفرج فمه عن ضحكة مصطنعة ، وقال فى صوت لاهث ، تماما كما الموسيقار « ليست » ، وقد ارتمى مرة تحت قدميه متملقا :

— حسن جداً ... حسن جداً ...

ثم اختفى ..

وسأل سانين :

— من يكون هذا المخلوق العجيب ؟ ! .

— هذا ... أحد نقاد ڤيسبادن .. ناقد أدبى .. حقير .. أو اختر له أى وصف تشاء . . إنه يقوم بالدعاية لمقاول محلى آجره ، ولذلك تراه يمتدح كل شىء فى إسراف وحماسة رغم امتلاء صدره بالحقد المكظوم .. لكم أخشاه ! فهو ثرثار تمام شديد الخطورة ، ولن يتوانى عن التنقل فى كل مكان ليخبر كل من يصادفه أنى هنا معك فى هذه المقصورة . . ولكن ماذا يهمنى مع ذلك . .

وعزفت « الأوركسترا » موسيقى « الفالس » . ثم ارتفع الستار ، وبدأ الفصل الثانى من التمثيلية متكلفا شديد الصخب .

واستأنفت ماريا نيقولا يفنا حديثها بعد أن عادت إلى الاتكاء على مسندها :

— مادمت لا تجد مناصا من البقاء هنا إلى جانبى بدلا من الاستمتاع بقرب خطيبتك — لا تطلق هذه النظرات القاسية ، أنا أقدر حالتك ، وقد وعدتك ألا أقيد حريتك بحال ، وألا أحول بينك وبين التصرف كيفما تشاء — ولكن استمع الآن إلى حكايتى . أتود أن تعرف أى شىء أفضله عن كل ما عداه ؟ ؟

فقال سانين محنقا :

— الحرية ! . .

ووضعت ماريا نيقولا يفنا يدها على يده ، وقال بصوت تشيع فيه نبرات الجد والإخلاص الحقيقى :

— الحرية قبل كل شىء ، وفوق كل شىء .. نعم يادميترى بافلوفيتش هذا ما أقدسه ... ولاتظننى أقول ذلك على سبيل المباهاة ، فليس فيه مايتباهى به . وإنما هكذا أنا خلقت ، وهكذا أنا اليوم ، وسأظل هكذا إلى يوم مماتى . وأحسب أنى شاهدت من مآسى الرق أيام طفولتى الشىء الكثير ، وعانيت من ذلك العناء الكثير ... و ... و ... وكان مسيو جاستون مدرسى، هو الذى فتح عينى على قبح هذه المظالم ، ولعلك تعرف الآن سبب اختيارى إيبوليت سيدوريتش زوجا ، فقد حفظ لى هذا

الزواج حريتى . وهأنذا اليوم حرة طليقة ... حرة كالهواء ... حرة كالريح ، حرة إلى أقصى مدى الحرية . وكنت أعرف ذلك قبل التزوج به، كنت أعرف أنى سأظل بعد هذا الزواج سيدة نفسى .

وصمتت ماريا نيقولايفنا برهة ، ووضعت مروحتها جانبا .

— وهناك أمر آخر لابأس من أن أفضى اليك به - أنا لا أجد مانعا من أن يفكر الإنسان فى كل مايعرض له ، فالتفكير فى ذلك مسل مبهج، وهو الذى خلق عقلنا من أجله . ولكنى لا أسمح لنفسى قط بالتفكير فى العواقب ... أنا لا أفكر قط فى عواقب تصرفاتى ، ولاأستغرق فى الحسرة أو الأسف على ما وقع ... أنا لا أفكر فى ذلك كله بحال من الأحوال . فلا شىء فى الحياة يستحق اشتغال البال ... إن مبدئى فى الحياة أن أتحاشى كل «ماله تبعات ونتائج..» (قالت هذه العبارة بالفرنسية) اعذرنى فأنا لا أجد فى الروسية تعبيراً يؤدى هذا المعنى .. ولكن.. أية تبعات ونتائج ؟ وهل فى الوجود تبعات تشغل البال ؟!.. إن الأمور تتساوى فى النهاية .. وهل من أحد يستطيع أن يحاسبنى هنا ، فى هذه الدنيا ، على أفعالى ؟ لا ، أما هناك ، (وأشارت إلى أعلا) فليكن ما يكون ... أتسمعنى ؟ ... أم لعل حديثى ضايقك ؟ ...

وكان سانين يجلس خافض الرأس ؛ فرفع بصره إليها عندئذ وقال :

— لم يضايقنى حديثك مطلقا ياماريا نيقولايفنا فأنت ترين أنى أنصت

إليك فى تشوف وفضول ، ولكنى أقر مع ذلك بأن إفضاءك إلى بكل هذا يثير عجبى ...

وتحركت ماريا نيقولايفنا فى مقعدها :

— اسأل نفسك عن سبب مسلكى هذا ... أأنت بطىء الإدراك إلى هذا الحد حقا ؟ ! أم تدعى ذلك تواضعا ؟ ...

ورفع سانين رأسه إلى أعلا من ذى قبل ، وواصلت ماريا نيقولايفنا قولها فى صوت هادىء رغم أن وجهها لم يبد عليه مثل هدوئه .

— لقد قلت لك ماقلت لأنى أميل إليك ... لايدهشك هـذا ، ثم اعلم أنى لا أحرج ... لقد أردت ألا تحتفظ عنى بذكرى سيئة — ولو أنه لا يهمنى عكس ذلك : أى أن تحتفظ عنى بذكرى خاطئة — وهذا مادعانى إلى المجىء بك إلى هنا والاختلاء بك والتحدث إليك فى صراحة محاولة إغواءك .. نعم لقد تحدثت إليك فى صراحة تامة ، ولم أكذب عليك فى شىء ...؛ ولكن لا تفوتك ياديمترى بافلوفيتش أنى أضع نصب عينى تلك العلاقة التى تربطك بامرأة أخرى ... فلا تسىء الظن فى قصدى ... فأنا بريئة من كل غاية ... وتستطيع الآن بالطبع أن تقول بدور : « كل هذا لن يعقب أية نتائج وتبعات ... » .

وضحكت ، ولكن سرعان ما اختنقت ضحكتها فى حلقها ، وجلست جامدة كأنما أدهشتها كلماتها . وبدت فى عينيها الجريئتين الجذلتين عادة، ظلال قد يكون سببها الخفر أو الشجن ... وقال سانين لنفسه : « يالها

من حية رقطاء ... ولكن ، ما أجملها من حية !! » .

وفاجأته ماريا نيقولايفنا بقولها :

— ناولنى المنظار المكبر حتى أستطيع رؤية الممثلين ... أيمكن أن تكون الممثلة الأولى قبيحة إلى هذا الحد ؟ ... لكأنما الحكومة اختارتها لهذه المهمة بقصد حماية الشبان من الفساد . فإن أحدا منهم لا يمكن أن يتعلق بمثل هذه المرأة .

وناولها سانين المنظار ، فظلت ممسكة بيده برهة قصيرة ، ثم همست فى أذنه وهى تبتسم :

— دعك من هذا الجد ... اسمع : إن أحدا لا يستطيع تقييد حريتى وأنا بدورى لا أحاول تقييد حرية أحد . أنا أعشق الحرية ، وأرفض تحمل أية تبعات ... وأقر لغيرى بالحق الذى أحتفظ به لنفسى... أفهمت ؟ تزحزح الآن قليلا ... ولنستمع إلى التمثيلية .

وأجالت ماريا نيقولا يفنا منظارها فى أرجاء المسرح ، ودار سانين بنظره أينما دارت ؛ كان يجلس على مقربة منها فى تلك المقصورة الخافتة النور ، ويستنشق رغما منه عبير جسدها الدافىء الثائر ، وتستعيد ذاكرته — رغما منه كذلك — كل ما صارحته به فى ذلك المساء .. لاسيما عباراتها الأخيرة ...

— ٤ —

استمر عرض التمثيليـــة ساعة أو أكثر من ساعة ، ولكن ماريا

نيقولايفنا وسانين لم يكادا يتبعان التمثيل حتى انقطعا عنه ثانية ، وعادا إلى الحديث من جديد واستغرقا فيه . ولم يتحول قول ماريا عن مجراه السابق ، ولكن سانين أخذ يحاورها هذه المرة ، ولم يظل على صمته السابق. فقد كان يشعر فى أعماقه بالسخط على نفسه وعلى ماريا نيقولايفنا — وحاول أن يبرهن لها على فساد نظرياتها كما لو أن مثل هذه المرأة تهتم بالنظريات حقا ! ... اشتبك معها فى مناقشة حادة ، فأثلج ذلك صدرها ، لأن انزلاقه إلى المناقشة كان يعنى تحطم سلبيته ومقاومته ، بل انحداره إلى هاوية الاستسلام... لقد ابتلع الطعم وأصبح أليفا مطواعا ... وكانت تضحك وهى تجادله ، وتسلم تارة بما يقول ، وتفكر تارة قبل أن تبدى رأيها ، ثم تعارضه فى لجاجة وعناد ... وكان وجهاهما أثناء الحوار يزدادان اقترابا ، ولم تعد عيناه تتحاشيان عينيها ... وحام نظرها حول وجهه ، ورف حول قسماته ، وكان يجيب على ذلك بالابتسام تأدبا ... ولكنه كان يبتسم على أية حال ...

تحدث عن الشرف ، وعلاقة الحب المتبادلة ، والواجب ، وقدسية الزواج ، وغير ذلك من المعنويات الجميلة المجردة ، ووافق تحدثه عن هذه التجريدات ، الخطة التى رسمتها لاستدراجه ... وكل خبير فى هذه الأمور يعلم أن طرق مثل هذه الموضوعات المجردة يفتح الطريق إلى النهاية الموفقة ...

ومن يعرفون ماريا نيقولايفنا حق المعرفة كانوا يقولون إنها إذا استولى على طبيعتها القوية العنيفة شىء من الرقة والاحتشام والخفر العذرى

— وأنى لشىء من هذا أن يستولى عليها — فإن الأمور تكون قد تحولت بها . فى هذه الحالة ، إلى موطن الخطر .

ويبدو أن الأمور قد تحولت بسانين إلى تلك الوجهة . وكان جديرا أن يزدرى نفسه كل الازدراء لو أتيحت له مندوحة من الوقت لمراجعة نفسه ، وتركيز فكره فيما آل إليه ، ولكن الوقت لم يتسع له أى اتساع للتفكير واحتقار نفسه .

أما هى فقد استغلت الوقت خير استغلال . وهى لم تبذل كل هذا العناء إلا لأنه فتى مقبول شكلا . لقد جنى عليه شكله ، فمنذا يستطيع أن يفرق بين ماهو فى مصلحة الإنسان وما هو ضد مصلحته ؟ !.

* * *

انتهت التمثيلية ، وطلبت ماريا نيقولايفنا إلى سانين أن يضع شالها على كتفيها ، ووقفت بلا حراك وهو يلف هاتين الكتفين الرائعتين « الملكيتين حقا » بطيات الشال الناعمة . وتأبطت ذراعه ، وخرجت معه إلى الممر . ولكنها كادت تصرخ حينذاك ... فقد وجدت دونهوف يقف كالشبح أمام المقصورة ... ويطل وجه « ناقد فيسبادن » الأديب من ورائه . وكان ذلك الوجه الغريب يطفح سرورا وتشفيا ؟

قال ذلك الضابط بصوت يدل على غيظ مكظوم :

— اسمحى لى يا سيدتى أن أبحث عن عربتك وأجىء بها إليك .

فأجابت ماريا نيقولا يفنا :

— لا ... شكرا ...

ثم أضافت بلهجة خافتة آمرة :

— الزم مكانك ، فإن خادمي سيتولى هذه المهمة ..

وسحبت سانين من ذراعه ، وسارت به مسرعة .

وزعق دونهوف فجأة ، ملتفتا إلى الناقد الأدبي ، إذ لم يجد أحدا غيره ينفث فيه غضبه .

— نح وجهك عني ... لماذا تسدك بي ؟ ... اذهب إلى الشيطان .

وغمغم الناقد وهو يتوارى :

— حسن جدا ... حسن جدا ...

وجاء خادم ماريا بالعربة في غمضة عين ، وكان ينتظر في الرواق للقيام بهذه المهمة ... وصعدت ماريا إلى العربة مسرعة ، وقفز سانين وراءها ، وما أغلقت بابها حتى انفجرت ضاحكة . فسألها رفيقها :

— ماذا يضحكك؟...

— آه ...أرجو المعذرة. لقدخطر لي خاطر : ماذا لو طلب دونهوف مبارزتك مرة أخرى ... في سبيلي ؟ ألا يكون ذلك عجيبا ؟ ...

— وسألها سانين :

— أعلاقتك به وثيقة

— هـذا الغلام ؟ ! . . . إنه يؤدي ما أكلفه به من خدمات . . . لا تقلق .

— لاشيء البتة يقلقني .

وتنهدت ماريا نيقولايفنا :

— أنا أعلم أن ذلك لا يقلقك . ولكن اسمع . . . أنت ظريف إلى حد يحملني على ثقة من أنك لن ترفض لي طلبا أخيراً ... ولا تنس أني راحلة إلى باريس بعد ثلاثة أيام ، وأنك عائد إلى فرانكفورت ... ولا يعلم أحد متى نلتقي ثانية ...

— ماذا تطلبين ؟ ...

— أتركب الخيل ؟

— نعم .

— حسنا ... سأرافقك غدا في جولة على ظهور الخيل خارج المدينة ، وسأختار لذلك جوادين أصيلين . وسنبرم الصفقة على أثر عودتنا إلى الدار ... وبذلك ينتهي الأمر ... لايدهشك طلبي هذا . ولا تحسب أنه نزوة عارضة . أو أني مجنونة — ولو أنه يبدو أني كذلك — وكل ما أرجو منك أن أسمعك تقول : أنا موافق.

ودارت ماريا نيقولا يفنا بوجهها إليه ، وكان الظلام مرتقا في العربة فلم يظهر وجهها بوضوح ، ولكن ذلك زاد بريق عينيها لمعانا .

وأجاب سانين وهو يطلق زفرة مكبوتة :

— حسنا ... أنا موافق.

فقالت تشاكسه :

— بالله !! . . أنا أعرف سر هذه الزفرة الحارة . . . فهى تعنى أن الخروج من الدار أشق من دخولها . . . ولكن لا ، لا . . . فأنت طيب كريم حبيب . . . وسأفى بالوعد الذى قطعته لك . هاهى ذى يدى أمدها إليك بلا قفاز . . . يدى اليمنى . . . يد الجد والعمل . . . فضع يدك فيها وثق بها . وفى الحق إنى لا أعرف أية امرأة أنا . ولكن الذى لا أشك فيه أنى شريفة فى معاملتى ، ويمكن الوثوق بى .

ورفع سانين يدها إلى شفتيه فقبلها قبل أن يفطن إلى حقيقة ما يصنع . وسحبت هى يدها برفق ، واستولى عليها الصمت فجأة ، ولم تنبس بكلمة حتى توقفت العربة عن السير .

وقامت لتغادر العربة . . . ولكن ما هـذا الذى حدث ؟ أهو من تصور خيال سانين ، أم أن ماريا نيقولايفنا طبعت بالفعل على خده قبلة ملتهبة خاطفة ؟ ! . . .

وهمست وهى تصعد فى درج الفندق :

وكان رواق الفندق مضاء بشمعدان ذى أربعة أذرع حمله البواب ليستقبل به سيدته الكريمة . وبدت عينى ماريا مسبلتين وهى تردد :

— إلى الغد :

ووجد سانين لدى عودته إلى الفندق خطابا من چيما على المائدة . وشعر أول ما شعر بالخوف يدب إلى قلبه ، ولكنه اصطنع الابتهاج بعد برهة ليضلل نفسه عن خوفه . ولم تزد رسالة چيما على بضعة أسطر أبدت

فيها سرورها للتوفيق الذى أصابه وهو يعد فى بداية مهمته ، ونصحته أن يعتصم بالصبر . ثم ختمت الرسالة بقولها إن جميع من بالدار ينتظرون عودته فى اغتباط ولهفة .

بدت الرسالة لسانين فاترة . ولكنه تناول قلما وورقة بيضاء بقصد الرد على خطيبته ، ولكنه سرعان ما ألقى بهما جانبا وهو يقول لنفسه : « وماذا عسى أن أكتب الآن ؟ . . . لأنتظر إلى الغد حتى أعود إلى طبيعتى . . . فهذا أنسب . »

أسرع إلى فراشه وتعجل النوم . . . ذلك لأنه خشى أن يستعيد ذكريات چيما فيما إذا ظل مستيقظا ، وكان يخجله أن يفكر ساعتئذ فى تلك الفتاة الطاهرة ، فقد بدأ ضميره يتحرك بين حناياه . بيد أنه هون الأمر على نفسه بزعمه أن الستار سينسدل غدا على مغامرته ، وأنه سيودع تلك المرأة الشاذة وداعا لا لقاء بعده ، وسينسى هذا الهراء كله إلى الأبد ! . . .

ومن عادة ضعفاء العزيمة أن يرددوا لأنفسهم العبارات الطنانة الوقع تعللا بها ، مثل عبارة : « ثم إن هذا كله . . . لن يسفر عن أية نتيجة أو تبعة ! . . . » .

— ٤١ —

تلك كانت خواطر سانين عندما أوى إلى فراشه . . . أما خواطره فى اليوم التالى عندما دقت ماريا نيقولايفنا باب غرفته بقبض سوطها المرجانى

فى تعجل ، وظهرت على عتبة الباب حاملة ذيل ثوبها الأزرق الداكن الخاص بركوب الخيل ، ساترة نصف رأسها بقبعة صغيرة ينساب الشعر المتهدل من حولها ، متدثرة بشال يتدلى وراء كتفيها ، ومبتسمة ابتسامة تشامخ وتحد انتقلت من ثغرها إلى عينيها ، ثم انتشرت فى وجهها كله ... أما خواطره هذه فقد كتمها التاريخ فى أعماقه فلم يدر أحد عنها شيئا .

وجلجل صوتها المرح :

— أأنت مستعد ؟ ...

وشد سانين أزرار معطفه ، ووضع قبعته على رأسه فى صمت. ورمته ماريا نيقولا يفنا بنظرة نافذة مشرقة ، ونزلت فى الدرج وثبا ، ووثب سانين مثلها .

وكانت ثلاثة جياد فى انتظارها على قارعة الطريق ، أولاها فرس أعدت لركوب ماريا نيقولا يفنا . . . ذهبية اللون ، ممتلئة الجسم ، ذات عينين سوداوين ، وساق ظبى ، ولسان يختلج فى كمامة متراخية . كانت نحيلة ، ولكنها تميزت بجمال ملحوظ ، وحماسة متقدة . . . وثانيها جواد أعد لسانين . . . شديد المراس ، عريض اللبان ، فاحم اللون غليظ الأطراف . وثالثها جواد أعد للسائس . وقفزت ماريا نيقولا يفنا بخفة إلى السرج ، فأقعت الفرس ، ووثبت إلى الأمام ، ولوت ذيلها ، ثم تراجعت بكفلها ، ولكن ماريا نيقولايفنا التى كانت تجيد ركوب الخيل ، استطاعت أن تحتفظ بتوازنها ، وتظل فوق سرجها . وكان عليها أن تحيى بولوزوف

الذى وقف فى طنف الفندق لتوديعها ، مرتديا جلبابا غير مزرر ، وواضعا على رأسه طربوشه المعهود . وكان يلوح لها بمنديله دون أن يبتسم ، بله لقد كان يغلب عليه التقطيب .

وركب سانين حصانه أيضا . وحيت ماريا نيقولايفنا زوجها برفع سوطها ثم هوت بالسوط على رقبة فرسها التى أقعت ، ثم اندفعت إلى الأمام وركضت وهى تنتفض ، وتعض اللجام ، وترفس وتصهل . . . ، وتخلف سانين وهو يرقب ماريا نيقولايفنا . وكان قوامها الرشيق اللين الذى أبرز المشد غير المحبوك اعتداله ، يتمايل فى يسر ورشاقة وثقة . ونادت سانين بلفتة منها ، فلكز جواده ولحق بها . فقالت له:

— أليس هذا جميلا ؟ أود أن أقول لك قبل أن نفترق إنك خلاب ، وإنك لن تندم على هذه النزهة أبدا

وأومأت برأسها مرارا كأنما تريد بذلك تثبيت المعنى الذى تقصده ، وإشعار سانين بأهميته

وأدهش سانين أن يراها مبتهجة إلى هذا الحد ! فقد ارتسم على وجهها تعبير روحانى شبيه بما يرتسم أحيانا على وجوه الأطفال حين يبلغ سرورهم أشده .

سارت بهم الخيل بطيئة حتى مشارف المدينة، وما تمكنت من الطريق الخالى حتى تحول ركضها إلى خبب . وكان الجو رائعا ، واليوم يوم صيف نموذجى ، والريح تنساب على وجوه الركب ، وتصفر فى آذانهم صفيرا

محيا . وشعرت ماريا نيقولا يفنا وسانين بالسعادة ، وغمرهما إحساس بعنفوان صباهما ، وموفور صحتهما ، وخفة حركتهما ، وزادنشاطهما هذا الإحساس عمقا . وشدت ماريا نيقولايفنا لجام فرسها ، وخففت سرعة ركضها . وحذا سانين حذوها .

وصاحت ماريا وهى تطلق زفيرا عميقا مثلجا للصدر :

— آه ! هذا هو الشيء الوحيدالجدير بأن يعيش الإنسان من أجله . وهو أن يحقق الإنسان ما يريد .. بعد أن كان ذلك يبدو مستحيلا . لقد امتلأت كأسى .. امتلأت نفسى حتى كادت تفيض ..

ومرت بيدها حول عنقها واستطردت :

— كم يشعر الإنسان بالرقة والدماثة ! ! .. انظر كم أنا رقيقة الحس الآن !! .. أحس كأنى سأحتضن العالم بأسره .. ولكن لا .. ليس العالم بأسره — فانا لا أستطيع أن أحتضن هذا ..

وأشارت بمقبض سوطها إلى متسول يدلف إلى جانب الطريق :

— بيد أنى لا أجد مانعا من إسعاده . . .

وصاحت بالألمانية :

— اسمع يا هذا ... خذ ...

وألقت تحت أقدامه بكيس صغير محشو بالنقود . وارتطم الكيس

الثقيل الوزن بالأرض محدثا صوتا (لم يعرف أناس ذلك العصر «محافظ النقود») . وتوقف جواب الآفاق عن سيره ، ونظر إلى الكيس الملقى أمامه دهشا : ولكن ماريا نيقولايفنا أغرقت الصمت المخيم بالضحك المجلجل ، وأطلقت لفرسها العنان .

وركض سانين وراءها بجواده ، وقال عندما لحق بها :

— أأنت مغرمة بركض الخيل إلى هذا الحد ؟ ...

وشدت ماريا نيقولايفنا لجام فرسها بعنف مرة أخرى ولم تكن تعرف وسيلة أخرى لإيقافها .

— أنا لم أركض بالفرس إلا لأتحاشى سماع عبارات الشكر التى أوشك ذلك الرجل أن يفوه بها ...إن عبارات الشكر تفسد متعتى . وأنا لم أعطه ما أعطيت إرضاء له ، ولكن إرضاء لنفسى ...فكيف يجرؤ على شكرى ؟ ماذا تقول ؟.. أنا لم أسمع ماقلت ..

— لقد سألتك ... لقد أردت أن أعرف سبب كل هـــذا الابتهاج اليوم ؟ ...

وقالت ماريا نيقولايفنا دون أن تجيب على سؤاله ، ولعل ذلك يرجع إلى أنها لم تسمعه ، أو أنها لم تجده جديراً بالرد :

— إسمع .. لقد ضقت ذرعا بهذا التابع الذى يلازمنا كظلنا ، ولعله لايزال يسائل نفسه : متى يفكر أولئك السادة فى العودة إلى دورهم ؟ ... فكيف السبيل إلى التخلص منه ؟

وأخرجت من جيبها « مفكرة » فى سرعة وهى تقول :

— أأكتب أية رسالة أكلفه بحملها إلى المدينة ؟... ولـكن ، لا .. فهذا لايجدى . . آه ! لقد اهتديت إلى حل ، أليس هـذا البناء البـادى أمامنا نزلا ؟ ...

ونظر سانين حيثما كانت تنظر وقال :

— يخيل إلى ذلك .

— عظيم ، سأطلب إليه أن يتخلف فى هـذا النزل ، ويتسلى بشرب الجعة حتى نعود

— ولـكن أية ظنون ستراوده فى هذه الحالة ؟

— وماذا يهمنا من أمره ؟. بيد أنه لن يفكر فى شىء ، فهوسيشرب الجعة فحسب ... تقدم ياسانين .

وكانت هذه هى أول مرة تناديه فيها بلقبه ... وعندما وصلا إلى ذلك النزل أفضت ماريا إلى التـابع برغباتها (وكان متأثرا بطبـاع الإنجليز ، ومتخلقا بأخلاقهم) فرفع يده إلى قبعته ، وترجل وسحب حصانه من لجامه مبتعداً به .

وصاحت ماريا نيقولايفنا :

— نحن الآن طليقان كالريح ... فإلى أين تذهب ؟ أشمالا أم جنوبا أم شرقا أم غربا ؟ .. إنى أشبه ملك المجر فى يوم تتويجه .

وأشارت بسوطها إلى الجهات الأربع واستطردت :

— كل مافى العالم ملكنا — ولـكن لا . دعنى أحدد مطلبى . أترى هذه الجبال البديعة البادية من بعيد ! ... وتلك الغابات التى تكسوها ؟ : لنتوجه إليها ... إلى الجبال ... إلى الجبال ...

وانحرفت عن الطريق الرئيسى ، وركضت بجوادها فى طريق فرعى ضيق غير مطروق يبدو متجها صوب الجبال ، واقتفى سانين إثرها .

— ٤٢ —

إزداد الطريق ضيقا ، وتحول إلى ممر ، ثم إن الممر لم يطل كذلك فقد قطعه خندق عريض بدد معالمه . وخشى سانين مغبة مواصلة السير ، فنصح ماريا نيقولايفنا أن يعودا أدراجهما ، ولـكنها أبت النصح قائلة :

— لا ، أنا أريد الوصول إلى الجبال ... فلنضعها نصب أعيننا ونتجه إليها مباشرة كما يفعل الغراب عندما ينقض على هدفه .

وقفزت بفرسها فوق الخندق ، وحذا سانين حذوها . واجتازا مروجا يابسـة ، ولـكنهما لم يلبثا أن خاضا غياضا رطبة ، ثم مستنقعات تنز نزا . وتعمدت ماريا نيقولايفنا أن تغوص بفرسها فى برك الماء ، وأبهجها ذلك فاسترسلت فى ضحك عال ، وقالت :

— لنوهم أنفسنا أننا أطفال .

ثم سألت سانين :

— أتعرف المقصود من الصيد فى المستنقعات والبرك ؟ ...

فأجاب سانين :

— نعم

وواصلت ماريا نيقولايفنا كلامها :

— كان عمى يستعين فى طراده بكلاب الصيد ، وكنا نخرج على ظهور الخيل فى الربيع وراء الطرائد ، كان ذلك رائعا . ولكننا نحن الاثنين نصيد اليوم فى البرك والمستنقعات... انظر إلى ! . أنت روسى ، ولكنك تطارد إيطالية تريد أن تتزوجها .. حسنا ! هذه مشكلتك ... ما هذا ؟ خندق آخر ؟. هوب لا.. لا..

وقفزت الفرس، فسقطت قبعة ماريانيقولايفنا ، وانتثر شعرها المعقود على أكتافها ، وهم سانين بالترجل ليأتى إليها بقبعتها ، ولكنها أوقفته صائحة :

— لا تلمسها ، فسألتقطها بنفسى .

وانحنت من فوق سرجها ، ورفعت طرف وشاح القبعة بسوطها ، واستطاعت بالفعل أن تلتقطها وهى ممتطية جوادها . ووضعتها على رأسها دون أن ترفع شعرها وتعقده . وانطلقت بفرسها وهى تصيح صيحات مجلجلة . وركض حصان سانين إلى جانب فرسها . ووثب كلاهما فوق الحواجز والحفر والجداول ، وتسلقا المرتفعات فى قفزات قصيرة ، وصعدا إلى أعلا التلال، وعادا فهبطا من الناحية الأخرى إلى سفوحها، ولم يتحول نظر سانين طوال ذلك عن وجه ماريا نيقولا يفنا ... وما كان أروع ذلك الوجه ! . . زهرة فى أنضر ريعانها ! . . كانت عيناها المتلألئتان النهمتان الوحشيتان متفتحتين كل التفتح ، وشفتاها الورديتان منفرجتين ،

وأنفها المتسع الفتحتين يستاف الهواء بشراهة ... وقد صوبت نظرها إلى الأمام، كأنما يريد روحها التقحم أن يتملك كل ما يراه — الأرض والسماء والشمس ، بل حق الهواء — ولم تندم لشىء إلا لقلة المخاطر التى تعرض لها فى سعيها إلى أهدافها .

صاحت فجأة :

— سانين ... ألا يشبه هذا قصة « برجر » المسماة « لينور » ؟ ولكن الفرق أنك لم تمت، أليس كذلك ؟ ألست حيا ترزق ؟ ... أما أنا فعلى قيد الحياة كما ترى ...

وبلغت ميولها الحيوانية غاية استهتارها ، وهى لم تعد فارسة تركض بجوادها ، ولكنها تحولت إلى عنقاء نصفها إله ، ونصفها وحش مفترس . وأخذ رفيقها المهذب المعتدل المزاج يرقب فى دهشة صامتة ذلك الطرب الجامح الصاخب .

وشدت ماريا نيقولا يفنا أخيرا لجام فرسها المرغية المزبدة المغبرة . فحاولت الفرس التوقف وهى تتمايل تحت ثقلها . أما حصان سانين الشديد المراس فكان يتنفس بقوة .

وسألت ماريا نيقولا يفنا فى همس حالم :

— أليس هذا مبهجا ؟ ...

وأجاب سانين متحمسا :

— نعم ... هو كذلك :

وكان دمه يفور كذلك فى عروقه .

— ولكن انتظر . فليس هذا كل ما فى الأمر . .

ورفعت يدها مشيرة إلى الفضاء البعيد ... وكان قفازها قد تمزق :

— لقد قلت إنى سأذهب بك إلى الجبال ... إلى الغابة ... وها هى ذى الجبال متوجة بالغابة ! ... » .

وكانت الجبال المتوجة بالغابة بالفعل على بعد مائتى قدم منهما .

وواصلت ماريا نيقولا يفنا قولها :

— انظر . . . وهذا هو الطريق المؤدى إليها . سنتوقف برهة لنلتقط أنفاسنا ، ثم نواصل السير . . . ولكن فى هوادة حتى نتيح لجيادنا فرصة للراحة .

واستأنفا المسير . وطرحت ماريا نيقولا يفنا شعرها إلى الوراء بلفتة قوية من رأسها ، ثم نظرت إلى قفازها تخلعه . وقالت :

— ستفوح يدى برائحة جلد اللجام ، ولكن هذا لن يضيرك ، أليس كذلك ؟

وابتسمت . وأجاب سانين على ابتسامها بابتسام . ويبدو أن مغامرتهما معا ، وهما ينهبان الأرض بالخيل نهبا ، قد وثقت الألفة بينهما ، وأحالتهما إلى صديقين حميمين وبادرته بسؤالها :

— كم عمرك ؟ . .

— اثنان وعشرون عاما .

— أحقا ماتقول ؟... وأنا فى مثل سنك تماما . ما أبدع هذه السن ؟ بيد أنك لو أضفت سنى إلى سنك لظللت رغم ذلك بعيدا عن الشيخوخة .. ما أشد حرارة الجو ! ! . ، خبرنى ... أوجهى محتقن ؟

— نعم ... فى حمرة الزنبقة .

وجففت ماريا نيقولا يفنا عرقها بمنديلها :

— آه لو وصلنا إلى الغابة ... فهناك الجو الرطب فى ظلها الظليل ... إن مثل تلك الغابة القديمة أشبه بالصديق القديم ... ألك أصدقاء .

وأطرق سانين مفكرا .

— نعم ... ولكنهم قلة ... ثم إنهم ليسوا أصدقاء بحق .

— أما أنا فلى أصدقاء حقيقيون ... ولكنهم أصدقاء جدد ... فرسى هذه صديقة صادقة ، انظر كيف تحملنى بعناية ورفق ! . . آه ... ما أبدع هذا المكان ! .. أأنا راحلة غداً إلى باريس حقا ؟

وردد سانين القول كأنه رجع الصدى :

— نعم ... أأنت راحلة إلى باريس حقا ؟

— وهل أنت راجع إلى فرانكفورت ؟

— أنا راجع إليها بالتأكيد .

— أخ ... حسنا ، أتمنى لك السعادة... ولكن اليوم يومنا نحن... نعم يومنا نحن ...

ووصلا إلى مشارف الغابة ، ثم لم يلبثا أن غاصا فى ظلالها الوارفة

التى أحاطت بهم من كل جانب . وصاحت ماريا نيقولايڤنا .

— ولكن هذه هى الجنة بعينها .. لنتوغل فى هذه الظلال المنعشة .

وتقدمت الخيل « متوغلة فى الظلال المنعشة » ، متمايلة تمايلا خفيفا ، ومتنفسة بقوة . ثم عرجت بها الطريق وتحولت إلى ممر ضيق . وفاحت رائحة هى مزيج من شميم الخلنج والسرخس ، والأرض الرطبة ، وأوراق الشجر القديمة المتآكلة المرتقة فى ذلك الجو المتكاثف الراكد . وانبعثت موجة برد قارس من أعلا صخرة شهباء سامقة . واكتست المرتفعات الممتدة على جانبى الممر بالحشائش الخضر . وصاحت ماريا نيقولايڤنا مشيرة إلى مرتفع من الأرض مكسو بالخضرة :

— قف ، فأنا أريد أن أستريح على هذه الحشية الحريرية .. ساعدنى على الترجل .

ووثب سانين إلى الأرض وجرى إليها ، فاتكأت على كتفه وقفزت بدورها من فوق سرجها ، وصعدت إلى ربوة خضراء فجلست عليها ، ووقف سانين أمامها وهو ممسك بزمام الجوادين . ورفعت إليه عينيها الواسعتين :

— أتعرف كيف تتغاضى وتنسى ؟

وتذكر سانين ما حدث فى العربة ، فسألها بدوره :

— أهذا سؤال أم عتاب ؟

— أنا لم أعاتب أحدا طوال حياتى . أتعتقد فى السحر ؟

— ماذا تعنين ؟

— فى السحر والرقى ... ألا تعرف هذه الأمور التى تتحدث عنها الأغانى الشعبية الروسية ؟

وغمغم سانين :

— آه ... أهذا ما تعنين ...

— نعم ... وأنا أؤمن بهذه الأمور ، وستؤمن أنت بها كذلك فى يوم من الأيام .

وكرر سانين قوله :

— السحر ! ... الرقى ! ... كل شىء ممكن ... أنا لم أكن أصدق ذلك ، ولكنى أصدقه الآن ... فأنا لم أعد أعرف نفسى .

وبدا على ماريا نيقولايڤنا أنها تفكر . ثم التفتت إلى الوراء .

— أنا أعرف هذا المكان بعض المعرفة . انظر خلف تلك الشجرة الضخمة يا سانين... ألا يوجد هناك صليب خشبى أحمر اللون ؟ ..

وسار سانين بضع خطوات ، ونظر خلف الشجرة وقال :

— نعم ، هذا صحيح .

وهمهمت ماريا نيقولايڤنا :

— حسنا . فأنا أعرف المكان .. نحن لم نضل بعد .. ما هذا الصوت . . أهو صوت حاطب ؟ . .

وحدق سانين مخترقا ببصره الظلال الكثيفة :

— نعم . هذا رجل يقطع بعض أفرع الشجر الجافة .

فقالت ماريا نيقولا يفنا :

— لا بد أن أمشط شعرى حتى لا يرانى ذلك الرجل على تلك الحال فيظن بى الظنون .

وانتزعت قبعتها من فوق رأسها ، وأخذت تمشط خصائل شعرها فى وقار صامت : ووقف سانين أمامها جامدا ، واستطاع أن يتحرى ببصره أوصال جسمها من تحت ثوبها الأسود الشفاف الذى علقت به بعض عيدان الحشائش .

وحرك الحصان رأسه بعنف على حين فجأة ففزع سانين دون وعى . وسرت الرجفة فى أوصاله من رأسه إلى قدمه . وشاع الاضطراب فى كيانه، وتوترت أعصابه حتى كادت تنقطع . لقد صدق حين قال إنه لم يعد يعرف نفسه . . وبدا كأنه مسحور فعلا . . كانت فكرة واحدة تستحوذ عليه .. كانت رغبة واحدة تتمكن فى كل بضعة من جسده . . وراح نظر ماريا نيقولا يفنا يتفحصه. وقالت أخيرا وهى تضع قبعتها على رأسها:

— هذا أشبه بما كنت أرتقب .. لماذا لا تجلس ياسانين ؟ .. تعال اجلس هنا .. ولكن لا ، انتظر . . ما هذا ؟ ..

ودوى الرعد فوق أعالى الشجر .

— أيكون هذا رعدا ؟ ..

وأجاب سانين :

— يبدو ذلك .

— إنها نزهة حقيقية ! .. نزهة حقيقية! .. وقد توجت بأروع نهاية ..

ودوى الرعد من جديد مشتداً عن ذى قبل ، ثم تفتت دويه وتلاحق

فصاحت ماريا نيقولا يفنا :

— مرحى .. أعد . أتذكر ياسانين حديثنا أمس عن قصة «أينايد» .. لقد دهمت العاصفة بطلى القصة كذلك وهما فى الغابة .. ولكن لا بد لنا من البحث عن مأوى .

وقامت على عجل وهى تقول :

— قرب مربط الفرس منى . . ومد يدك . . نعم ، هكذا . . أنا لست ثقيلة الوزن على أية حال .

وقفزت فى خفة الطير إلى السرج . . وامتطى سانين كذلك صهوة جواده .

وسألها متردداً :

— أتنوين العودة إلى البلدة ؟ . .

— العودة ! . . العودة ! . .

كررت هذه الكلمة بصوت تعالت نبراته. ثم جمعت اللجام فى يدها واستطردت فى لهجة آمرة لا تخلو من خشونة :

— اتبعنى .

ودفعت بفرسها إلى الأمام ، ومرت بالصليب الأحمر ، وانحدرت إلى السهل ، وواصلت المسير إلى مفترق طرق . ومن ثم اتخذت طريقا آخر عاد بها إلى ناحية أخرى من الجبل ، ودخلت الغابة من جديد ، وتوغلت فيها ، وبدا أنها تعرف الطريق الذى تسلكه جيدا . ولم تنفرج شفتاها عن كلمة ، ولم تحن منها التفاتة واحدة إلى الوراء ... ظلت تسير قدما فى صلف وتعالٍ ، وسار سانين خلفها فى خضوع وذلة بعد أن افتقد قلبه المضطرب آخر أثر لقوة الإرادة . وتساقط رذاذ خفيف ، فحثت فرسها على السرعة ، ولم يتوان سانين عن اللحاق بها . ورأى أخيرا من خلال الأغصان كوخا متضما يقوم فى ظل صخرة شهباء عالية ؛ ويبدو له باب واطىء مربع ودفعت ماريا نيقولايفنا فرسها بين الأعشاب المتشابكة الجذور ، وترجلت أمام باب الكوخ مباشرة ، وهتفت بصوت أشبه بالهمس : يا « أنياس ! » .

* * *

بعد أربع ساعات كانت ماريا نيقولا يفنا وسانين فى طريق عودتهما إلى ڤيسبادن ، ومن ثم إلى الفندق . وكان السائس يهوم خلفهما على سرجه . وقابل مسيو پولوزوف زوجته وهو ممسك بالخطاب الذى كتبه إلى وكيل أعماله . وألقى عليها نظرة فاحصة ، ثم عبر وجهه عن عدم الرضا . وسألها مغمغما :

— أتقصدين أن تقولى إنى خسرت الرهان ؟ ! ...

وهزت ماريا نيقولا يفنا كتفيها . وكان هذا جوابها الوحيد .

وبعد مرور ساعتين كان سانين يقف أمامها فى غرفته وقد تحول إلى رجل مهدم ... ضائع .

وسألته وهى تحدجه بنظرها .

— إلى أين تزمع الرحيل ؟ ... ألى باريس أم إلى فرانكفورت ؟ .

— إلى حيث تأمرين ... سأتبعك أينما تذهبين ، وسأحل معك حيثما تحلين ... سألازمك حتى تنبذينى —

وسقط على ركبتيه بلا حول أو حيلة . وتناول يديها وضغط بهما شفتيه ، فسحبتهما بخفة ووضعتهما على رأسه. ثم غرست أصابعها العشر فى شعره ، وداعبت خصائله الناعمة وهى واقفة أمامه رافعة الرأس ، مفترة الثغر عن بسمة انتصار ...وكانت عيناها المحملقتان، المؤتلقتان بنور كاد يخفى سوادها ، مجردتين من كل معنى إلا ذلك الاكتظاظ الأجوف بنشوة الغلبة والقهر . إن الصقر حين ينشب أظافره العشرة فى ريش فريسته هو الذى تشبه عيناه فى هذه الحالة عينى ماريا نيقولايفنا وهى ممسكة برأس سانين .

— ٤٣ —

هذا ما تذكره سانين حين عثرت يده بذلك الصليب وهو يدسها فى فى أدراج مكتبه مقلبا أوراقه القديمة فى سكون غرفته الموحشة ، وقد تلاحقت هذه الأحداث حية أمام عينه الباطنة . ولكنه عندما وصل

بذاكرته إلى تلك اللحظة التى جثا فيها على ركبتيه أمام مدام پولوزوف فى ابتهال مهين ... تلك اللحظة التى بدأ فيها عهد عبوديته ، أزاح عنه تلك الصور التى أيقظها من رقادها ، فقد تعذر عليه احتمال باقى تلك الذكريات .

إن ذاكرته لم تخنه ... لا ، لم يكن العيب عيب ذاكرته ، فقد كان يعرف ماحدث بعد ذلك حق المعرفة . ولكن العار كان يخنق أنفاسه كلما تذكر تلك الأيام ، حتى بعد أن ابتعد بها القدم . كان يخشى أن يعاوده احتقاره لنفسه ، ذلك الشعور الذى لاسبيل إلى قهره ... فهو لم يجهل أن هذا الشعور سينقض عليه كالموجة الطاغية الكاسحة ، فيغرق ماعداه من مشاعر ، ولذا كان لابد أن يطلب إلى ذاكرته أن تصمت . إنه مهما حاول الهروب من صور الماضى المنبعثة من ظلماتها ، فإن الخلاص منها جميعها ، كان مستحيلا . فما ظل يذكر تلك الرسالة التعسة الباكية الزائفة التى أرسلها إلى جما دون أن يتلق عنها ردا . أما العودة إليها ، والالتقاء بها وجها لوجه بعد أن خدعها وملأ قلبها يأسا ... فلا ... لا ... إذ بقيت لديه بقية من الشرف والضمير حالت دون انحداره إلى هذا الدرك ثم إنه كان قــد فقد ثقته بنفسه واحترامه لها ، ولم يعد يستطيع احتمال أية مسئولية .

وتذكر سانين أيضا — ويا للعـــار ! — إرساله پولوزوف إلى فرانكفورت ليحضر له ملابسه وحاجياته ... تذكر الوجل الذى كان يعانيه ... وتحرقه إلى السفر لباريس ... كانت هناك فكرة واحدة مستحوذة

عليه ، هى الهروب إلى باريس بأقصى سرعة ... تذكر كيف كان يبذل جهده ليتقرب إلى پولوزوف بناء على أمر ماريا نيقولا ييڤنا ، وكيف اضطر بناء على أمر أيضا ، أن يصادق فون دونهوف الذى كان يزين أصبعه بخاتم يماثل الخاتم الذى أهدته ماريا إليه — أى إلى سانين — ثم لاحقته ذكريات أخرى أسوأ من السالفة ، وأدعى إلى الخزى والعار . فقد حمل إليه الخادم فى أحد الأيام بطاقة مكتوبا عليها « پانتاليونى سيپاتولا ، المغنى لبلاط صاحب السمو دوق مودينا . » وتهرب من مقابلة ذلك الشيخ ، ولكنه لم يستطع أن يتحاشى الالتقاء به فى ردهة الفندق ... وهو لايزال يذكر وجه الشيخ المتميز غيظا تحت فروة شعره الأشهب المجعد ... وعينيه المتقدتين كجذوتى نار ... وعبارات الوعيد واللعنات التى جلجلت فى أذنى سانين — ومن الكلمات التى استطاع إدراكها من بين وابل السباب بالإيطالية : ... « ملديتسيونى » ... ياجبان ! . . يا عديم الشرف ... « إنفامى » .

ويتلوى سانين من الألم ، ويهز رأسه لينفض عنه تلك الذكريات ، ولكنه يرى نفسه مع ذلك جالسا فى كرسى عربة السفر الأمامى الضيق ، بينما يضطجع پولوزوف وماريانيقولا ييڤنا أمامه فى صدر العربة التى كانت تجرها أربعة جياد وهى تجتاز شوارع ڤيسبادن فى طريقها إلى باريس ، نعم إلى باريس ... وانهمك پولوزوف فى التهام كمثرى كان سانين نفسه هو الذى قشرها له وظلت ماريا نيقولا ييڤنا تبتسم وهى تنظر إلى سانين

نظرة كان قد ألفها فى عهد عبوديته ... نظرة السيد ... نظرة المالك إلى ما يملك ...

ولكن ... يالقدرة السماء ! .. من هذا الذى وقف فى طريق العربة أليس هو باتاليونى ؟ ! ومن ذا الذى يقف إلى جانبه ؟ . . أيمكن أن يكون إميليو ؟ . . نعم إنه هو الشاب المتحمس الذى أخلص يوما لسانين كل الإخلاص ! . . فأية حسرة فاض بها قلبه على بطله !.. على مثله الأعلى ! وما أشد اصفرار وجهه ! .. ذلك الوجه الجميل ... الكريم ... الذى بلغ من الحسن مبلغا لفت نظر ماريا نيقولا يفنا ، وحملها على أن تنحنى وتطل من نافذة العربة .. لقد كان يتقلص حنقا وازدراء ... أما عيناه .. الشبيهتان بعينى چيما ... فكانتا تحدجان سانين، بينما شفتاه المطبقتان بقوة لم تنفرجا إلا لتقذفا ألفاظ السباب ...

ومد باتاليونى يده مشيرا إلى سانين ... ففيم هذه الإشارة ؟ .. كان يلفت نظر « تارتاجليا » للخائن ، فأخذ الكلب الأمين ينبح فى وجه ذلك الخائن ... فياهول الإهانة الصادرة من الكلب الأمين ... إلخ ! . .

ثم ... الحياة فى باريس ، وما أكتنفها من إهانات ، ومن عذاب مبرح لا يعرفه إلا العبد الذليل الذى لا يجرؤ حتى على الغيرة ، أو على الشكوى . بل يصبر على الضيم إلى أن ينبذ ويلقى به كالقفاز الخلق ...

ثم العودة إلى أرض الوطن .. إلى الحياة المسمومة المقوضة الأركان، إلى المضايقات التافهة ، والمشاغل الحقيرة ، والندم المؤلم غير المجدى ..

ثم التناسى المؤلم غير المجدى كذلك . ولم يكن عقابه واضحا محددا ، ولكنه كان متلاحقا لا ينقطع لحظة واحدة .. كان ألما متصلا مضجراً مقلقا كان شبيها بسداد دين ضخم فلسا بعد فلس ..

كانت كأسه قد امتلأت إلى الحد .. الكافى !

* * *

ولكن كيف حدث أن بقى صليب چيما عنده محفوظا على كر الزمن ؟ ولماذا لم يرده إليها بعد أن قطع صلته بها ؟... ثم كيف حدث أن عينه لم تقع عليه طوال تلك المدة إلا فى ذلك اليوم بالذات ... غرق فى تأمل طويل . ولم يستطع أن يفسر ، رغم ما أكسبته السنون من خبرة ومعرفة، سبب هجره لچيما التى كان يكن لها ذلك الحب والعطف العميقين، وانصرافه عنها إلى امرأة لم يحبها على الإطلاق ! . . وقد أدهش أصدقاءه فى اليوم التالى حين أنبأهم أنه أزمع الرحيل إلى الخارج .

عجب مجتمع بطرسبورج لسانين كيف يغادر مدينتهم وفصل الشتاء فى أوجه . . لا سيما بعد أن استأجر منزلا جديدا فخما ، وزينه بأبدع الرياش ، وحجز له مقعدا فى الأوبرا للموسم بطوله حيث، تقوم مدام باتى — نعم مدام باتى نفسها — بتمثيل دور البطولة ! ! . لقد حار أصدقاؤه ومعارفه فى تصرفه هذا ، ولكن الناس لا يشغلون طويلا بأمر الآخرين، ففى اليوم الذى قصد سانين فيه إلى محطة القطار لمغادرة المدينة إلى الخارج لم يحضر لتوديعه إلا شخص واحد هو حائك ملابسه الفرنسى ، وكان

سبب حضوره الطمع فى حصوله على أجر مضاعف لسترة أنيقة للرحلات كان قد حاكها له .

(٤٤)

عندما قال سانين لأصدقائه إنه مسافر إلى الخارج لم يحدد لهم وجهته . بيد أن القارىء لن يصعب عليه أن يستنتج أنه قصد إلى فرانكفورت رأسا . وبفضل السكك الحديدية التى انتشرت وقتئذ فى كل مكان استطاع أن يصل إلى تلك المدينة بعد ثلاثة أيام من مغادرته لبطرسبورج ، وهو لم يكن قد زارها منذ ١٨٤٠ . وكان فندق « النجمة البيضاء » ما زال قائما فى موضعه السابق ، ولكنه لم يعد فندقا من الطبقة الأولى كما كان فيما مضى ، أما شارع « زايل » فلم يطرأ عليه تغير كبير ، ولكن دار مدام روزيللى لم يعد لها أثر ، بل إن الشارع الجانبى الذى كان دكان الحلوى يقع فيه زال بأسره من الوجود . وطاف سانين فى الشوارع والطرقات دهشا مذهولا ، فإن عينه لم تقع فيها على مشهد واحد من المشاهد التى ألفها فيما مضى ، لقد توارت البيوت القديمة ، واحتلت مكانها عمارات ضخمة وقصور بديعة قامت على جانبى الشوارع المستجدة فى خطوط متوازية مستقيمة .. وطالت الأشجار والأعشاب وتفرعت فى الحديقة العامة التى التقى فيها سانين بجيما ، وطارحها الحب لأول مرة ، وقد حمل هذا التغير سانين على أن يسائل نفسه : أهذه هى تلك الحديقة العامة فعلا ؟ أهى تلك الحديقة العامة فعلا ؟ أهى مهد حبه ومرتعه ؟ .. وحار فيما يفعل !

كيف يستخبر أخبار جيما ؟ وإلى من يلتجىء لتحقيق تلك الغاية . وفى الواقع إن مهمته لم تكن هينة ، فقد انقضى ثلاثون عاما على ذلك العهد . وهو وإن طال سؤاله لن يجد شخصا واحدا سمع باسم مدام روزيللى فى هذه المدينه التى تعج بأهلها . وقد نصحه مدير الفندق الذى نزل به أن يتوجه إلى المكتبة العامة ، ويراجع هناك صحف ذلك العهد جميعها .. ولكن ، ما فائدة ذلك ، إن مدير الفندق ، وهو صاحب الاقتراح ، لم يستطع الإجابة على هذا السؤال . واضطر سانين وهو يتخبط فى حبائل اليأس أن يسأل عن هر كاوبر ، وكان مدير الفندق يعرف هذا الاسم حق المعرفة ، ولكن ذلك لم يفد سانين أيضا : فقد استطاع مدير المتجر الأنيق أن يشق طريقه ، ويجمع ثروة كبيرة ، ويقفز إلى طبقة أصحاب رؤوس الأموال ، ولكنه سرعان ما سقط كما ارتفع . وتبددت ثروته ، وتردى إلى هاوية الافلاس ، وزج به فى السجن حيث لقى حتفه ، ولم يشعر سانين بأقل حزن لهذا النبأ . ولكنه ما كاد ييأس من الوصول إلى هدفه ، ويرى رحلته إلى فرانكفورت كأنها نوع من صيد الأوز البرى ، حتى وقع بصره ، وهو يقلب صفحات « دليل » المدينة ، على اسم ڤون دونهوف وقد كتب أمامه « صاغ محال على الاستيداع » ، فاستأجر عربة وانطلق بها إليه — ولو أنه عجب لعثوره على اسم ڤون دنهوف بالذات .. نعم ، لماذا لم ترشده الظروف إلا إلى هذا الرجل ؟ .. ثم لماذا قدر أنه ، أى ڤون دونهوف ، يعرف شيئا عن أسرة روزيلى . بيد أن الغريق يتعلق بقشة طافية على سطح الماء .

ووجد سانين الصاغ المتقاعد فى داره ، واستطاع أن يتعرف على خصمه القديم رغم ابيضاض شعره ، وعرفه ڤون دنهوف كذلك ، بل لقد سره أن يراه ، لأنه أذكره بصباه وصبيانياته القديمة . وعلم سانين منه أن أسرة روزيللى رحلت إلى أمريكا ، وأقامت بنيورك . وأن چيما تزوجت برجل أعمال هناك . وقال ڤون دونهوف إن له صديقا من رجال الأعمال أيضا قد يعرف عنوان تلك الأسرة لأنه يعامل كثيرين من تجار نيويورك ؛ واستطاع سانين أن يقنع ڤون دونهوف بالذهاب إلى صديقه وسؤاله عن العنوان المطلوب .. ويا للسعادة ! ! .. لقد وفق إلى عنوان زوج چيما وهو : « مستر چيريمى سلوكوم ٥٠١ برودوى. نيويورك» ولكن هذه المعلومات ترجع إلى عام ١٨٦٣ .

وصاح ڤون دونهوف :

— لنستمسك بحبل الأمل .. ونقدر أن حسناء فرانكفورت ما زالت على قيد الحياة ، وأنها لم تغادر نيويورك !

وخفض صوته وهو يستطرد القول :

— والشىء بالشىء يذكر . أما زالت تلك السيدة الروسية .. التى كانت تعيش فى ڤيسبادن . مدام ڤون بو .. پوزولوف .. أما زالت على قيد الحياة ؟ ..

وأجاب سانين .

— لا .. لقد ماتت منذ مدة طويلة .

ورفع ڤون دونهوف بصره إلى سانين ، وعندما لاحظ أنه يشيح بوجهه مقطبا ، انصرف عنه دون أن يزيد كلمة على ما قال .

* * *

أرسل سانين فى نفس اليوم خطابا « لمسزچيما سلوكوم » بنيويورك أخبرها فيه أنه يكتب لها من فرانكفورت حيث قصد إليها بحثا عنها . وأنه يعلم حق العلم بفقدانه كل حق فى طلب الرد على خطابه ، وكل أمل فى عفوها عما سلف ، فهو لم يعمل شيئا يستحق به ذلك . كل ما يرجوه أن تكون الحياة السعيدة التى تحياها قد أنستها حتى وجوده . . ثم أضاف فى رسالته أنه لم يفكر فى تذكيرها بنفسه ثانية إلا لأن مصادفة سعيدة أيقظت الماضى فى خاطره نابضا بالحياة . . وحدثها بعد ذلك عن حياته ، حياة الكآبة والوحدة بغيرزوجة أو ولد . وتوسل إليها أن تحاول فهم قصده من الكتابة إليها ، وألا تدعه يفارق هذه الحياة حاملا معه شعوره بالإثم .. ذلك الإثم الذى لم يحظ بالصفح رغم طول عهده .. وأن تثلج صدره بالكتابة إليه عن بعض أخبارها الخاصة بحياتها فى نيويورك التى تقيم بها ، ولا بأس إن قترت فى ذلك كل التقتير .. ثم ختم خطابه بقوله : « لو أجبت على هذه الرسالة ولو بكلمة واحدة فإنك تكونين قد أديت عملا من أعمال الخير جديرا بقلبك الكبير الكريم . وسأظل أشكرك عليه إلى آخر يوم من أيام حياتى : أنا أقيم الآن بفندق « النجمة البيضاء »

(ووضع خطا تحت هذا الاسم) وسأظل به ، منتظرا ردك حتى الربيع.

أرسل الخطاب بالبريد وظل ينتظر رده . وانقضت ستة أسابيع وهو مقيم بغرفته لا يكاد يبارحها أو يقابل مخلوقا . ولم يكن هناك أحد فى روسيا أو فى غيرها يمكن أن يراسله . وقد ارتاح لهذا الخاطر إذ أن ورود أية رسالة فى هذه الحالة لا يمكن أن يعنى إلا أنها الرسالة المرتقبة . وكان يقتل وقته بالقراءة التى لم تنقطع من الصباح حتى المساء . ولكنه لم يقرأ الصحف والمجلات بل مجلدات التاريخ الجادة . وكانت القراءة المتلاحقة ، والهدوء المحيط به ، وحياة العزلة الشبيهة بعزلة النساك .. كان ذلك كله يلائم طبيعته ، ويرجع الفضل فى استمتاعه به إلى جيا .. ولكن أهى لا تزال على قيد الحياة ؟ . . أيمكن أن تجيب على رسالته ؟ . .

وأخيراً ورد إليه خطاب عليه طابع بريد أمريكى . وكان الخط المكتوب على غلافه إنجليزى الحروف . بيد أنه عرف الخط ، وشعر بوخزة فى قلبه . وتردد فى فض الغلاف . وعندما فضه بحثت عيناه أولا عن التوقيع .. فإذا هو جيا ، واغرورقت عينا سانين بالدموع . فقد كان توقيعها باسمها مجردا من لقبها دليلا على تسامحها ورضاها . ونشر ورقة الخطاب الزرقاء المطوية فسقطت منها صورة فوتوغرافية .. والتقطها ونظر فيها فكاد يصعق — لقد كانت صورة جيا نفسها وهى فى ريعان صباها .. كانت صورة جيا كما عرفها من ثلاثين عاما . فالعينان هما هما كعهده بهما ، وكذلك الشفتان والسيماء وقد كتب خلف الصورة « ابنتى مريانا » :

وكان الخطاب بسيطا ووديا ، شكرت فيه جيا سانين على كتابة خطابه إليها دون تردد ، وعلى حسن ظنه بها وثقته فيها ... وقد اعترفت له بأنها كابدت لوعة الأسى حقبة من الزمن على أثر تخليه عنها ، ولكنها كانت تعد التقاءها به رغم ذلك فاتحة خير ، وكيف لا ، وقد أدى ذلك إلى إنقاذها من ازواج بهر كلوبر ، أدى ، ولو بطريق غير مباشر إلى اقترانها بزوجها الحالى الذى قضت معه سبعة وعشرين عاما نعمت خلالها بالسعادة والرخاء ... وهو معروف لدى الجميع فى نيويورك ... ومضت جيا تقول فى خطابها إنهـا رزقت خمسة أولاد بينهم بنت واحدة فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهى مخطوبة الآن ، وقد أرسلت له صورتها لأن الجميع يقولون إنها تشبه أمها كل الشبه . وأرجأت جيا ذكر الأنباء المكدرة إلى آخر خطابها ... إذ قالت إن أمها ، فراو لينور ماتت ، بيد أنهـا صحبت جيا إلى أمريكا ، ورأت أحفادها ودللتهم قبل أن توافيها منيتهـا . وكان بانتا ليونى يزمع السفر كذلك إلى القارة الجديدة ، ولكن الموت لم يمهله حتى يغادر فرانكفورت ... أما إميليو ... الحبيب المنقطع النظير ... فقد مات فى ميدان الشرف فى سيسليا دفاعا عن وطنه . لقد كان واحدا من الفرسان الألف الذى قادهم غريبالدى إلى النصر . وظللنا نبكيه مدة من الزمن بحرارة ، ولكننا بينما كنا نجود بالدمع السخين على الأخ العزيز ، كنا فى نفس الوقت نفخر به . وسنظل نفخر به ، ونحوط ذكراه بالتقديس . إن روحه الشريف المجرد من الهوى جدير بإكليل

الشهداء . ثم عبرت جيما عن أسفها لما آلت إليه حياة سانين ، وتمنت له هدوء البال وراحة النفس والسلام . وقالت إنها تود أن تراه ثانيـة ولو أنها ترى أن هذا المطلب بعيد الاحتمال .

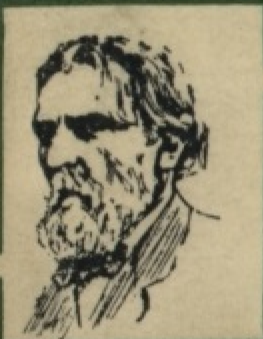
ولن نحاول وصف مشاعر سانين لدى قراءته هذا الخطاب ، فإننا لن نجد العبارات القادرة على أداء هذا الغرض : ذلك لأن مشاعره كانت أعمق وأقوى وأخفى من أن تعبر عنها الكلمات ... إن الموسيقى وحدها هى التى تستطيع التعبير عنها .

وأجاب سانين على خطاب جيما فى الحال ، وأرسل هدية ثمينة إلى ابنتها المخطوبة ... أرسل إليها صليبا من العقيق معلقا بعقد من اللؤلؤ الحر ، وقد نقش عليه : « من صديق مجهول إلى ماريانا سلوكوم » : ورغم ارتفاع ثمن الهدية فإن ذلك لم يؤثر فى ثروته لأنه استطاع فى بحر الثلاثين سنة الأخيرة أن يجمع ثروة طائلة .

وفى أوائل مايو عاد إلى بطرسبوج ، ولعله لم يقصد أن يقيم بها طويلا فقد ترددت إشاعة مؤداها أنه يقوم ببيع جميع أملاكه استعدادا للرحيل إلى أمريكا ؟

(تمت)

بادن بادن عام ١٨٧١



المؤلف

يعتبر « إيفان سرجيفتش تورجنيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) » من الكتاب الروس العظام الذين تعد أعمالهم مفخرة للثقافة الروسية القومية.

ويقول مكسيم جوركي:

« إن كتب تورجنيف تغني بمجد المرأة الروسية ».

وهاتان القصتان اللتان نقدمهما لقارىء اليوم: « آسيا » و « جداول الربيع » هما قصة حب كتبت بأسلوب عاطفي مؤثر أصبح علماً على تورجنيف، مهداة إلى الشباب الساحر الصافي المتدفق كأنه « مياه النبع ».

ويرى معاصرو تورجنيف أن هاتان القصتان تدخلان في عداد الترجمة الذاتية للمؤلف، وأنهما تقصان حياة أشخاص كان الكاتب يعزهم كل الاعزاز، فآسيا الفتاة المتكبرة المندفعة، فتاة الطبيعة المتحررة، « وزنايدا » الأميرة المدللة الضالة، و « جما » المرأة ذات القلب الكبير. هن جميعا صور رسمتها يد أستاذ لا مثيل له.

وكان « تورجنيف » يعتبر « جداول الربيع وآسيا » من أفضل القصص التي ألفها.

دار الطباعة الحديثة